آية الله جوادي آملي

الوحي والنبوة في القرآن

ترجمة: دار الصفوة



دار الصفوة
بيروت - لبنان

الوحي والنبوة في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير الموضوعي

للقرآن الكريم

٣

الوحي والنبوة في القرآن

تأليف

آية الله جوادي آملي

ترجمة: دار الصفوة

دار الصفوة
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار الصفوة

بيروت - بئر العبد - الصفيرة - مقابل سنتر داغر - بناية دياب مهدي

ت: ٨٢٣٥١٨ - ٨٢٢١٦٧ - ٦٠١٠٠٢ Tel 823518 - 822167 - 601002

فاكس: ٠٠٩٦١١٦٠١٠١٩ Fax: 009611601019

ص.ب: ٦٣ / ٢٤ P.o Box 63 24

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمٰن الرحيم

كتاب «الوحي والنبوة في القرآن الكريم» دراسة لهذا الموضوع من خلال السور الحواميم السبعة في القرآن قد قام بها الشيخ عبدالله الجوادي الآملي في محاضراته التفسيرية وقد صدر هذا الكتاب كجزء ثالث لكتاب التفسير الموضوعي بالفارسي وقد قمنا بدورنا بترجمته الى العربية لينضم الى باقي الأجزاء التي ترجمت قبله على أمل الاستمرار في ذلك حتى اكمال ما تبقى من أجزاء أخرى.

وقد سرنا فيه على نهجنا في باقي الأجزاء من مراعاة الدقة والأمانة في الترجمة ما أمكن ولم نتصرف الا في بعض الأمور الهامشية تنحصر فيما يلي:

الأول: اختيار العنوان للكتاب اذ هو قد صدر في الأصل الفارسي باسم التفسير الموضوعي دون بيان عنوان يتعلق بموضوع كل جزء.

الثاني: تغيير ترقيم الدروس اذ جعلنا لكل جزء ترقيماً خاصاً به مع انه في الأصل قد رقمت دروس كافة الأجزاء ضمن تسلسل واحد.

الثالث: اختصار خاتمة بعض المحاضرات وهي دعاء اعتاده المؤلف عقيب كل محاضرة وقد تطول احياناً وهي لا علاقة لها بمضمون الكتاب أصلاً.

الرابع: حذف بعض الشواهد الشعرية في موارد قليلة جداً حيث لا يكون فيها اضافة معنى جديد سوى الاستشهاد على مطلب قد تم بيانه ولا تكون اكثر من تكرار للمعنى بعبارة أخرى وعلى كل حال هي موارد قليلة جداً.

نسأل الله ان نكون قد وفقنا للقيام بما نقدر عليه تجاه هذا العمل كما نعتذر من سهو او اشتباه قد يقع آملين من القارىء التسامح والاغضاء.

والحمد لله أولاً وآخراً

لجنة الترجمة

الدرس الاول

القرآن العزيز مبين ضرورة الوحي

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

على الرغم من ان القسم الأهم من بحث القرآن الكريم، يتعلق بالمعارف والأصول الاسلامية العامة، بيد أن بعض السور تختص ببيان مسألة الوحي وضرورة الوحي وما جاء به الوحي. وقد طرحت السور التي بحثت عن ضرورة الوحي وكيفية الوحي، وما جاء به الأنبياء، جدال المستكبرين والدافع الى الاستكبار، وسرّ جدالهم وكيفية مواجهتهم وضربهم. وأعلن في النتيجة ظهور وانتصار الحق. والسور التي ينظّم خطها الأصلي في هذا المحور، تبتدىء بـ(حم). وهناك سبع سور في القرآن الكريم، تدعى بالحواميم تبتدىء بحروف (حم) ولما كانت هذه الحروف المقطعة رمزاً الى عنوان تلك السور واشارة اجمالية الى مفادها، وهذه السور

السبع التي لها عنوان مشترك، تفيد مضموناً جامعاً، لذا فقد كانت هناك كلمة مشتركة في بدايتها، هي (حم) تقول هذه السور عند بيان ضرورة الوحي وما اتى به الوحي أن أهل العلم والعقل والمعرفة يفهمون ويصدّقون بالوحي وضرورته وما جاء به الأنبياء كذلك. اما الذين يواجهون الأنبياء، ويقفون أمام لزوم الوحي، ويسعون الى اطفاء مصباح الوحي، فسبب ذلك الوقوف ضد الحق، هو جهلهم واستكبارهم. فهم يجادلون ضد الحق، لأنهم جاهلون، ولا يخضعون ولا يتواضعون في ساحة الحق، لأنهم مستكبرون، فلا هم يفهمون الحق، ولا هم على استعداد للقبول بكلام العارفين بالحق. لا هم يمتلكون الكلام الحق ولا هم يستمعون الى كلام صاحب الحق. فلا يخرج من افواههم قول مبرهن وحق، ولا يدخل في آذانهم كلام حق. والانسان الجاهل والمستكبر، ليس لديه ذهن علمي ولا أذن واعية. فلا لسانه ينطق بالعلم والحق، ولا اذنه تسمع الحق. والأنبياء قد جاؤوا ليعطوا الانسان لساناً وبياناً ينطق بالحق. وليجعلوا من فمه فما علمياً، حتى يخرج من مجراه كلام علمي. كما أنهم سعوا الى جعل أذن الانسان قناة لقبول الحق، حتى يدخل الحق في أذنه. وتتفتح آفاق نفسه نتيجة ذلك، هذا المضمون المشترك، نجده في السور السبع المسماة بالحواميم. كما نرى بوضوح ذلك الجدال المشترك، في هذه السور السبع، وفي النتيجة نشاهد جيداً في القرآن الكريم غلبة الحق وصاحب الحق وهزيمة الباطل والنزعة الى الباطل.

وكمثال على ذلك الآيات التي تبيّن في سورة المؤمن، والتي تدعى بسورة غافر كذلك، والتي هم أول (حم) من هذه الحواميم السبع تبدأ السورة هكذا ﴿**حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز**

العليم﴾[1] .

ان الله الذي هو جامع لكل الكمالات، لديه العزة والعلم أيضاً، وما له دور مؤثر في تنزل الوحي، هو العزة في ظل العلم، والعلم في اطار العزة. والعزيز يقال للوجود الذي لا يمكن الوصول اليه، ولا يقبل النفوذ، وللموجود القوي والراسخ والذي ليس من أهل التسليم والخضوع. فيقال للأرض الصلبة والقوية والتي لا تقبل النفوذ (ارض عزاز)، والمؤمن يتمتع بالعزة من ناحية انه لا يستسلم الا امام الحق ولا ينفذ فيه اي عامل سواه، وهذه العزة هي شعاع من العزة المطلقة لله، الله الذي وهب الكون القانون، ونظام الكون هو اثر من آثاره، لا يقع تحت نفوذ اي مؤثر لأنه من غير الممكن ان يستطيع الأثر وهو موجود ضعيف ومحدود ان ينفذ في المؤثر، وهو قوي وغير محدود، وعلى هذا، فان الله عزيز مطلق ولما كانت ذاته هي الحضور المحض، وجميع الأشياء حاضرة في محضر علمه، فسيكون اذن علماً مطلقاً ان عزة وعلم الله لهما دور في تنزيل هذا الكتاب، اي انزال مضمونه برداء الكلام واطار اللفظ، وتنزيل معارفه الى مستوى السمع والقول والكتابة وكذلك في أنزل معانيه الرفيعة الى عالم الطبيعة، لذا قال تعالى: **﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾** لأن كل اسم من أسماء الله الحسنى يظهر لأمر خاص، فحين يكون الكلام عن التوبة وقبول توبة الفاسقين، نرى القرآن يقول: **﴿ان الله غفور رحيم﴾**، وعند الكلام عن جزاء الفاسقين، يقول القرآن: **﴿ان الله شديد العقاب﴾**، فالأسماء الحسنى يتنزل ويظهر كل واحد منها لغرض خاص، ولما كان للعزة والعلم دور في تنزل هذا القرآن، فان خلاصة القرآن ومضمونه، تكون عزة خاصة وعلم خاص،

---

(1) سورة غافر، الآيتين (1و2).

ولذلك بالامكان ذكر القرآن بوصفه عزة مقرونة بالعلم وعلماً الى جانب العزة، والانسان العالم بالقرآن، والعامل به سوف يكون مظهراً للعزيز العليم، وسوف يتصف بالعزة بمقدار معرفته بالقرآن، لأن المؤمن عزيز، ويتمتع بالعلم الالهي بمقدار أنسه بالقرآن، إذ أن القرآن علم. **﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾**[1] .

وقال تعالى في سورة فصلت، وهي ثاني (حم) من الحواميم السبع: **﴿حم * تنزيل من الرحمن الرحيم﴾**. هذا الكتاب قد نشأ على أساس الرحمة الرحمانية للحق تعالى وتنزل من رحمته الرحيمية.

وهنا ظهرت الرحمة، ليس الرحمة العاطفية وانما ذلك المبدأ الذي يجبر النقص بالكمال، ويوصل الناقص الى الكمال والهداية. ورحمة الله، ليست رحمة انفعالية وعاطفية لأن رحمة الله الرحمانية ورحمته الرحيمية لهما دور مؤثر في تنزل هذا الكتاب، الذي يهدي كل ناقص الى كماله، وكل سالك الى هدفه، ولذا ذكر هذين الاسمين من أسماء الله الحسنى. **﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾** وبمقدار أنس الشخص بالقرآن الكريم، يصبح رحماناً كما يصبح رحيماً، فيتمتع بالرحمة الرحمانية لله، كما يتنعم بالرحمة الرحيمية له تعالى، فينال فيض السعادة في الدنيا، والفوز العظيم في الآخرة، ويصبح مظهر الرحمن والرحيم، لأنه تعلّم ما نزل من الرحمن الرحيم، وظهر فيه ما نزل من الرحمن الرحيم.

وقال تعالى في سورة الشورى، وهي (حم) الثالثة من الحواميم السبع: **﴿حم * عسق * كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز**

(١) سورة غافر، الآية (٢).

الحكيم﴾[1] . وللعزة، كما أشير الى ذلك في بداية سورة غافر، دور في تنزل القرآن، كما ان للحكمة سهم كبير أيضاً في تنزيل هذا القرآن اي ان الله العزيز الحكيم، انزل هذه المعارف الرفيعة، وهذا المضمون المتين. والقرآن تنزل للعزة في ظل الحكمة، والانسان بمقدار معرفته بهذا الكتاب الرفيع، يتمتع بالعزة والحكمة، ويصبح عزيزاً حكيماً مقيداً، ومظهراً للعزيز الحكيم المطلق.

وفي سورة الزخرف وهي رابع (حم) من حواميم القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿حم * والكتاب المبين * انا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون * وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾**[2] قسما بالكتاب المبين، الكتاب المبين لكل الحقائق، والذي هو بيّن ومبيّن، هذا الكتاب حين نزل نزل على شكل لفظ وارتدى رداء اللغة، فكان عربياً مبيناً، اما في المقام الأرفع حيث لا كلام عن اللفظ ولا عن رداء الكلمة وثوب اللغة، وحيث يخرج عن اطار الكلمات، يكون في ام الكتاب ويكون حكيماً ويكون كتاباً علياً ورفيعاً وكتاباً حكيماً، وهذا العلو ظهر الى جانب الحكمة، وهذه الحكمة ظهرت الى جانب العلو، وأصبح على شكل قرآن، وبمقدار أنس الشخص بالقرآن يحصل على العلو والحكمة، ويتمتع بروح سامية ونفس حكيمة، ويصبح مظهراً للعلي الحكيم.

وجاء في سورة الدخان، وهي الـ(حم) الخامسة من الحواميم السبع: **﴿حم * والكتاب المبين * انا نزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين * فيها يفرق كل امر**

---

(١) سورة الشورى، الآيات (١و٢و٣).

(٢) سورة الزخرف، الآيات (١و٢و٣و٤).

حكيم﴾[1] ، ان الليلة التي يعتبرها الله مباركة، تتمتع بأهمية خاصة، وقد أنزل الله كثيراً من البركات الالهية في الليل، لأن الانسان منهمك في النهار بأعمال مختلفة، ولا يهدأ ولا يفرغ الا في الليل، وفي الليل يمكن للانسان الدعاء والمناجاة مع معبوده، ويستفيد من فيضه الخاص، وقد أفيض قسم مهم من الفيوض المعنوية في الليل، طبقا لما ورد في القرآن، فالقرآن نزل في الليل **﴿انا أنزلناه في ليلة مباركة﴾**[2] **﴿انا أنزلناه في ليلة القدر﴾**[3] ، وعروج الانسان الكامل كان في الليل، كذلك **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾**[4] ، ومراسم ضيافة الأنبياء هي في الليل، أيضاً، فقد دعي موسى كليم الله الى ضيافة الله، في الليل، **﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾**[5] ، ومع ان الانسان هو في محضر الله في النهار أيضاً، الا ان الفيض في الليل هو فيض خاص، لأن الانسان فارغ البال في الليل.

ان عالم احياء الليل، والمناجاة في الليل والدعاء في الليل والخضوع في الليل، هو عالم خاص يختلف عن الخضوع والمناجاة والذكر والعبادات في النهار، لذا فقد أمر الله رسوله بأن يقوم ليلاً بالعبادة مع انه قد حدد الصلوات الخمس في سورة الاسراء، فقال: **﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن**

---

(١) سورة الدخان، الآيات (١و٢و٣و٤).
(٢) سورة الدخان ، الآية (٣) .
(٣) سورة القدر، الآية (١).
(٤) سورة الاسراء، الآية (١).
(٥) سورة الأعراف، الآية (١٤٢).

الفجر﴾[1] ، وهذه اشارة الى الصلوات الخمس، فمن حين الظهر حتى مرور حصة من الليل وقت اربع صلوات، صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وأما حين يحل الصبح فوقت صلاة الصبح، او الصلاة الخامسة، ثم يقول بعد ذلك لرسوله ﷺ. في مقام حثه على احياء الليل، والدعوة الى القيام فيه: **﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾**[2] .

لا تدع احياء الليل لأن خضوع الليل ونافلته وحضوره بعثة جديدة اذ انها نشأة متميزة، اذا اردت أن يبعثك الله بمقام عال ورفيع فلا تدع احياء الليل ومن كلمات للامام الحادي عشر، الحسن بن علي عليه السلام وقد كان سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي ـ رضوان الله تعالى عليه ـ يقول ان جميع روايات أهل البيت عليهم السلام ، هي نور، ولكن بعض كلامهم الذي هو كله نور، اكثر نورانية، ومما يعد من غرر الروايات هذه الكلمة النيرة والواضحة وهي قوله: «ان الوصول الى الله عز وجل سفر لا يدرك الا بامتطاء الليل»[3] . لا يمكن طي هذا السفر الصعب بمركب النهار، والمركب الذي هو غاية في الاحكام ويرى الطريق بشكل افضل في الظلام وفي الوحدة ويطوي الطريق بشكل أفضل هو احياء الليل ان تلاوة القرآن في السحر، والخضوع في محضر الله، في السحر، ومحاسبة اعمال النفس، في الليل، وجبران الماضي بشكل حازم، والتصميم القاطع بالنسبة للمستقبل انما يكون متيسراً في أعماق الليل المظلم.

---

(١) سورة الاسراء، الآية (٧٨).

(٢) سورة الاسراء، الآية (٧٩).

(٣) روضة البحار، كلمات الامام العسكري عليه السلام .

يقول استاذنا الآخر المرحوم الحكيم الهي فمشه اي رضوان الله عليه والذي كان من أهل المعنى والتهجد وكان عارفاً وحكيماً ملتزماً يقول شعرا (مفاده):

«ما أحسن ان تقتل الهوى في ليلة وتطلب الله من الله بخلوص.

وتقرأ شيئاً من القرآن عن حضور قلب وتلقى في النار كتب الرياء.

لعلهم يعطون طريقاً الى الملك لأنني شحاذ مستعطي».

لقد كان رحمه الله من أهل احياء الليل. كان تلميذاً للامام وامامه قد قال ان المسافر الى الله يجب ان يسافر ليلا. قال الامام الحادي عشر عليه السلام: الوصول الى الله سفر لا يدرك الا بامتطاء الليل يقول الشاعر:

«بكاء الليل والسحر شكر لا يضيع والقطرة الساكبة منا تصير حبة جوهر»

جميع هذه اللطائف الأدبية تشرح جانباً من جوانب الكلام اللطيف والمليء بالمعنى للامام الحادي عشر عليه السلام اولئك الذين جلسوا الى مائدة أهل البيت عليهم السلام ان أئمتهم يقولون:

اذا كنت تنوي سفراً إلهياً، فانهض في السحر، واذا كنت تعتزم السير الى الله، فكن متهجداً في الليل، واذا كانت لديك وجهة إلهية، فتابع تلك الجهة في الليل، فقد نزل القرآن في ليلة مباركة **﴿انا انزلناه في ليلة مباركة﴾**(1)، ثم قال: **﴿امرا من عندنا انا كنا مرسلين * رحمة من ربك انه**

(1) سورة الدخان، الآية (3).

هو السميع العليم﴾[1] . ان الله الذي تبارك وتعالى قد ظهر في تنزيل القرآن، اي ان القرآن هو تنزل لتلك البركة الالهية، وظاهره بركة ظاهرية وباطنه بركة باطنية ﴿واسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة﴾[2] . والانسان الذي لديه معرفة بظاهر القرآن يتلقى مقداراً من بركته الظاهرية، والشخص العارف بباطن القرآن يتمتع علماً وعملاً بمضمون عمقه، ويتنعم ببركات اكثر، حتى يصل الى درجة حيث يمكنه القول: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾[3] ، ان المؤمن الحكيم والعارف بالقرآن ومضمونه تظهر البركة في اي مكان يسير فيه، مثلما قال عيسى المسيح ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾[4] .

وتبدأ سورة الجاثية، وهي سادس سورة من سور الحواميم بقوله تعالى ﴿حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾[5] هذا الوحي وهذا الكتاب قد تنزل من منشأ العزة والحكمة، وكما قد أتي بذكر الله العزيز الحكيم في سورة غافر فقد اتى في هذه السورة بذكر ذلك أيضاً، اذا كان القرآن هو حبل الله، وقد قال الله ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾[6] فان هذا يعني ان هذا الحبل مرتبط بمكان لا ينقطع، ولو جمع الحبل في مكان ووضع في زاوية فانه عند ذلك لا يكون حبلاً قابلاً للاعتصام، ولا يكون أكثر من شيء مفتول، وما ورد في تعاليم القرآن من دعوة الى وحدة المسلمين حول محور القرآن، فانما هو لأن القرآن حبل لا ينقطع، والشيء الذي لا ينقطع يحول الاعتصام

---

(١) سورة الدخان، الآيتين (٥و٦).
(٢) سورة لقمان، الآية (٢٠).
(٣) سورة مريم، الآية (٣١).
(٤) سورة مريم، الآية (٣١).
(٥) سورة الجاثية، الآيتين (١و٢).
(٦) سورة آل عمران، الآية (١٠٣).

به دون الانقطاع، وبما ان القرآن معصوم عن الزوال، فانه يكون في النتيجة عاملاً لعصمة الآخرين، والاعتصام بالمعصوم له دور العصمة، والاعتصام بغير المعصوم لا يكون له أثر، فالشيء الذي ليس له قاعدة ثابتة لا يمكنه ان يكون محلا لاعتصام الغير والاعتصام ليس بمعنى مطلق الامساك، فلا يقال لكل امساك، اعتصاماً، بل الاعتصام هو الامساك والتشبث والأخذ بالشيء الذي يكون مصانا ويصون الآخرين أيضاً، هو الذي يسمى اعتصاماً اذ ان ذلك الشيء يكون معصوماً وعاصماً أيضاً، لا هو ينحرف، ولا هو يدع الآخرين ينحرفون، معصوم عن الخطأ، ويحول دون وقوع الآخرين في الخطأ، لذا لا يمكن لأي عامل ان يكون محوراً لوحدة الأمة، الا القرآن، والذي تمثل العترة الطاهرة وجوده المتحرك **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾**، فاذا كان القرآن حبل فهو حبل مدلى من مقام رفيع، احد طرفيه بيد الله، وطرفه الآخر في يد الأمة، فاذا نالت الأمة هذا الحبل المدلى، فانه يحافظ عليها ويرفعها، واذا بذلت بعض السعي وتحركت وارتبطت بهذا الحبل، فانها ستصبح رفيعة، لأن هذا الحبل غير واقف، كما هي سائر الحبال المدلاة التي على الانسان ان يصعد هو بنفسه عند استخدامها، بل ذلك الحبل، حبل متحرك، حبل يجر الانسان الى الأعلى، حبل هو في حالة نزول ورقي، دائما، حبل يظهر هذا الفيض في جميع قنواته ودرجاته، انه ليس بالحبل الجامد، بل حبل متحرك لا ينقطع، اذا أمسكه الانسان ارتفع. وهنا في هذه الآية قد قال الله تعالى لنا أنكم تصلون الى العزة والى الحكمة أيضاً **﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾**[1] كما قد قيل «اقرأ وارق». والقراءة تعني التمسك بهذا الحبل المتحرك وهذا الحبل يرفع الانسان ويعمل على

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (٢).

تكامله، فهو طريق وعامل في نيل الهدف.

وقال تعالى في سورة الاحقاف، وهي سابع سورة من الحوامم السبع: ﴿حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾، وهي كسورة غافر وسورة الجاثية، تدل على ان هذا القرآن هو حبل مدلّى من منشأ العزة والحكمة، وهو كتاب كان للعزة والحكمة والعلم والرحمة، أي الرحمة الرحمانية والرحمة الرحيمية وسائر أوصاف الله العظيمة دور في تدوينه، وبناء على هذا فان القرآن كتاب يؤدي بالأمة التي تأنس به الى ان تصبح عزيزة وحكيمة، عند ذلك تتمتع الأمة بحكمته كما تتمتع بعزته كذلك على أساس قواعد الاستدلال. فذكر ان الفئة التي وقفت بوجه القرآن ليس انها لم تستطع اختراق القرآن فحسب بل انها فشلت وسقطت. وخاصية العزة ليست في ان الموجود العزيز لا يستسلم امام المعتدي فحسب، بل هو يتغلب على المهاجم. وخاصية العزيز ليست انه يتمكن من المحافظة على نفسه، والدفاع عن حقه فحسب بل هو يسقط الذين يتمردون لدفع الحق ويقضي عليهم، ولذلك بيّنت هاتان المسألتان في جميع هذه السور السبع التي تبتدىء بـ﴿حم﴾ والتي احداهن بيان الوحي، او معنى تنزيل القرآن وما جاء به الأنبياء والقواعد العامة والمعارف الدينية، والأخرى بيان لعزة هذا الكتاب وعزة محتواه، حيث لم تكن لغة الذين قاموا بالمجادلة ضده لغة علمية لكي يتمكنوا من مجادلة القرآن من خلال نافذة العلم كما لم تكن آذانهم آذاناً صاغية حتى يدخل مضمون القرآن في آذانهم، وانما ارادوا مقاومة الوحي الالهي بسبب تكبرهم وغرورهم، فأفشلهم القرآن وأسقطهم، قال تعالى في سورة غافر: ﴿ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في

البلاد﴾[1] ، ولكن هل يمكن مواجهة آية إلهية؟ وهل يمكن تجاهل آية الحق؟ وهل بالامكان محاربة دليلها من دون دليل؟ وهل بالاستطاعة مواجهة آية العزة والقدرة؟ انها آية الحق، فكيف يمكن للانسان محاربة آية الحق؟ فالقرآن اذا كان آية الحق، فان هذه الآية لا تقبل الجدال أبداً، وهذا تعليق للحكم على الوصف المشعر بعلية تلك الصفة، لماذا القرآن عزيز؟ لأنه آية الله العزيز، انه آية عزة الله، وليس آية اعتبارية وعلامات موضوعة، اذ ان العلامات الاعتبارية قابلة للتغيير، اما العلامات التكوينية فهي غير قابلة لتغيير الوضع، فمثلاً لو قلنا ان نمو الحديقة دليل على وجود الماء، فانه لا يمكن انكار وجود الماء بعد مشاهدة الحديقة ونموها، لأنه لو لم يكن هناك ماء لما اخضر هذا البستان وزهر ولما تفتحت هذه الورود وتعطرت، ولا يمكن أبداً رفض وجود الماء مع رؤية هذه الأغصان الخضراء. ولا يمكن محاربة الوحي وما جاء به الأنبياء، بعد مشاهدة آيات الله **﴿ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾**، فأنتم الذين لديكم كلاماً خالصاً، لا تخافوا من الزبد **﴿فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾**، لأن المستكبرين الماضين وقفوا بوجه ما جاء به الأنبياء السابقين، الا انهم سقطوا، لأن عاقبة محاربة العزة هي الذلة، ونتيجة الحرب ضد الحكمة، هي ظهور الجهل والسفاهة. **﴿ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه﴾**[2] والشخص الذي يحارب العزة، يبتلى بالذلة. **﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل امة برسولهم ليأخذوه﴾**[3] ، وقد واجههم الأنبياء، ودافعوا عن الحق وانتصروا **﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به**

---

(١) سورة غافر، الآية (٤).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٣٠).
(٣) سورة غافر، الآية (٥).

الحق﴾[1] ، لكن الأنبياء دافعوا عن الحق وثبتوه. قال تعالى: ﴿**فأخذتهم فكيف كان عقاب**﴾[2] ، ولما كان القرآن عزيزاً وحكيماً، فان مواجهة الوحي الالهي، هو اعتراف بالجهل، لأن هذا الكتاب عزيز، ومحاربة العزيز لا تؤدي الا الى الهزيمة الذليلة. قال تعالى: ﴿**فأخذتهم فكيف كان عقاب**﴾، ويقال للعقاب، عقاباً، لأنه يعقب السيئات، لذا يقال عقوبة، أي انه تكون عقب ووراء العمل السيّىء، وعلى أثر العمل السيّىء الجاهل للأفراد الذين أرادوا دفع الحق ﴿**وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار**﴾[3] ، فهم لا يصبحون اذلاء في الدنيا جهلاً فحسب، وانما محكومون بعذاب أليم في الآخرة. وقد ذكر الله تعالى، جدال المستكبرين المفسدين، وذلك في سورة غافر وبيّن القضاء عليهم، وفي هذه السورة المباركة، سورة غافر، طرح قضية فرعون ﴿**وما كيد الكافرين الا في ضلال**﴾[4] ، وقال تعالى بشأن فرعون: ﴿**وما كيد فرعون الا في تباب**﴾[5] ، وقد قال عن ابي لهب: ﴿**تبت يدا ابي لهب وتب**﴾[6] ، وذكر تعالى في سورة غافر: ﴿**ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ان في صدورهم إلاّ كبرٌ ما هم بالغيه**﴾[7] ، ويعبّر عن البرهان بالسلطان، لأن الدليل العقلي مسلط على الخيال والوهم، والدليل العقلي يقضي على الوهم، والوهم تحت سيطرة برهان العقل، ويسمى الدليل بالحجة والبرهان والسلطان، فذكر تعالى ان

---

(١) سورة غافر، الآية (٥).
(٢) سورة غافر، الآية (٥).
(٣) سوة غافر، الآية (٦).
(٤) سورة غافر، الآية (٢٥).
(٥) سورة غافر، الآية (٣٧).
(٦) سورة المسد، الآية (١).
(٧) سورة غافر، الآية (٥٦).

هؤلاء ليس لديهم سلطان، ليس لديهم الكلام الذي يتغلب على الوهم، فهم يفكرون ويتكلمون في حدود التخيل والوهم، وذلك نتيجة جهلهم **﴿ان في صدورهم إلاّ كبرٌ﴾**، وهم لا يبلغون هذا الكبر، أبداً، لأن الانسان الجاهل الذليل لا يصبح كبيراً، ومقام الكبر الشامخ والكبر هو للعزيز والحكيم، اما المستكبر فهو لا يبلغ أبداً الكبرياء والكبر **﴿ان في صدورهم إلاّ كبرٌ﴾**، ومع ان القرآن يعالج أمراض القلب، الا أن مرض الكبر قد نفذ في نفوسهم الى درجة استولى على كل نفوسهم، وأصبح غير قابل للعلاج. **﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾**(1). نعوذ بالله السميع البصير. وننتهز الفرصة، لنسأل الله ونقسم عليه بحق اسمائه الحسنى، وجميع أنبيائه وأوليائه ان ينور قلوب الجميع بمعارف القرآن الكريم، ويعرّف الأمة القائمة بالعزة والحكمة. وان يختم أمورنا بالخير. غفر الله لنا ولكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(1) سورة البقرة، الآية (٦).

الـــدرس الثـــاني

العلم والعالم الحقيقي في القرآن

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

وصلنا في البحث السابق الى نتيجة ان بعض السور تتضمن محتوى مشترك ومضمون جامع، ولذا فان بداية ونهاية تلك السور متشابهة ومتقاربة، فهي تشرع ببيان واحد وتختتم ببيان واحد تقريباً، ولكن في كل سورة يطرح جزء من ذلك المحتوى وجانب من ذلك المضمون المشترك، والسور السبع في القرآن، والتي تبتدىء بـ﴿حم﴾ هي من هذا النوع، وهذه الحواميم السبع سور لها مضمون مشترك، ومحتوى متشابه مع بعضها الآخر تقريباً غاية الأمر ان كل سورة تبين ذلك المحتوى بطريق خاص ودليل معين، والمضمون المشترك لهذه السور السبع، هو بيان ضرورة الوحي، وشرح الوحي وبيان زاد طريق الأنبياء وأمثال ذلك، وكذلك المبدأ الذي ينشأ منه هذا الوحي، وكيف نزل؟ وان زاد طريق الوحي المنزل هو اسماء الله الحسنى

التي هي منشأ ظهور الوحي. ومن المضامين المشتركة لهذه السور هي الاشارة الى ان الفئة التي تقوم من أجل دفع الحق وطرد الوحي الالهي، هي فئة جاهلة ومستكبرة فلا لغتها لغة علمية ولا قلبها خاضع ومتواضع، فلا يصدر عنها كلام علمي ولا يوجد في نفوسها خضوع علمي، وبالتالي فلن يكون لها اذن صاغية بشكل قهري، لأن التكبر قد رسخ في قلوبهم، ولا يصغون لكلام الحق، وهم يعترفون أنفسهم ان قلوبهم لا تتقبل الوحي وآذانهم لا تسمع كلام رسول الله، وهناك حجاب قوي بينهم وبين الرسل السماويين، وبما ان منشأ تنزيل الوحي هي الحكمة والعزة. **﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾** وقد اتضح جيداً معنى العزة والحكمة، اذن، لا يحارب الوحي السماوي الا من كان ذليلا وسفيهاً ونتيجته الانكسار، لأن منشأ المحاربة للكتاب الحكيم، هو جهالة المحارب، ونتيجة الحرب مع الكتاب العزيز هي الهزيمة المفضوحة، لذا بيّن الله، عزة وحكمة كتاب الوحي اولاً، ثم ذكر ان الفئة التي وقفت تحارب القرآن، فئة جاهلة، ليس لديها كلام علمي، وفي النتيجة سوف تفشل وتسقط وهي ذليلة.

لقد بحثنا سابقاً حول جزء من المضمون والمحتوى المشترك للسور السبع وقد جاء في آية من سورة غافر قوله **﴿ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ان في صدورهم إلا كبر﴾**[1]، هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله ويحاربون علامات الحق، يفعلون ذلك لأنهم لا يرون هذه الآيات، ولو أنهم أدركوا هذه العلامات بالفكر، لرأوا ذلك الاله المحجوب بنفوسهم، ولو أنهم تدبروا في الآيات الالهية لآمنوا بصاحب الآية، ولكنهم جادلوا من دون برهان، والجدال المقرون بالدليل ليس انه غير سيىء فحسب

---

(١) سورة غافر، الآية (٥٦).

بـل هـو أسلـوب جيـد، وقـد علّـم القـرآن هـذا الطـريـق لـلأنبيـاء فقـال لخـاتـم الأنبياء: **﴿أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسـن﴾**[1] أثناء الجدال لا تنكروا حقا ولا تحيوا باطلا، واستفيدوا من المقدمات المقبولة والحقة، والجدال الذي يؤدي الى تجاهل حق أو احياء باطل ليس بالجدال الممدوح والمشروع، ومع ان القرآن يسمح بالجدال الصحيح، الا انه مع ذلك فقد ذكره بعد الحكمة والموعظة، وغير سياق العبارة فقال: **﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسـن﴾**، فـذكـر اولاً: **﴿ادع الـى سبيـل ربـك بـالحكمـة والمـوعظـة الحسنة﴾**، ثم قال: **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾**، ولكن المجادل اذا تكلم من دون دليل، فهذا الجدال حرمه القرآن وعدّه باطلا، فذكر ان هؤلاء يجادلون من دون دليل، ويدعي الدليل بالسلطان، لأن له سلطة على الوهم والخيال والشك، والانسان المستدل مسلط، والحكيم الذي يفكر ببرهان مسلط على افكار الآخرين، والوحي المقرون بالبرهان، مسلط على الآخرين.

والخلاصة ان الدليل العقلي يسمى سلطانا، لأنه مسلط على الشك والوهم والظن والاحتمال، وقد بيّن القرآن الكريم ان هؤلاء الذين جادلوا ضد الوحي، ليسوا من أهل الحكمة والاستدلال، وجدالهم من دون دليل، فهم جاهلون بيد ان استكبارهم لا يسمح لهم بالخضوع أمام البرهان العقلي. **﴿ان في صدورهم إلاّ كبرٌ﴾**، فهم مستكبرون، ويطلبون الكبر، يريدون ان يكونوا كباراً لم يتذوقوا طعم التواضع، ولم يتذوقوا الشعور بالصغر امام الله، لذا هم يتحركون وراء لذة كاذبة، وهي التكبر العاقل الذي ذاق لذة

---

(١) سورة النحل، الآية (١٢٥).

التواضع لا يتحرك أبداً وراء الكبر، فالقرآن يرى ذلك نوعاً من المرض ﴿ان في صدورهم إلاّ كبرٌ﴾، رغم انهم لا يبلغون هذا الكبر، ولا يصلون هذا الكبر مطلقاً ولا يصبحون كباراً. ﴿ما هم ببالغيه﴾، فهؤلاء لا يبلغون الكبر، لأنهم صغار دائماً، ومصابون بالذلة والحقارة. ﴿فاستعذ بالله انه هو السميع البصير﴾، استعذ بالله للخلاص من مرض التكبر، استعذ بالله للنجاة من مرض الجهل، لأنه بصير، واللجوء الى الله البصير، يجعل الانسان بصيرا، وبما ان الله سميع فان اللجوء الى السميع يعطي الانسان اللاجيء أذناً صاغية، فلا يسمع في النتيجة وساوس الشيطان ولا يسير في طرق الشيطنة المنحرفة، وبعد ان طرحت سورة غافر، جدال المستكبرين، جاء في ختامها: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾[1]، حين جاءتهم رسلهم بأدلة واضحة لهدايتهم، اكتفوا بعلومهم المادية، وكانوا مسرورين لامتلاكهم مجموعة علوم مادية، دون ان يلتفتوا الى ان العلم الذي لا يوصل الانسان الى الهدف، ولا يجعله خاضعاً في محضر خالق الكون، ليس بالعلم الحقيقي بل هو جهل، وحجاب. والعلم الذي لا يوجد لدى الانسان الميل للاستماع لمنطق الأنبياء، لكي يتبعهم ليس علماً، بل هو حجاب، ﴿فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ فقد رجع عليهم هذا الاستهزاء وأغرقهم، فلأنهم استهزأوا بالأنبياء، فقد سرت ثمرة هذا السلوك المذموم أليم، وأغرقهم. ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾. لقد بيّن القرآن علامة العلم، وأوضح ما هو العلم الحقيقي ومن هو العالم الحقيقي، ومع ان القرآن يثمن العلوم المادية من أجل رفع الحاجات في عالم الطبيعة ويدعو

---

(١) سورة غافر، الآية (٨٣).

الانسان الى الاطلاع على الذخائر التي في عالم الطبيعة والاستفادة منها، وقد أمر بالاطلاع على أسرار الطبيعة والتنعم في ظل هذه المعرفة، ولكنه اعتبر من الضروري تطبيق كل أشكال البرامج العلمية مع العلم الالهي، من أجل توجيه هذا الاطلاع، لأن العلم السماوي يعلم الانسان كيفية التعرف على مواهب الخلق والاستفادة منها، والعلم المتعلق بعالم الطبيعة، هو أقل العلوم مستوى، فعلم الدنيا دنيّ كالدنيا، وعلم الآخرة حي كالآخرة، وعلم الآخرة يعطي الانسان حياة خالدة، وهو بدوره ماء حياة. أليس العلم بقيمة المعلوم، وهل يمكن ان يكون العلم الذي له صلة بالعالم الدني والنازل، علماً عالياً؟. ان بامكان الانسان في الدنيا ان تكون له روحاً تنال علماً عالياً، ولكنه اذا انجذب الى الطبيعة وأصبح كل همه تهيئة شيء من التراب ووضعه على التراب ومن ثم الذهاب بيد خالية، فالقرآن الكريم يعتبر هذا الانسان بلا قيمة، وأية حرمة للانسان الذي لا يأخذ معه شيئاً الى عالم الأبد، وليس لديه ذخيرة؟ انه يبذل كل جهده للاستفادة من المواهب الطبيعية وتزيين وجه الأرض، ويعود بروح من دون زينة، فأي مقام يراه لروحه اذ ان القرآن يعتبر جميع الزينة التي في عالم الطبيعة دنية مثل الطبيعة. **﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها﴾**، وليس ممكناً ان يكون أساس الحياة، موطناً دنياً وتكون زينتها عالية ورفيعة، فاذا كانت الحياة في عالم الدنيا دنيّة، فان الأرض والذخائر الأرضية فيها تكون نازلة بالمقارنة مع عالم الأبد والملكات الانسانية، والشخص الذي يبذل كل سعيه من أجل معرفة طريق جمع الثروة وزراعة بستان مثمر واعمار الأرض من خلال ذلك الطريق، وتزيين التراب فقط، والتحرك نحو عالم الأبدية بنفس فارغة ويد خالية، هذا الشخص ماذا هيأ من علم؟ انه ذلك الشخص الذي يقف في مواجهة الأنبياء. **﴿فرحوا بما**

عندهم من العلم﴾، لقد جاء الأنبياء ودعوا الى تهيئة العلم الطبيعي كوسيلة لتأمين السعادة، وذلك العلم الذي هو زاد طريق الوحي يعطي هذا العلم الطبيعي النور والحرية، ويجعل الانسان العالم عارفاً بكيفية الاستفادة من هذا العلم، وكيفية تطبيق هذا العلم، فذكر تعالى بأن العلم الذي لا يوجه الانسان ليس علماً، بل هو جزء من متاع الدنيا. وقد بيّن القرآن، كلام العقلاء من أهل العلم والثقافة وذكر ان علاقة العاقل مع إلهه مشخصة، وموقف العالم اتجاه الثروة ورأسمال الأثرياء محدد، وموقف الفرد العالِم، ازاء ذوي النظرة القصيرة مشخّص، كذلك. والعالِم الحقيقي هو الانسان الذي يكون خاضعاً امام الله ويعشش في نفسه الخوف والخشية من الله، ومن يشهد كل وجوده بوحدانية الله فذلك هو العالم وذلك الذي يأخذ بيد أهل الرؤية القصيرة، ويعطيهم الزاد علمياً ويمنحهم القواعد والمنطلقات الفكرية، حتى يتمكنوا من ان يتحركوا بهذا الزاد وهذه القاعدة ويواصلوا الطريق هو العالم، والشخص الذي يحارب الثروة وزخارف الدنيا فلا ينخدع ولا يدع شخصاً ينخدع هو العالم وقد بيّنت هذه الأمور في القرآن الكريم، بوصفها خطوطاً عامة للعلم الالهي، وعلامات على العلم الحقيقي. وفي سورة آل عمران حين يشرح الأثر البارز للعلم والثقافة الحقيقية، يذكر ان ثقافة العلماء، كثقافة الملائكة، وهي انهم يشهدون بوحدانية الله: **﴿شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾**، وهنا الكلام عن التوحيد، وعن الخضوع امام الله وحسب وعن الرؤية الكونية للموحدين، وعن ظهور الوحدة الكاملة لله في صنعه، فنرى ان الله سبحانه يذكر المكانة الرفيعة للعلماء الى جانب المنازل الرفيعة للملائكة، فيقول: **﴿شهد الله انه لا اله الا هو﴾** فالله يشهد بوحدانيته وبما ان الدليل هو نفس المدلول، فالله

تعالى يدّعي الوحدانية وهو نفسه دليل على هذا الادعاء، قال تعالى في القرآن: ﴿فاعلم انه لا اله الا الله﴾، انه شاهد على وحدانيته، ولكن ليس من باب اتحاد الشاهد والمدعي حسب ما تصوره البعض الذين أسموا هذا اللون من الاستدلال مصادره على المطلوب، بل من باب الوحدة الحقيقية للشهادة والدعوى، فالدعوى هي دعوى وشهادة لأن المدّعي هو مدّعٍ وشاهد، أيضاً، وتبيانهما اعتباري، فمثلاً حقيقة الضوء تثبت حقيقتها عند الاضاءة، فتقول الشمس: انني مضيئة وتثبت ادعاءها باعطاء الضوء، وتطرح دعوى الاشراق، بالاضاءة، وتقيم الدعوى مقرونة بالدليل وتطرح الادعاء مصحوبا بالشاهد والشاهد والمدعي واحد بهذا المعنى الظريف ـ فطلوع الشمس دليل الشمس ـ ﴿شهد الله انه لا اله الا هو﴾ والألوهية لا تنسجم مع الشرك، ولا تنسجم مع التقييد، والألوهية لا تدع مكاناً للغير، ولا تدع غيرتها غيرا في الكون ليمكن مشاهدته، والألوهية في النتيجة هي ذات الشهادة على الوحدانية، فلا يكون الله الا واحدا كما ان الشرك أيضاً ليس الا أمراً بلا دليل، وقد وصف القرآن الشرك بكونه شيئاً بلا دليل، وبيّن التوحيد بوصفه أمراً مقروناً بالشهادة والبرهان وحول ان الشرك لا يقبل البرهان، قال: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه﴾[(١)]، فاذا زعم أحد ان الشمس مظلمة فاللازم الذاتي لهذه الدعوى هو عدم الدليل، ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾، لأن دعوى الشرك تعني ان الله محدود، وان المجال مفتوح لغيره الى جانب وجوده، في حين ان ادعاء محدودية الله هي كادعاء ظلام النور، لأن اللامحدودية هي نحو وجود ذات الله. فدعوى التوحيد هي بنفسها ذات الدليل ودعوى الشرك هي ذات الجهل، ولازم الشرك الذي

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (١١٧).

هو محال وليس له ذات هو عدم الدليلية كمثل من يقول ان الضوء مظلم، ومن يقول ان الظلام مضيء فلازم كلامه هذا هو عدم الدليلية. اما الذي يقول ان الشمس مضيئة فكلام هذا هو عين الدليل. وهذا بيان مختصر حول شهادة الألوهية على الوحدانية، ثم ذكر الله سبحانه، شهادة الملائكة بالوحدانية، وكذلك شهادة العقلاء والحكماء والموحدين بالتوحيد الإلهي، وجعل الحكماء الموحدين في صف الملائكة فقال: ﴿**والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم**﴾، فلازمة العلم وعلامة العلم، هي الشهادة بوحدانية الله والعالِم الحقيقي هو الذي لا يخضع الا لله الأحد، وهناك قول للامام السجاد عليه السلام، ذكرناه في مباحث سابقة وهو ان الله، حين يتحدث عن الطبيعة ومظاهرها ويعد النعم الطبيعية، يذكر المتأثرين بالطبيعة والمترفين والمحبين للنعم المادية، بمستوى الانعام ويقول ﴿**متاعا لكم ولأنعامكم**﴾، وقد وردت هذه العبارة في عدة مواضع في القرآن، أي أن هذه الشمس المشرقة، والمطر النازل، والأرض الخصبة والمزرعة التي تخضر وأشجار المزرعة التي تثمر، هي لكم ولأنعامكم، وفي موضع آخر يقول القرآن: ﴿**كلوا وارعوا أنعامكم**﴾، فهذا البستان الأخضر، يؤمّن طعام الانسان من ناحية انه حيوان كما يؤمّن طعام الانعام، والانسان الذي هو في مستوى الأكل فمكانه الى جانب الانعام، والذي يعيش في حدود زخارف الطبيعة، فمكانه الى جانب الأنعام. اما الانسان الذي نهض من مظاهر الطبيعة وارتفع عنها، فهو موحد وحكيم إلهي واسمه يوضع الى جانب الملائكة. قال تعالى: ﴿**والملائكة وأولوا العلم**﴾، فهم في مستوى الملائكة وأولئك في مستوى الأنعام. والقرآن يتكلم عن العلم، هكذا ﴿**انما يخشى الله من عباده**

العلماء﴾[1] فعلامة العلم هو الخشوع والخضوع في محضر الله، والعالِم الذي ليس لديه الا مجموعة مفاهيم وماهيات ذهنية ولا يرى نفسه خاضعاً في ساحة الله، ولا ينفذ الخضوع والخشوع في نفسه مجتنياته الذهنية ليست علماً حقيقياً، لأن القرآن بيّن علامة العلم في سورة فاطر، هكذا: **﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾**، فالعالِم يكون من أهل الخضوع والخشوع في مرحلة التخيل والتوهم، كما يكون لديه خضوع وخشوع معقول في مرحلة تعقله. **﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾**، فهو يصل الى الجنة البرزخية كما يصل الجنة العقلية أيضاً يصل الى الجنة التي **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾** ويصل الى الجنة التي قال عنها تعالى: **﴿فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾**. فالعالِم اذا لم يكن من أهل الخشية من الله فهو ليس بعالم حقيقي في قاموس القرآن، ولا يوضع في مستوى الملائكة، بل يقع في مستوى سائر الكائنات المادية، لأنه تعالى قال في نفس هذه الآية: **﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾**، والمميز الوحيد الذي يجعل العالِم أفضل من الكائنات العادية، وفي سلك الملائكة هو ان يخشى الله.

وإذا كان الانسان موحدا، واذا آمن من ناحية الرؤية الكونية بوجود مبدأ لنظام الخلق ورأى أن جميع الأمور هي تحت تدبير رب العالمين، ووجد نفسه خاضعاً وخاشعاً في محضر رب العالمين، فذلك الانسان عالِم، سواء ذهب الى مدرسة ام لم يذهب، وسواء درس ام لم يدرس وسواء كان عارفاً بمصطلحات العلوم ومتكلما بها ام لا، بل بالامكان ان يكون معلماً لألف مدرس مدرسي باشارة وان لم يذهب الى مدرسة. فاذا كان ارتباط الانسان مع الله، مقروناً بالخشية والخضوع، فذلك الانسان عالِم، وهذه

(١) سورة فاطر، الآية (٢٨).

اشارة مختصرة عن الرؤية الكونية للعالم الحقيقي.

وأما علامة العلم الحقيقي من منظار القرآن في ما يتعلق بالمسائل الاجتماعية وموقف أصحابه تجاه الثروة والرأسمال فهو هكذا حين خرج قارون على قومه بزينة وافرة ومر عليهم متفاخراً بسلطة الأعيان قال ذوي النظرة القصيرة قولاً بينما كان للعلماء بيان آخر كذلك: **﴿ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾**، فقد هيأ هذا الباغي المتكاثر وهذا الظالم ثروة عن طريق النهب والظلم، وقضى على عواطف ومشاعر الناس الفقراء **﴿وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولي القوة﴾**[١]، وحين بلغ القرآن هذا الموضع، قال: **﴿فخرج على قومه في زينته﴾** والنكتة الأساسية هنا هي ان قارون خرج وكله زينة بصفة انسان متسلط وطالب للتفاخر والاستكبار على الآخرين، كما ان الذين كانوا يرافقونه كانوا مزينين بزينة وافرة، وقد جذب هذا المشهد الجميل ذوي النظرة القصيرة من أهل النزعة الطبيعية، أما العلماء الحقيقيين، فكان لهم قول ازاء هذه الواقعة الخادعة فالعالِم هو الذي يقف امام هذه الحوادث، ويحول دون التظاهر وتكاثر الثروة كما يأخذ بيد أهل الرؤية المحدودة، ويرشدهم: **﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم﴾**[٢]. والقرآن يعتبر عالم الدنيا والطبيعة أسفل عالم، لأنها حياة سافلة ودنية، وليس في عالم الوجود أسفل من هذا العالم، وقد ورد في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام بأن ليس هناك عالم أوضع من الدنيا، ولا يعصى الله في أي عالم الا في الدنيا ويكفي في تسافلها هو ان الانسان لا يصل الى ما عند الله ما لم يترك لوث الطبيعة،

---

(١) سورة القصص، الآية (٧٦).

(٢) سورة القصص، الآية (٧٩).

وكل ما يجلب التلوث فله علاقة بالطبيعة. وما يجلب التلوث، هو التعلق بالحياة الحقيرة. وهذا لا يعني ان لا يستفيد الانسان بشكل مشروع من المواهب في الطبيعة، ولا يعني أن يحرم من فضيلة السعي الصحيح ويصبح محتاجاً الى الآخرين بل بمعنى ان يتسلط على الطبيعة، لا ان يقع تحت سيطرتها، بل يجب ان يركب على أكتافها ﴿فامشوا في مناكبها﴾[(١)]، اسعوا الى منع التصدع في استقلالكم الاقتصادي واستغنوا عن الأجانب، ولكن لا تتعلقوا بالذخائر التي في الطبيعة، اذ ان تعلق القلب بالحياة الدنيا لا يؤدي الا الى الدناءة. «من هوان الدنيا على الله انه لا يعصى الله الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها»[(٢)]، والعالِم الحقيقي هو الذي يرى للانسان مقاماً سامياً، ويسعى للوصول الى ذلك المقام المنيع والأخذ بيد أهل الرؤية القصيرة واخراجهم من حفرة الطبيعة حتى لا يحبوها. ومنطق القرآن هو ان تسعوا الى جعل الطبيعة تحبكم، لا ان تحبوا الدنيا، واذا أصبحتم تابعون للدنيا وأحببتموها فانكم تخضعون للشيء الذي هو رأس كل خطيئة. اما منطق قصيري النظر فهو كما مر ذكره، والقرآن لا يعدّهم علماء، قال الله تعالى: ﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم﴾[(٣)]، أي ان علمهم غير بالغ، علمهم طفل، لا يرى الا عدة خطوات، لا هم يعلمون الماضي ليعرفوا ماذا كانت بدايتهم، ولا هم يطلعون على المستقبل ليعلموا أين يذهبون. بل ينظرون في اطار وحدود الطبيعة فحسب كدودة القز التي لا ترى غير المحور الضعيف والقصير لحركتها. فيقول القرآن: ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾، اي ان علمهم هو

---

(١) سورة الملك، الآية (١٥).

(٢) نهج البلاغة، للفيض الكلمات القصار، رقم ٣٧٧.

(٣) سورة النجم، الآيتين (٢٩و٣٠).

بمستوى الحياة الدنيا، فلا يفهمون الا في حدود الدنيا، اذ لا يفهمون ما قبل الدنيا، ولا ما بعدها فهذا القول قول ذوي النظرة المحدودة، يقولون: **﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم﴾**. اما منطق الحكماء فهو: **﴿وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقّاها الا الصابرون﴾**[1]، وهذه الحقيقة لا يدركها الا الصابرون، وهي ذلك النور الايماني الذي يجعله الله سبحانه في قلب كل من يراه لائقاً وهو الذي يدعى بالعلم الصحيح في قاموس القرآن الكريم وهو الذي يكون صاحبه في صف الملائكة في قاموس القرآن، وهو الذي يكون صاحبه في قاموس القرآن، من أهل الخشية والخضوع في ساحة الله، وهو الذي يصل صاحبه الى الجنتين، في قاموس القرآن، لأنه من أهل الخشية التي هي فوق الخوف اذ أنه **﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾** فله جنة اللقاء كما ان له تلك الجنة ذات الأنهار والأشجار والثمر وغير ذلك. ان هؤلاء المحرومين الذين ينظرون الى خازني الذهب باعجاب وتمن هم مستضعفون فكريون يفسحون المجال للمستكبرين للتفاخر من خلال نظرهم وتمنيهم ولو لم يكن هناك مستضعفون فكريون في المجتمع لما كان هناك مكان لنفوذ المستكبرين والمتمولين، الجزء المهم من فوائد المتمولين يكمن في نظر المتفرجين فهو كونه مشار اليه بالبنان ملفت للنظر ويستلذ من لفت النظر هذا، اما لو مر به الناس بمنتهى اللااهتمام فلن يظل مسروراً، لأنه يستلذ بنظر المتفرجين وبقصر نظر المستضعفين الفكريين ويستغل ذلك وهو يستمد ويستفيد من خفة ذوي الخفة في العقول، وعندما لا يكون هناك ناظر ومتفرج لا يكون هناك مجال لالتذاذ المتمول طالب الفخر لقد استخفهم فرعون وتسلط عليهم **﴿فاستخف**

---

(١) سورة القصص، الآية (٨٠).

قومه فأطاعوه﴾ والأشخاص ذوي الخفة في العقل يساعدون أهل التزوير كما يعينون خازني الذهب، وذلك أن الانسان الطاغي يريد ان يكون متسلطاً ومطاعاً وأهل الخفة يمكنونه من ذلك، انه يطلب المظاهر والزينة وأهل الخفة يمكنونه من ذلك لكن العقلاء لا يجوزون الجهل على أحد فلا هم يستغلون جهل الجهلاء ولا هم يتركونهم بحالهم ليظلوا محرومين من فضيلة العلم كما انهم لا يسمحون لأحد ان يكتسب جاهاً ومقاماً من قصر نظر هؤلاء وهم يقرون جهل الجاهل أبداً سواء كان ظالماً أو متمولاً.

يقول الشاعر (ما ترجمته) متى كان العاقل يجلس تحت الجاهل فالجوزاء هي فوق السرطان تبدأ أيام السنة [الفارسية] من شهر «فروردين» ويسمون الأبراج بالترتيب الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة. وهذه الجوزاء التي هي شهر «خرداد» فوق السرطان الذي هو شهر «تير» اي كما ان الجوزاء فوق السرطان فالعاقل أيضاً فوق الجاهل الجوزاء والتي لها جذع يحملها وتقف على ساقها وهي تمتلك الاكتفاء الذاتي ﴿فاستغلظ فاستوى على سوقه﴾[1] لن تصير تحت يد السرطان أبداً. ثروة الدنيا التي تجعل الانسان من أهل التكاثر سرطان، ظلم المفسدين سرطان والانسان العاقل كمثل عنقود الجوزاء المثمرة التي لا تصير تحت السرطان ولا تتحمل ظلم السرطانات. على أية حال ﴿وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ العاقل هو الذي يستند الى الحسن الفعلي والحسن الفاعلي معاً يقول الله تعالى انه

---

(١) سورة الفتح، الآية (٢٩).

يلزم وجود الروح الطاهرة الى جانب العمل الصالح لكي يصل الانسان الى الخير لأنه ان كان الانسان مؤمناً دون ان يقوم بالعمل الصالح او كان صاحب الأعمال الحسنة غير مؤمن فلن ينال شيئاً من الثواب الأخروي. اذا لم يكن الحسن الفعلي الى جانب الحسن الفاعلي فلن يصل الانسان الى شيء. فيجب ان تكون الروح الطاهرة والعمل الصالح الى جانب بعضهما ليصل الانسان الى المقام السامي.

هذه هي الخطوط العامة للعلم الحقيقي التي يبينها القرآن سواء في سورة آل عمران أو في سورة القصص او في سورة فاطر، ثم يقول في سورة الزمر **﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾**[1] لو كانت القيمة النهائية هي للعلم المادي لما انتقصت سورة غافر الاندفاع نحوه والاعراض عما اتى به الأنبياء اذ قالت **﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾**. لو كان الاكتفاء بالعلم المادي ممدوحا لما خسفت بقارون الأرض بسبب قوله **﴿انما أوتيته على علم عندي﴾**. أساساً لا يرى القرآن الجمود على العلم المادي ممدوحاً وهو يرى ان العلم الممدوح هو ذلك الذي يستفيد من الطبيعة بشكل كامل ويسخرها ويستفيد من الطبيعة المسخرة لمصلحة عباد الله. بناء على هذا فالمطروح في الحواميم السبعة هو ان القرآن قد صدر من منشأ العزة والحكمة والانسان الذي يصير مأنوساً بالقرآن ومعارفه يكون عزيزاً وحكيماً والذين نهضوا لمحاربة القرآن سيكونون جهلة وأذلاء وسيتضح جهلهم في النهاية كما ستأخذ ذلتهم ومسكنتهم بتلابيبهم لأنهم حاربوا

---

(١) سورة الزمر، الآية (٩).

الكتاب العزيز الحكيم. والحرب ضد القرآن العزيز الحكيم لن يستعقب سوى الذلة والسفاهة.

نسأل الله تعالى ببركة القرآن ان يختم أمورنا جميعاً بخير.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الثالث

الانسان من منظار القرآن

الحمدلله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

رغم ان القرآن الكريم، وحي إلهي، ويتمتع بنظم وتنسيق خاص، الا ان هناك ارتباطاً خاصاً بين بعض السور، بحيث ان تلك السور الخاصة تبتدىء باسم واحد وتختتم بمطلب معين وتتضمن مضموناً واحداً بشواهد وأدلة متنوعة. وتصل في النهاية الى هدف واحد، وهذا الانسجام الشامل بين بعض السور، يجعلها متميزة عن السور الأخرى، فمثلاً حقيقة الانسان التي هي مجموعة منسجمة وبالنتيجة هي وحدة واحدة مع ان جميع اعضائه وجوارحه قد خلقت منظمة، ولكل عضو وظيفة خاصة به الا انه لا يمكن تجاهل العلاقة التي بين بعض الأعضاء والجوارح الخاصة فالارتباط بين قوة البصر وأداة العين، متمايز عن الانسجام الموجود في أنسجة أداة السمع، فالصلة التي بين أعضاء البصر مع بعضها الآخر تختلف عن الانسجام الذي بين اعضاء السمع، وأمثال ذلك، ان السور التي تبتدىء في القرآن بـ﴿حم﴾

يعبر عنها بالحواميم وهي تبتدىء بأوصاف خاصة وتتابع مضموناً وهدفاً خاصاً. لذا بدأت هذه السور السبع المعروفة بالحواميم بـ﴿حم﴾ كما كانت بداية الموضوع عن الوحي ونزول الوحي وتلقّي الوحي ومضمون الوحي كما قد بيّنا ذلك في الدرس السابق.

وقد ورد في هذه السور بيان وابطال لكلام وموقف وكيفية استدلال وسلوك الذين وقفوا بوجه الوحي السماوي بشكل كامل. وقد بيّن في هذه السور السبع بوضوح خاص خطر الموقف المضاد للوحي، فهؤلاء الذين يتخذون موقفاً بوجه الوحي، يعتمدون تارة على قوتهم وشدتهم، وأخرى يلجأون بالعصيان، وثالثة يتعجبون مما جاء به الأنبياء باعتبار انه أمر يثير الدهشة ويستبعدونه ولا يقيمون برهاناً قبال ذلك. والخلاصة ان القرآن قد ذكر كلامهم في جميع السور عموماً وفي هذه السور السبع خصوصاً، وطرح في سورة (فصلت) عددا من الآيات التي ذكرت في هذا الصدد فهذه الفئة تعمى عما وراء الطبيعة، لأنها لم تتعلق قلبياً الا بالطبيعة والمادة. والقرآن يعبر عنهم بالعمي، لأن مضمون القرآن له ارتباط مباشر مع القلب الحي والسليم. فالقلب الذي يفهم قلب بصير والقلب الذي لا يدرك أعمى والقرآن يعتبر درك القلب هذا رؤية، وجهل القلب عمى، وحين يتحدث القرآن عن معرفة الرسول الأكرم ﷺ، يقول: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾[1]، فيعبر عن رؤية القلب وادراكه، بالمشاهدة والرؤية، والقرآن يصف الذين ليسوا من أهل الرؤية والادراك ولا تفهم قلوبهم هذه المعارف، بأنهم عمي: ﴿**لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾[2].

(١) سورة النجم، الآية (١١).
(٢) سورة الحج، الآية (٤٦).

ان هذا النوع من الأشخاص المنحرفين ليسوا عميا من ناحية عيونهم الظاهرية وانما قلوبهم التي في نفوسهم أو الأرواح التي في داخلهم عمياء، وهم يعترفون بهذا المعنى أيضاً، يقولون اننا لا نفهم ما جاء به الوحي ولا نسمع كلام الوحي وان هناك حجاباً بيننا وبين مسؤولي الوحي لهذا لا نقدر على ادراك الوحي وفهمه، وقد ذكر الله، كلامهم في اوائل سورة (فصلت) بهذا النحو: **﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه﴾**[1]، أي اننا لا نفهم ما تقول، وذلك لأن الانسان المتعلق قلبه بالطبيعة لا يسمع كلام ما وراء الطبيعة، وهؤلاء كالشجرة، ولقد نموا ونالوا الرشد في مستوى نبات وليس في مستوى انسان. والشجرة انما تنمو حين يغوص لبّها في الطين، والانسان الذي يتطور في حدود نبات انما ينمو كذلك حين يدخل فكره في الطبيعة، لذا فان ما ينمو منه هو أغصانه وفروعه وليس أصله، اذ ان أصله هو مخه ورأسه وفمه وعينه، وهي كلها قد غاصت في الطين. ان الذين يفكرون بهذا المستوى، قد ارتبطت نفوسهم بالطبيعة، ويوم القيامة يحشرون منكوسين، أي تكون رؤوسهم منكسة الى أسفل، وليس بشكل مستوي مرفوع الرأس. لأن مرفوع الرأس، هو الذي يقوم في السحر، ينظر الى السماوات ويقول: **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾**[2]، **﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾**[3]، فهذا الانسان الراقي يحشر يوم القيامة مستقيماً ومستوياً، اما الشخص الذي تعلق قلبه بالطين والطبيعة فانه يحشر يوم القيامة منكوس الرأس **﴿نكسوا على رؤوسهم﴾**[4]، وهؤلاء لا يمكن ان يفهموا ماذا تعمل الكواكب في السماء؟

---

(١) سورة فصلت، الآية (٥).
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٩١).
(٣) سورة آل عمران، الآية (١٩١).
(٤) سورة الأنبياء، الآية (٦٥).

الشخص الذي يجلس في المرصد ويرصد حركة الكواكب في السماء فبامكانه ان يخبر عن النجوم في السماء، وليس الشجرة التي غاص جذرها وفمها ولبها وقلبها في الطبيعة. فالشجرة لا تعرف ابداً شيئاً عن النجوم، لأن لبها دخل الطين، والانسان المتعلق بالطبيعة يجهل السموات وأمور السماوات، وليس لديه أساساً استحضار لأمور السماوات، لأن المفتون بالطبيعة ليس له طريق الى ما وراء الطبيعة. **﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه﴾**، أي أن طبقة كبيرة من الطبيعة قد استولت على قلوبنا كدودة القز التي رغم سعيها الا ان جهدها البالغ يطوقها هي، فتغرق في سعيها ولا ترى خارج نسجها وعملها ولا تنظر الى ما وراء نسجها وجهدها في الخارج، وسماؤها هي تلك التي نسجتها بأتعابها وصارت تظلل عليها وتحجبها.

يقول الشاعر (ما معناه): ان تلك الدودة التي في حبة الحنطة فسماؤها وأرضها هي حبة الحنطة تلك ان الدودة الصغيرة الضعيفة التي تتكون وتنشأ في داخل حبة حنطة لا ترى الا في حدود تلك الحبة، وسماؤها هو السقف الأعلى لتلك الحبة، وأرضها الجانب الأسفل من قشرة حبة الحنطة، وشرقها وغربها طرفي حبة الحنطة تلك. وأمامها وخلفها هما زاويتي تلك الحبة، فهي لا تخرج من حدود تلك الحبة، حتى تتمكن من رؤية الكون، والانسان المولع بالطبيعة هو كتلك الدودة الغارقة في تلك الثمرة، او دودة القز الطامسة في الحرير، وقصة امثال هؤلاء الأشخاص المجدين في السعي تشبه العجلة الدوارة لآلة الغزل التي تدور دائماً وتنسج القطن وتؤمّن لباس الآخرين، اما هي فتبقى عارية لأنها لم تعمل لنفسها ولأنها دفنت نفسها في غلاف العمل. **﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر﴾**[1]،

---

(١) سورة فصلت، الآية (٥).

فآذانهم ثقيلة السمع ولا يدخل الكلام فيها كما لا يصدر ادراك أو مطلب من نفوسهم. ﴿**ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون**﴾[1] . ان الانسان اما ان يكون كالينبوع الذي يجري بنفسه وكالبحر الذي نبعه ورأسماله من نفسه، أو كالحوض الذي يصله الماء من الجدول، اما اذا لم يصله الماء من الخارج، ولم يكن كالينبوع الذي ينبع الماء من داخله، أي اذا كانت فتحة الجدول مسدودة وكان طريق القلب مطموراً بالطين، فان هذا الشخص يظل جاهلاً الى الأبد. ان الذين يقفون بوجه الوحي الالهي بما ان قلوبهم مغطاة ومعرفتهم الفطرية خامدة ولم تتفجر معرفتهم الباطنية فهم لا يتمكنون من الجريان من أنفسهم كما الينبوع، ولأنهم لم يستمعوا الى مدرسة الوحي ولم يسيروا في طريق مدرسة الأنبياء، فان آذانهم لا تستطيع ان تكون جدول ماء تفتح الطريق الى دخول الوحي من الخارج الى داخل القلب وتوصله الى النفس فستكون عقول هؤلاء الأفراد جوفاء، وقلوبهم خالية بشكل قهري، كمثل الاناء الذي لا هو يستقبل الماء من الخارج ولا يخرج الماء من داخله، والقرآن يعبّر عن هذه الجماعة بقوله. ﴿**وأفئدتهم هواء**﴾[2] فهي غير مثمرة من الداخل كما هو الينبوع ولا هي وفرت شيئاً من الخارج كالحوض المتصل بنهر. ﴿**ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون**﴾، وهذا اللحن ذكروه للرسول الأكرم بتهديد، قالوا له افعل ما شئت ونحن ننفذ قرارنا، عند ذلك امر الله رسوله بالقول: ﴿**قل انما انا بشر مثلكم**﴾[3] ، اي انني بشر مثلكم يجب ان أستعمل الطريق البشري في تفهيم المسائل، فأتكلم لتسمعون، وأقيم البرهان، واذا أقام المستدل دليلاً أقبله، وهذا الذي نسلكه هو طريق

---

(١) سورة فصلت، الآية (٥).

(٢) سورة ابراهيم، الآية (٤٣).

(٣) سورة فصلت، الآية (٦).

التفاهم البشري، انا نتكلم معكم في حدود التربية والتعليم البشري، وعلاقتي معكم علاقة المعلم مع المتعلم، وكلاهما بشر، اما علاقتي مع الله فهي علاقة الوحي، وهي علاقة غير ممكنة القبول بالنسبة لكم.

﴿قل انما انا بشر مثلكم﴾، لكن ميزتي عنكم هي انه يوحى الي **﴿يوحى الي﴾**[١]، وعن طريق الوحي يتضح لي هذا الأمر وهو **﴿انما الهكم إله واحد﴾**[٢]، ومن ناحية العقل النظري عليكم ان تعلموا ان العالم خلقه مبدأ واحد وهذا المبدأ هو الذي يدير الكون وحسب. ومن ناحية العقل العملي **﴿فاستقيموا اليه واستغفروه﴾**[٣]، اعلموا ان الكون هو تحت تدبير مبدأ واحد، واصلوا هذا الطريق وادركوا طريق التوحيد وسيروا مباشرة في هذا الطريق، واطلبوا المغفرة من الزلل السابق.. كونوا مستقيمين في المسير الى الله، واطلبوا المغفرة، وبالاستغفار ترفعون الزلل السابق كما تواصلون سيركم كذلك، واعلموا أيضاً ان هدفكم الله وحسب.

الا ان هؤلاء اتخذوا موقفاً مضاداً للوحي وقالوا كلاماً معبّراً عن موقف الشدة والقدرة المادية، **﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة﴾**[٤]. عندما لا يحكم العقل والفكر يصبح المجال مفتوحاً للشدة والقوة، وحين لا يكون العقل يكون الحكم اما للغضب او الشهوة، وقد وصف رسول الله، العقل بالنور الالهي الذي يعقل الشهوة المتمردة والغضب الطاغي، ويسكنهما، وفي حالة عدم وجود هذا النور الالهي كما كان حال المستكبرين امام الوحي الالهي عندئذ يقال: **﴿من أشد منا**

---

(١) سورة فصلت، الآية (٦).
(٢) سورة فصلت، الآية (٦).
(٣) سورة فصلت، الآية (٦).
(٤) سورة فصلت، الآية (١٥).

قوة﴾[١]، لقد اعتمدوا على شدتهم وقوتهم، ولقد أرشدهم القرآن الى أهمية العقل، وحذرهم بمسألة إلهية مهمة، هي جزء من السنن الالهية، وقال حول مسألة العقل: ﴿او لم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾[٢] أفلا يعلمون ان هذه الشدة المستعارة وهذه القوة الزائلة قد نالوها ممن هو أقوى منهم وأشد. ان اظهار الشدة بوجه الوحي الالهي، ليس الا جهلاً. ﴿ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾[٣] عند ذلك أسلمهم الى العذاب الالهي. ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات﴾[٤]، ولأن المنكرين كانوا يعتمدون على شدتهم وقوتهم، قال الله لرسوله قل لهم انه قد كان قبلكم من هو أشد منكم قوة لكنهم هلكوا فلن تستطيع قدرتكم مقاومة قدرة الله: ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾[٥]. وفي قضية قارون ذكر ان قارون اعتمد على ثروته، ولكن الله أهلك الذين كانوا أكثر منه ثروة وقوة. وفي سورة القصص، لما قال قوم موسى الكليم، لقارون بأن يستفيد من هذه الثروة لصالح مستقبله، أي آخرته قال مجيباً: ﴿قال انما أوتيته على علم عندي﴾[٦]، أي انني استطعت جمع هذه الثروة الطائلة بسبب معرفتي بعلم الاقتصاد، قال القرآن: ﴿او لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾[٧]. بناء على

---

(١) سورة فصلت، الآية (١٥).
(٢) سورة فصلت، الآية (١٥).
(٣) سورة فصلت، الآية (١٥).
(٤) سورة فصلت، الآية (١٦).
(٥) سورة سبأ، الآية (٤٥).
(٦) سورة القصص، الآية (٧٨).
(٧) سورة القصص، الآية (٧٨).

هذا فالمستكبرون الذين يعتمدون على شدتهم وقوتهم ويقفون من هذا الطريق امام الوحي محكمون بالزوال والهلاك كمثل المستكبرين المقتدرين السابقين.

أحياناً يقف المستكبرون بوجه الوحي السماوي ليس من الشدة بل بسبب الغوغائية وقد بيّنت سورة فصلت تصميم الكفار بوجه الوحي الالهي بهذا الشكل: **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾**[1]، أي اغلقوا فتحة الجدول الذي يصب في حوض القلب، حتى لا يدخل ماء المعرفة الى القلب عن طريق السماع. ان عدم الاستماع الى البحث وعدم الجلوس ومطالعة المعارف الالهية وعدم التدبر في القرآن الكريم ناجمة عن ان طريق حركة القلب مغلق وطريق السماع مطمور بالطين، والانسان المستكبر لا يمكنه اخراج ماء المعرفة عن طريق القلب كما هو حال عين الماء، ولا هو كالحوض بامكانه أخذ ماء المعرفة من فتحة الجدول، لأنه حين لا يصغي بسبب الاستكبار، فكيف يستفيد من معارف القرآن. لقد صمم الكفار على ان لا يستمع الناس الى الآيات الالهية ولا يطالعوا القرآن ولا يتدبروا فيه ولا يقرأوا العلوم الاسلامية ولا يطالعوا فكر المفكرين الاسلاميين ولا يدققوا في هذه الكتب ويتعاملوا بغوغائية مع هذا الكتاب ومحتواه لعلهم يستطيعون اخراج هذا الكتاب من الساحة **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾**. واللغو يقال للعمل الذي لا أساس له، والكلام الذي لا معنى له، والمؤمن يعرض عن اللغو **﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾**[2]، لأن المؤمن هو بدوره كلمة طيبة، كلمة طوبى لها أصل

---

(١) سورة فصلت، الآية (٢٦).

(٢) سورة المؤمنون، الآية (٣).

وثابتة واللغو بلا أصل ومجتث من فوق الأرض. **﴿كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض﴾**[(١)]، اما شجرة الايمان والعقل فبدنها نشأ من عمق التراب. ولأن للمؤمن أصل ثابت فان غصون شجرة وجوده تكون مثمرة في السماء. اما غير المؤمن فليس له أصل ثابت وعمله بلا أصل كذلك، ولا يقول قولاً أصيلاً. قال الامام الصادق عليه السلام: «أصل المرء لبه» والانسان فارغ اللب يصبح بلا أصل، فاذا لم يكن لديه لب فانه يصير بلا أصل، وحين يكون بلا أصل، يكون تصميمه وعمله لغواً أيضاً. والاناء ينضح بما فيه، قال زعماء الاستكبار لأتباعهم **﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾**، اما القرآن فيقول بأن اللغو ليس عاملاً في النصر على الاطلاق، واللهو ليس عامل نجاح. والغوغاء لا تضمن النصر أبداً، وقد بين القرآن الكريم منشأ هذه الأمور وذكر ان القرآن منزه من نفوذ الباطل اليه، فالقرآن كتاب عزيز، والشيء حين يصبح عزيزاً فانه يكون غير قابل للاختراق، وقد طرحنا في الدروس السابقة معنى العزة التي هي عدم القابلية للاختراق ويقال للأرض القوية التي لا تقبل النفوذ (ارض عزاز) اي لا تستسلم لضربات المعول، ولا يقال للانسان الذي يستسلم عزيزا، ولا يقال للانسان الذي يقبل النفوذ والاستسلام عزيزاً وهذا الفرد لا يكون مؤمناً بالنتيجة، لأن العزة خاصة بالله والرسول والمؤمنين، وهذا الفرد لا يكون من أهل القرآن، لأن القرآن كتاب عزيز، أي أنه غير قابل للابطال بالبرهان والدليل، كما انه ليس بالامكان النفوذ فيه عن طريق الشدة واللغو واخراجه من الساحة، لأن الله تعالى أشاد بالقرآن وذكره بالعزة، في هذه السورة وقال: **﴿وانه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم**

---

(١) سورة ابراهيم، الآية (٢٦).

حميد﴾[1] ، فالبطلان ليس له سبيل الى حرم هذا الكتاب وحريمه المنيع، فلا هو من أهل البطلان حتى يقول كلاماً بلا دليل، ولا يصدق الكلام الذي لا دليل له، فلا يمكن محاربة القرآن بالكلام الفاقد للدليل، كما ليس بالاستطاعة الوقوف بوجه القرآن من خلال اللغو، لأن الحرب ضد العزيز غير ممكنة، وعاقبة ذلك ليست الا الذلة، لذا يقول بأن الله قد ابتلاهم بعذاب الذلة، لأن الشخص الذي يتخذ موقفاً مضاداً للقرآن انما يقف امام الكتاب العزيز، ولا يحارب انسان العزة الا ويصبح ذليلاً، ولا يتصدى أي أحد لمحاربة الكتاب العزيز، الا وطبعت الذلة عليه كطبع المسكوكات.

وبناء على هذا فان مبدأ ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي ان البطلان ليس له سبيل الى حرم القرآن، سواء في زمان ظهوره او بعد ذلك الى يوم القيامة لا يقبل النسخ ولا التخريب ولا التغيير ولا الفشل، كما لا يقبل الزوال ولا يمكن التغلب عليه بالبرهان لأنه ذات النور والبرهان، كما انه ليس بالامكان مواجهته بالعلم لأنه ذات العلم، وليس بالامكان مواجهته باللغو لأنه مركز القدرة وحبل الله، فهو كتاب عزيز ينهي لغو كل لاغ، لذا حين تطرح حجة ودليل المستكبرين في مواجهة القرآن الكريم يقول: ﴿والذين يحاجون في الله من بعدما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾[2] ، لأن محاربة الحق لا يمكن الا عن طريق الباطل وهزيمة الباطل قطعية، اما الحق فلا يحارب الحق، اذ من غير الممكن ان يتنازع الكلام الحق مع الحق، لذا كان كل نبي يصدّق النبي الذي قبله. ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾، فالنور لا يحارب النور، بل الظلمة هي التي

---

(1) سورة فصلت، الآيتين (٤١و٤٢).

(2) سورة الشورى، الآية (١٦).

تحارب النور وبما أنها لا تقدر على المقاومة، فانها محكوم عليها بالزوال الحتمي، وقد ذكر القرآن الكريم ان الذين وقفوا بوجه الوحي وأبدوا تشددا حجتهم منهارة وباطلة ﴿وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾. لماذا حجتهم منهارة؟ لأن القرآن هو ميزان الحق. وافكار الآخرين يجب تقييمها على أساس الوحي السماوي، والانسان العادي يخطىء ويتعرض إلى الخطأ في الرؤية الكونية، اما الانسان المعصوم عن الخطأ فيتغذى فكره عن طريق الوحي وهو بمثابة ميزان الحق. وما ينزل على قلب الأنبياء هو الوحي السماوي، وهو ميزان الصدق، لذا قال بعد ذلك: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾[1]. فلو أراد الانسان معرفة هل ان الحق معه ام لا، فعليه ان يقيم ذلك بمعيار الوحي، واذا أراد ان يرى هل ان كلامه لغو ام صحيح، فيجب تقييم ذلك بالميزان الالهي.

ملاحظة: ان الشيء الذي يجعل الانسان غافلاً، ويدفعه الى الاعتماد على قوته الكاذبة، او اللجوء الى اللغو، هو نسيان القيامة، فالانسان الذي ينسى القيامة يتصور انه يبقى خالداً في الدنيا او يتصور انه يفنى عند الموت ويزول نهائياً. وفي كلتا الحالتين يخيل اليه انه ليس هناك حساب وكتاب بعد الموت، ولأنه يفكر هكذا فانه لا يهيّىء زادا للآخرة، لأنه لا يعتبر نفسه مسافراً يريد الوصول الى مقصد معين بل يرى انه ينعدم بعد الموت، اما اذا علم الانسان انه مسافر فانه يحضّر الزاد، وحين يفهم ان هناك ممر فهو لا يتحرك من دون زاد، وسرّ دعوة القرآن وكلام المعصومين الى اعداد الزاد وتحصيل زاد الآخرة هو لإفهامنا ان الانسان مسافر نحو الآخرة، فهو لا يبقى في الدنيا حتى يكون خالداً، ولايفنى بالموت، بل هو يترك الطبيعة وينتقل

---

(١) سورة الشورى، الآية (١٧).

من عالم الى عالم آخر، ولولا نسيان الآخرة، لما كان كل هذا الاعتماد على القوة المادية والشدة الدنيوية، ولما كانت كل هذه المؤامرات والغوغائية، لذا يقول القرآن: **﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾**[1] . ان القيامة بالنسبة للأشخاص المفسدين أمرّ من كل مر وبالنسبة للانسان الملوث وللانسان أسود القلب أفجع فاجعة وأكثر ألماً من أية واقعة، اما بالنسبة للانسان المؤمن، فهي ألذّ من كل اللذات، وأحلى من كل حلاوة، حتى يصل الأمر ان يصبح الانسان نفسه جنة **﴿فأما ان كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم﴾**[2] فعدا عن كونه سيحل في الجنة الموعودة فنفس الانسان المقرب جنة وروح وريحان كما ان الانسان المفسد حجاب لنفسه، «فاذا كنت حجاباً لنفسك فانهض من البين»[3] ، واذا كان الغرور حجاباً ولا يدع الانسان يصير روحاً وريحاناً، فيجب رفع هذا الحجاب ورؤية العيوب فيصبح روحا وريحاناً.

يجب عدم الوقوف امام الوحي، وعدم اللجوء الى الشدة والقوة واللغو، بل يجب القول: **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾**[4] **﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾**[5] .

ونتيجة ما جاء في سورة فصلت، هو ان للسورة مضموناً في شرح الوحي وما جاء به الوحي وهو التوحيد والنبوة والمعاد، وقد تم طرح ذلك في دروس سابقة، هي ونشرح مواقف الأشخاص هذه، وسلوك المستكبرين

---

(١) سورة الشورى، الآية (١٧).
(٢) سورة الواقعة، الآيتين (٨٨ و٨٩).
(٣) من شعر لحافظ الشيرازي (المترجم).
(٤) سورة آل عمران، الآية (١٩١).
(٥) سورة الشورى، الآية (١٧).

الجاهلين أمام الوحي، وتذكر كذلك اعتمادهم على القوة والشدة والحياة الدنيا والطبيعة، وتطرح أيضاً تصميمهم على اثارة الفتنة، وأخيراً تعتبر هذه الأعمال اللغو والباطلة محكومة بالزوال والفشل، وترى ان حريم الوحي مصاناً ومطهراً من كل لغو وكل ضرر، وقلب المؤمن اذا تنور بالوحي السماوي، فانه بدوره سوف يتمتع بهذه الكمالات كالقرآن، والقلب الذي يكون وعاء للقرآن الكريم، يكون عزيزاً مثله.

نرجو الله تعالى ببركة القرآن الكريم وببركة الذي جاء بالقرآن الكريم وببركة مفسري ومبيني القرآن الكريم وهم أهل بيت العصمة والطهارة أن يختم أمور الجميع بالخير. غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الرابع

شرح الخطوط العامة للرسالة في القرآن

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

القرآن الكريم كله نور، ولا يلاحظ في النور الا الوحدة والانسجام، لأن خاصية النور هي انه ليس فيه ظلمة ولا يكون مظلما ومنشأ الاختلاف وهو الظلام ليس له طريق في النور، وبالنتيجة ليس ثمة أي اختلاف في القرآن، ولكن في نفس الوقت الذي هناك انسجام في جميع نواحي هذا الكتاب الالهي، فانه يلاحظ وجود نظم خاص في بعض سوره، فمعارف القرآن ترتب بهذا الشكل، بحيث ان مضمون بعض السور يتعلق بالتوحيد، ومضمون بعضها الآخر يتعلق بالرسالة ومضمون بعض ثالث يتعلق بالمعاد. كما ان بعض السور تتحدث عن فروع الدين في أبعادها المتنوعة. ومع انه أشير الى هذه المعارف بشكل اجمالي في جميع السور، بيد ان البحث الواسع في هذه المواضيع مخصوص بسور خاصة. وفي القرآن سبع سور

تبتدىء بـ﴿حم﴾ وتدعى بالحواميم، وفيها انسجام خاص بشأن شرح الخطوط العامة للرسالة، أي شرح أصل الوحي وتبيين الخطوط العامة لما جاء به الوحي، اذ ان الوحي حقيقة مهمة وقيمة لا يقدر على هضمها وحملها غير الأنبياء ورسول الوحي هو الذي ينزل التوحيد وضرورة الرسالة وضرورة المعاد، على قلب الرسول الأكرم ﷺ، وبما ان الحروف المقطعة الموجودة في أوائل بعض السور تشير الى محتوى تلك السورة، وهي بمثابة رمز يدل على معارف تلك السورة، ولهذه السور السبع مضمون مشترك، فقد ذكرت كلمة ﴿حم﴾ وهي رمز مشترك بينها، في طليعة كل السور السبع.

ومن هذه الحواميم السبع، سورة الاحقاف، وهذه السورة تشرح مسألة التوحيد كما تبين ضرورة الوحي وضرورة المعاد أيضاً، لكنها تبين خصائص المعاد بشكل أكثر، ومع ان الحواميم الأخرى، تذكر هذا المضمون بأدلة وبيان آخر، الا ان هذه السورة، التي تعرض هذا المضمون بأدلة خاصة توضح المعاد أكثر من الأقسام الأخرى. فهي تطرح مسألة المعاد من زوايا متعددة بعد كل بضع آيات. فبعد بسم الله الرحمن الرحيم، وقد ذكرنا سابقاً ان البسملة الموجودة في أول كل سورة، يتناسب معناها مع مضمون تلك السورة، فليس هناك معنى واحد للبسملة في جميع سور القرآن وقد ذكر محققو التفسير ان هذه الكلمة المباركة هي مشترك لفظي، وهي حين تنزل في كل مرة، تعلن عن اختتام سورة وابتداء سورة لاحقة، وهي تنزل بمعنى جديد. لأن الرحمانية والرحيمية أينما كانتا لهما ظهور خاص، يناسب وينسجم مع مضمون تلك السورة، جاء بعد بسم الله الرحمن الرحيم، **﴿حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾**[1]. ثم قال: **﴿ما خلقنا**

---

(١) سورة الاحقاف، الآيتين (١ و٢).

السموات والأرض وما بينهما الا بالحق﴾[1] ، ان من غير الممكن مطلقاً رفع لباس الحقيقة هذا عن هيكل الخلق. ولو كان هذا النظام فارغا وعبثا ، أي لم يكن له معاد وهدف، فمعنى ذلك ان رداء الحقيقة قد نزع عن جسم نظام الخلق في حين ان الله، قال: **﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق﴾** فهذا النظام يدار بالحق يقيناً، وليصل الى هدف كذلك. فلا الباطل له طريق الى هذا النظام، ولا العمل الباطل يؤدي الى انقطاع وعبثية هذا الهدف. فالحق يحكم في الدنيا كما يظهر في الآخرة، الا ان الناس في الدنيا غافلون ولا يرون ان الله هو الحاكم في نظام العلية ونظام الطبيعة. **﴿الا بالحق واجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾**[2] ، والناس في هذه السورة يقسمون الى قسمين، فمنهم من سعى الى رؤية رداء الحق هذا على هيكل الخلق، ومشاهدة هذا اللباس الظريف للحقيقة على بدن الخلق، اي ليرى الحقيقة بذلك الرداء الخاص الموضوع على نظام الطبيعة، ومنهم لا يرون نظام الطبيعة برداء الحق، لأنهم لا ينظرون الى مظلة الحق وبرداء الحق وانما يضعون رداء الباطل على هيكل الخلق، ويتصورون عالم الخلق باطلاً. ولذا يحصرون كل اللذات في الطبيعة، ولا يتحملون أي صعوبة ومشقة، بالصبر ولا يدعون أية لذة، وحين يحصلون على اللذة والعيش يأمنون، وعند الطاعة والصبر والصعوبة، يعصون، وهذه هي خاصية الكفر انه حين الوصول الى اللذة يطمئن وحين الوصول الى الطاعة والصبر والصعوبات يعصي اما علامة الايمان فهي ان الشخص يقف ازاء اللذات المؤقتة ويقاوم الاتجاه الى اللذة، ويتحمل المصاعب بالصبر، سواء الصبر

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (٣).

(٢) سورة الاحقاف، الآية (٣).

في الطاعة، او الصبر عن المعصية، او الصبر على المصيبة. اذن ينقسم الناس الى قسمين، قسم منهم رجال عاقلون وعلماء يسعون الى رؤية النظام بمنظار الحق ويتحركون وراء الحق الحاكم على النظام حتى يبلغوا الهدف، وقسم آخر هم أهل النزعة نحو الباطل، حيث يريدون رؤية الكون بمنظار الباطل ويتصورونه عبثاً وهم يتجهون الى اللذة ومحرومون من فضيلة الصبر. والقرآن يطرح في هذه السورة أمثلة لتلك الجماعتين، يسأل أولاً الجماعة الكافرة التي تعصي الله ولا تتبع التوحيد ولا تتبع مبدأ العالم، انه هل هناك لأحد غير الله دور في خلق الكون، أم لا؟ فان لم يكن هناك دور ونصيب في ذلك لأحد فلماذا تطيعون غير الله؟ والبشر لا يمكن ان يكون غير تابع لأي مبدأ، فالشخص الذي يقول انني لا أؤمن بالله هو مطيع لهواه وميوله النفسانية، فهو عبد الهوى ومطيع الهوى، وهو لديه وثن اسمه الهوى، وليس من الممكن ابداً ان يعيش الانسان من دون طاعة لمبدأ ما، فاذا كان موحداً وعارفاً بالله، يطيع مبدأ العالم ومبدأ الكون وينظم الأعمال بأمر مبدأ العالم ويطيعه، واذا لم يكن مسلماً وموحداً، فانه يعمل بالهوى ويسير بالهوى، ويترك البرنامج للهوى الذي ينظم أعماله، ومثل هذا الشخص عبد للهوى وليس عبداً لله، إذن من غير الممكن ان يتحرك البشر من دون طاعة لمبدأ، فأما أن يكون الله مولاه، أو يكون هواه مولاه، ثم يستدل القرآن ويسأل من يطيع غير الله، سواء كانت أوثاناً ظاهرية، أو أوثاناً باطنية، ويسأل الذين يكرمون هذه الأصنام الأرضية، أو الكواكب السماوية أو يحترمون سائر الكائنات الامكانية عن دورها في العالم، فهناك أربع أشكال من الأدوار يمكن أن تكون لكائن من الكائنات في الكون، الأول ان يكون دوره مستقلاً في التأثير، أي أنه يخلق شيئاً بصورة مستقلة، الثاني ان يكون دوره على

شكل مساهمة في التأثير يكون شريكاً لله في عمله، الثالث ان يكون دوره لا على صورة استقلال فيخلق شيئاً لوحده ولا بطريقة المشاركة، أي يشترك مع الله في خلق شيء، أي لا يكون دوره في الخلق، بشكل مشاركة بل بصفة المظاهرة والدعم فيكون معيناً وظهيراً[(١)] ، الرابع، لا يكون له دور في الخلق لا بنحو الاستقلال ولا بالمشاركة ولا بصفة المظاهرة والاسناد، بل يكون له دور الشفاعة، ويمكنه ان يكون شفيعاً في نظام الوجود، وقد ذكرت هذه الأقسام الأربعة في سورة سبأ، قال تعالى: ﴿**قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله**﴾[(٢)] أي ادعوا الذين زعمتم من دون الله، والذين تتواضعون لهم وتحترمونهم، ما هو دورهم؟ فهم:

أولاً: ﴿**لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض**﴾[(٣)] .

ثانياً: ﴿**وما لهم فيهما من شرك**﴾[(٤)] أي انه ليست لهم مشاركة في خلق السماوات والأرض.

ثالثاً: ﴿**وما له منهم من ظهير**﴾[(٥)] أي أن الله لا يحتاج الى استظهارهم واسنادهم، هذه هي ثلاثة أقسام، اذن فغير الله لا يملك ذرة لا بالاستقلال ولا بالمشاركة ولا بصفة المظاهرة والاسناد.

الرابع: ﴿**ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له**﴾[(٦)] ، وتبقى مسألة

---

(١) لقد استفدنا ان مراد الشيخ الأستاذ ذلك بالاستعانة ببقية كلامه بالآية التي سيستشهد بها وان كانت العبارة الفارسية هنا مضطربة (المترجم).

(٢) سورة سبأ، الآية (٢٢).

(٣) سورة سبأ، الآية (٢٢).

(٤) سورة سبأ، الآية (٢٢).

(٥) سورة سبأ، الآية (٢٢).

(٦) سورة سبأ، الآية (٢٣).

الشفاعة وهي المسألة الرابعة، وهذه الشفاعة هي حق في الجمنة لا بالجملة للأنبياء وأولياء الله، فهم مأذون لهم ولا يشفعون من دون اذن الله، والله لا يسمح لأحد بالشفاعة الا لمن ارتضى دينه، ففي هذه الحالة فقط يأذن الله بالشفاعة، والله يسمح للأنبياء والأولياء عليهم السلام بالشفاعة حتى يشفعوا للمؤمنين الذين لديهم نقص. وطبعاً للشفاعة درجات، وحتى المؤمنين المتقين أهل الجنة بحاجة الى شفاعة علي وأولاد علي عليهم السلام لترفيع درجتهم، وأهل جهنم، يخفف عذابهم اذا شملتهم الشفاعة كما أن أهل الأعراف يدخلون الجنة بالشفاعة وأهل الجنة ترفع درجاتهم بالشفاعة. على أية حال ان أصل الشفاعة حق في الجملة لا بالجملة لأن الشفاعة خاصة بالأنبياء والأولياء. وذلك باذن الله وإذن الله، حسب بيان القرآن هو في حدود ايمان الشخص الذي يشفع له الأنبياء والأولياء **﴿لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا﴾**(1)، فالأصنام الباطنية أو الخارجية ليس لها دور في الشفاعة. فلماذا يطيع الانسان غير الله، مع أن غير الله لا يقدر على أي عمل؟. هذه الأقسام الأربعة، ذكرت في سورة سبأ. وفي سورة الأحقاف التي هي محل البحث طلب من الذين يعبدون غير الله تقديم دليل عقلي على صحة ذلك، أو دليل نقلي طبعاً على أن يكون سنده قطعياً، ويؤيد العقل متنه او لا يعارضه لا اي نقل كان. **﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله﴾**(2)، **﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات﴾**(3)، فاذا كنتم تعملون برغبتكم وتعبدون رغبتكم، فأنتم تعبدون غير الله، وباطنكم صنم يحكم فيه الهوى وأنتم تطيعون. ان القول بأننا نعمل برغبتنا، ونفعل كل ما

---

(1) سورة مريم، الآية (٨٧).

(2) سورة الاحقاف، الآية (٤).

(3) سورة الاحقاف، الآية (٤).

نريد دليل على أن رغبتكم حاكمة عليكم، فما هو دور رغبتكم هذه في الكون؟ أنكم جزء من هذا الكون، ولستم في معزل عن هذا النظام، فيجب ان تكونوا تابعين للنظام الحاكم على ذلك، وما هو دور هذه الأوثان الخارجية التي تكرمونها وتعبدونها؟ فهي اما أن تكون خالقة او تكون لها مشاركة في الخلق، وهذا الادعاء يجب ان تثبتوه اما بالبرهان العقلي او بالدليل النقلي المعتبر، اي أما أن تثبت صحة ذلك بالدليل العقلي الخالص المباشر او بدليل نقلي معتبر ينتهي الى دليل عقلي. ﴿**أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات**﴾، هل خلقوا شيئاً في الأرض؟ أم كانت لهم مشاركة في خلق السماء؟ ام لهم سهم في هذه المجموعة، بحيث انه لولا ذلك السهم لضعفت هذه المجموعة؟ هل لهم دور في أصل الخلق أم في ربوبية المخلوق؟ أنهم لا يقدرون على فعل شيء، وإذا كانوا يقدرون، فاعرضوا دليلاً قطعياً ﴿**أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين**﴾[1]، أي ائتوا بسند من وحي سماوي يوضح أن لهذه الأصنام دوراً ومشاركة في الخلق، أو قدموا دليلاً من علم باق عن الماضين، تكلموا بسند معتبر، وأعرضوا عن قانون الله بدليل، فأما أن يؤيد الوحي السماوي، كلامكم هذا، أو يؤيده العقل الجازم والبرهان الحكيم، ألستم أيها المستكبرون، غير مطيعين لله، ومطيعون لغيره؟ الا يجب ان يكون لهذا الذي تطيعونه غير الله، دور في الكون فتنتفعون من طاعته، وتتضررون لو لم تطيعوه؟ أليست مسألة الخلق اما أن تكون بصورة مستقلة أو على شكل مشاركة؟ أليس إثبات هذا الادعاء يتطلب اما دليلاً عقلياً او دليلاً نقلياً معتبراً؟ بناء على هذا يجب ان تثبتوا ان لغير الله دوراً، او ان لكم دوراً،

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (٤).

أو أن لرغبتكم وأهوائكم سهم في تأمين سعادتكم، او ان تثبتوا أن احترام الأصنام له دور في تعيين وتأمين مصيركم وسعادتكم. وهذه كلها لا تقدرون عليها. ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا﴾ يؤيد صحة هذا الكلام ﴿او اثارة من علم﴾ او علم منقول ومتبقي من علم بشري وأمثال ذلك يؤيد العقل صحته ﴿ان كنتم صادقين﴾، لأن الصادق في الادعاء، هو الذي لديه بينة الى جانب الدعوى، فالأنبياء عليهم السلام صادقون لأنهم الى جانب الدعوة الى التوحيد، بامكانهم القول ﴿إني على بينة من ربي﴾[1] اذ أنهم يقدمون برهاناً عقلياً على صحة ذلك الادعاء ومعجزة كذلك، والمعجزة حجة استناداً الى العقل القطعي، فالعقل يقول ان الاعجاز دليل على ارتباط هذا الشخص بما وراء الطبيعة، العقل يقول: ان السحر وسائر فروع العلوم الغريبة هي علم، والعلم يكتسب، والطريق الى المدرسة مفتوح، فيذهب الانسان ويصبح ساحراً، ويتعلم الطلسم والسحر، لأن كل هذه هي فروع علمية، والطريق ممهد للبشر للتعلّم، والعقل يقول ان المعجزة ليست علماً اكتسابياً، العقل يقول أن كيفية فهم المعجزة لا طريق لها الا عن طريق الشهود فقط لأن الاعجاز هو واقع خارج، ولا يدخل الى فكر أي شخص عن طريق ادراك المفهوم الذهني، وليس لأي وَهْم نفوذ الى مقام الاعجاز الذي هو حضور عين الخارج، ولا يمكن القيام بمعجزة من خلال الدراسة لكن بالامكان أن يصبح الانسان ساحراً بالدراسة، فيقوم بالشعبذة وممارسة الطلسم، فهذه كلها من العلوم الغريبة التي يمكن تعلّمها. فدعاهم الى الاتيان ببرهان عقلي على صحة ادعائهم أو بمعجزة وهي تستند الى البرهان العقلي. العقل يقول أن للاعجاز ارتباط مباشر مع مبدأ العالم، وقد جاء الأنبياء ومعهم أيضاً

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٥٧).

معاجز وبراهين، فحين جاء موسى الكليم مع العصا وتحولت الى أفعى فقد أقام برهاناً عقلياً على صحة ادعائه، وهو التوحيد، وقال: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[1] ، أي أنه استدل في هذه الجملة القصيرة على أساس برهان النظام الفاعلي، وبرهان النظام الداخلي وبرهان النظام الغائي معا، وقد تقدم بحث ذلك في مباحث سابقة، فقد جاءت ثلاثة براهين في هذه الآية القصيرة، لقد جاء بيد بيضاء ولسان ناطق بالحكمة، والقرآن يقول للذين يعتمدون على غير الله ان كلامهم أما أن يكون له استناد الى الوحي أو يكون مستنداً الى أثر من العلوم البشرية الماضية ثم يبدأ بطرح مسألة العواقب السيئة التي تنتظر الأشخاص المعرضين عن الحق ولا يفكرون ببرهان ولا يطيعون الوحي السماوي قال تعالى: ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾[2] ، أي شخص أضل من الذي يستعين بغير الله، ويعبد غير الله سواء من الأوثان الخارجية أو أهواء الوثن الداخلي، فلا الهوى الباطني، ولا الأوثان الخارجية، قادرة على حل مشكلة. والانسان اذا كان عبدا للهوى، فانه لا يحل مشكلة الى يوم القيامة، رغم ان عبادة الوثن الخارجي، تنجم عن عبادة الهوى الباطني، لأن احترام موجود خارجي لا يكون من دون تكريم فكري وإرادة باطنية ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[3] ، في يوم القيامة تثور هذه الأوثان على عباد الأوثان وتقول انها مشمئزة من عباد الأوثان هؤلاء، تهيج تلك الأوهام والخيالات الداخلية ضد الانسان اذ ان الخيالات الباطنية والوساوس الباطنية والأوهام والأهواء الباطنية تتكلم ضد الانسان، هناك تظهر ﴿شاهدين على أنفسهم

---

(١) سورة طه، الآية (٥٠).

(٢) سورة الاحقاف، الآية (٥).

(٣) سورة الاحقاف، الآية (٦).

بالكفر﴾[1] ، هناك يشهد باطنهم ضدهم، هناك تشهد اليد والقدم ضد الانسان، وكذلك تشهد النفس التي كان يعبدها الى ذلك الحين ضد الانسان العابد للهوى والهوى الذي كان آمراً، يثور ضد الانسان المطيع للهوى، ومن هنا يتضح أن الأوثان والخشب وغيرها كلها من أهل الشعور والادراك وكل الأشياء في الكون تفهم لأنه ورد في عدة مواضع في القرآن بأن الأوثان تثور ضد عبّاد الأوثان في يوم القيامة، وتشهد وتعترض، قال تعالى في هذه الآية: **﴿واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾**، هذه الأصنام سوف تكون أعداء لعبّاد الأصنام، لأن الأصنام هي عباد الله. **﴿وان من شيء إلاّ يسبح بحمده﴾**[2] ، وأهواؤنا هي عباد الله أيضاً، وليس في الكون شيء لا يسجد ولا يخضع في محضر الله، وليس في العالم شيء لا يسبح لله، وفي يوم القيامة تتكلم هذه الأوثان ضد عباد الأوثان وسوف تكون أعداء للوثنيين **﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾**.

وعندما انتهى هذا القسم، ذكر أنهم كانوا يتلقون الآيات الالهية تارة على أنها سحر وتارة على أنها افتراء وبعد اجابة هذه الأقسام، يصل الى هذا القسم وهو ان المستكبرين يقولون بأن الاسلام والتوحيد والايمان لو كانت خيراً لكنا نلناها ولأنها لم تكن خيراً فقد تركناها، وهذا هو الكلام الباطني للكفار والمنافقين والوثنيين والمشركين بعضهم يقول باطناً وبعضهم يقول في الخارج، ان الايمان لو كان خيراً لقبلناه، ولكن لعدم وجود خير فيه، فقد تركناه. **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه﴾**[3] ولكن الجواب عليهم هو: **﴿واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا أفك**

---

(١) سورة التوبة، الآية (١٧).
(٢) سورة الاسراء، الآية (٤٤).
(٣) سورة الاحقاف، الآية (١١).

قديم﴾[1] وهذا رجعية قديمة وقد افترى هذا الافتراء أناس في الأزمان السالفة بينما ليس كذلك **﴿ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾**[2] . ان الناس على قسمين تجاه ما جاء به الأنبياء وهو التوحيد والنبوة والمعاد، قسم منهم يعبدون الله ويؤمنون به، وقسم آخر يعبدون الهوى ويدورون في فلكه، وهم لا يؤمنون ولا يعبدون الله، وهنا يقسم القرآن الأشخاص، الى قسمين، ويشرح منطق كلا القسمين وعواقبهما **﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[3] ، هؤلاء عبروا حدود الماضي وحدود المضارع، هؤلاء خرجوا من دائرة التاريخ، فلا ماضيهم يحزنهم ولا المستقبل يثير خوفهم، لأن الانسان الذي يبلغ النفس المجردة ويضع قدمه على التاريخ والطبيعة يعبر حدود الماضي والمضارع، فلا يتألم من حزن الماضي ولا يألم من خوف المستقبل، فلا هو فقد شيئاً سابقاً حتى يكون حزيناً، ولا سيفقد شيئاً في ما بعد، حتى يكون الآن خائفاً، لأنه تجاوز كل ما هو زائل وتعلق قلبه بشيء ليس له ماضٍ ولا مستقبل، خضع لشيء غير قابل للزوال وتعلق بالذي «هو الحي الذي لا يموت»، والقلب الذي يرتبط بـ «هو الحي الذي لا يموت»، قلب لا يموت، ويصبح ذلك الانسان بدوره مظهراً للحي الذي لا يموت، وإذا لم يكن في هذا الانسان موت، ولم يكن في هذا الانسان زوال، فانه لا يدخله الحزن ولا الخوف **﴿أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾**[4] ، هذه الجنة الخالدة هي جزاء

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (١١).
(٢) سورة الاحقاف، الآية (١٢).
(٣) سورة الاحقاف، الآية (١٣).
(٤) سورة الاحقاف، الآية (١٤).

الولاية الالهية، التي تستلزم النجاة من مخالب الحزن الماضي، ومن قبضة الخوف المستقبلي ان الانسان المتعلق بالطبيعة، اما ان يكون حزيناً أو خائفاً، لأن الموجود المادي اما انه زال وذهابه محزن لدى المحبين، او انه سيزول، واحتمال زواله يثير الخوف لديهم. اما الانسان المتعلق بمبدأ منزه عن الزوال والتغيير لا يحزن ولا يخاف، وهو محب لمحبوب لا يزول، والذي لم يمت ولا يموت هو الله، واذا تعلق الانسان بمحبوب أزلي، فانه لا يحزن ولا يخاف **﴿ووصينا الانسان بوالديه احساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾**[1] رغم أن احترام الأب والأم لازم، لكن القرآن يبين بشكل مستقل تكريم مقام الأم واحترام مقامها الشامخ. وفي نفس الوقت الذي يدعو الى احترام الأب والأم فانه يشرح مشاكل الأم ويذكر ان الأم قد أنهت فترة الحمل بكُره ـ بالضم ـ وصعوبة. وكَره ـ بالفتح ـ هي أن يقوم الانسان بعمل بكراهة، لكن الأم قامت بهذا العمل بارادة ورغبة، لكنه كان عملاً كُرها ـ بالضم ـ أي صعباً وشاقاً، الحمل صعب ووضعه صعب كذلك **﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾**، حيث قيل ان الحد الأدنى للحمل هو ستة أشهر والحد الأقصى للرضاعة عامين **﴿حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾**[2]، يقول هكذا: **﴿قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾** أي نعمة التوحيد والايمان والكون في الصراط المستقيم التي أعطيتها لي ولوالدي لكي يربياني على الاسلام وفي احضانه **﴿وان أعمل صالحاً ترضاه﴾**، لأن الله لا يرضى الا الحسن والخالص **﴿الا لله الدين الخالص﴾**[3]. فالله انما يرضى العمل الذي يكون خالصاً في سبيله،

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (١٥).

(٢) سورة الاحقاف، الآية (١٥).

(٣) سورة الزمر، الآية (٣).

لأن الموجود الصرف انما يرضى بالعمل الصرف، والمبدأ الخالص انما يرضى بالعمل الخالص. ولما كان الله وجودا صرفا، فهو لا يرضى الا بالعمل الصالح الصرف، ولما كان الله حقاً محضا، فهو لا يقبل بالحق الممزوج بالباطل ﴿وان أعمل صالحاً ترضاه﴾، اللهم وفقني في أن يكون أبنائي مسلمين، وفي نهج توحيدك ومطيعين لرسولك، ومعتقدين بالمعاد والرجوع اليك، وكما كرمت والدي بنعمة التوحيد والعقيدة واعطيتني كذلك نعمة التوحيد والاعتقاد بالمعارف، فهب هذه النعمة لأبنائي أيضاً، حتى يكونوا موحدين ومسلمين كذلك، ان الانسان مكلف ان يفكر بالجيل القادم، ان يكون مطيعاً لوالديه ويدعو لهما، ويكون مسؤولاً جيداً تجاه ابنائه ويدعو لهم، والانسان مكلف في ثقافة الوحي بطاعة الوالدين في الاطار الذي لا يتجاوز الحدود الالهية، وان يكون قيّما على الأبناء، وان يدعو الله بجعل الأبناء مسلمين مؤمنين مطيعين موحدين ﴿وأصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين﴾[1]، والآن لنرى ماذا يفعل الله أرحم الراحمين لهؤلاء؟ قال: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾[2].

نرجو الله تعالى بحق انبيائه وأوليائه أن يوفقنا لنكون من الذين تشملهم هذه الآية: ﴿رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وان أعمل صالحاً ترضاه﴾.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (١٥).

(٢) سورة الاحقاف، الآية (١٦).

الـــدرس الخامـــس

موقف الناس تجاه ما يحمله الوحي في القرآن الكريم

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

بما أن القرآن الكريم هو كلام الله، والله نور السموات والأرض، فقد أفهمنا هذا القرآن نور السموات والأرض، كما سيكون بنفسه نوراً أيضاً، فقد ذكر الله القرآن بوصفه نوراً، واذا كان هذا القرآن نوراً قد نزل على القلب المطهر للرسول الأكرم ﷺ، ﴿**نزل به الروح الأمين * على قلبك**﴾[1]، اذن يكون القلب المطهر لرسول الله ﷺ نورانياً، وكل انسان يكون نورانياً بمقدار أنسه بالقرآن ﴿**وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**﴾[2] و﴿**يسعى نورهم بين أيديهم**﴾[3]، وبما أن النور ليس فيه أي ظلام، كذلك القرآن الذي هو نور لا يوجد فيه أي إبهام وتعقيد، واذا كانت هناك مسألة من مسائله

---

(١) سورة الشعراء، الآيتين (١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) سورة الحديد، الآية (١٢).

(٣) سورة الأنعام، الآية (١٢٢).

مبهمة فذلك نتيجة ابهام وتعقيد في رؤية الانسان، وليس في متن القرآن، لأنه لا سبيل للابهام في النور، لذا قال: ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾[1] ، وكما تقدم بحثه، فان لهذا النور شُعَب ومنافذ ومسارات، وهذه المجاري عدا عن أنها كلها نور، فهناك انسجام خاص بين بعض أجزائها. ان سور القرآن التي كلها منافذ وشُعَب ومجاري لهذا النور، لكل منها مضمون خاص، والسور التي تبين مضموناً خاصاً جاء في أوائلها رمز وكلمة واسم خاص من أسماء الله الحسنى، مثل ﴿**حم**﴾ في بداية سبع سور من سور القرآن الكريم، والمعروفة بالحواميم السبع هذا الحرف المقطّع هو رمز واشارة وصفة لمحتوى لمضمون تلك السور. ونظراً الى أن هذه السور السبعة تبين مضموناً مشتركاً بتعابير مناسبة ومتنوعة، فقد ذكر في بداية كل واحدة منها كلمة ﴿**حم**﴾. ان الجزء المهم لمحتوى هذه السور السبع هو بيان كلي لخطوط الوحي، وهي التوحيد والنبوة والمعاد، وقد أشير الى ذلك الى حد ما في مباحث آنفة.

وحين يبين تعالى أهمية الوحي والتوحيد في سورة الاحقاف وهي احدى الحواميم السبع، يذكر ان الانسان غير الموحد يجب عليه ان يقيم دليلاً على صحة رؤيته غير التوحيدية ليكون ذلك الدليل مصححاً لعمله، والدليل في الرؤية الكونية اما عقلي او نقلي. والدليل يجب أن يكون قطعياً ومفيداً لليقين.

والدليل المفيد لليقين هو الذي ينظم بصورة برهان عقلي او يكون له استناد الى برهان عقلي لأن البرهان العقلي هو الذي يفيد اليقين ويتشكل من بديهيات صرفة. واذا تبلورت المبادىء الأولية بصورة برهان وكانت

---

(١) سورة النساء، الآية (٨٢).

المقدمات مفيدة لليقين فالنتيجة تكون يقينية. والانسان المفكر اما أن يستند الى دليل عقلي او الى دليل نقلي يستند الى عقل قطعي، لذا قال في سورة الاحقاف لغير الموحدين: ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم﴾[1]، وقد مر البحث بشأن الدليل العقلي والنقلي المعتبر، هذه السورة عندما تشرح مسألة التوحيد والنبوة والمعاد، تذكر ان الناس على قسمين في مقابل ما جاء به الأنبياء، مجموعة تعبد الهوى وتدور حول فلكه، فتفضل المتع ولذات الحياة المادية ولا تتحمل مصاعب عالم الطبيعة. (ان الجنة حفت بالمكاره وان النار حفت بالشهوات)[2]، هذه اللذات المؤقتة تستقطبهم حتى تدفعهم الى داخل جهنم، اما ما يحيط بالجنة فهي المصاعب، وهؤلاء لا يتحملون المصاعب المحيطة بالجنة حتى يصلوا الى داخلها، حيث اليسر. فاذا كانت هناك صعوبات في عالم الطبيعة، فانه توجد راحة تترتب على هذه المصاعب، بل وقبل تلك المصاعب ﴿فان مع العسر يسرا * ان مع العسر يسرا﴾[3]، فاذا كان العسر واحداً فان اليسر يكون ضعفه، وهذان البيانان رواهما أمير المؤمنين عليه السلام في نهج عن الرسول الأكرم ﷺ، قال (ان الجنة حفت بالمكاره وان النار حفت بالشهوات). النار في الوسط، وتحيط بها اللذات، والجنة في الوسط وتحيط بها المكاره، ومن أجل ان ينال الانسان الجنة، عليه ان يتحمل هذه المصاعب، وعليه ان لا ينخدع باللذات المؤقتة، فنتيجة هذا الانخداع باللذات هي النار التي تقع في وسطها فجهنم في وسط اللذة، كما ان الجنة في وسط المشقة. ان غلاف مشقة وصعوبة طاعة الله مرّ، ولبّه حلو، ثم ذكر

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (٤).

(٢) نهج البلاغة للفيض، الخطبة ١٧٥.

(٣) سورة الشرح، الآيتين (٥ و٦).

رسول الله ﷺ انه اذا كانت هناك صعوبة في حالة ما فانه يتبعها ضعفين من اليسر ويخرجانها من هناك فاذا كان العسر واحداً فاليسر اثنان، لأن نظام الكون نظام يدار على أساس ﴿فان مع العسر يسرا * ان مع العسر يسرا﴾، ثم أوضح ان هناك من يتحمل هذه المشاكل، ويحمّلون هذه المصاعب المؤقتة على أنفسهم حتى يصلوا الى داخلها الهادىء. وقد تقدم البحث في الأشخاص الذين يكونون هكذا، وقد طرحت في سورة الاحقاف هذه الآيات: ﴿ووصّينا الانسان بوالديه احسانا﴾[1] لأن الانسان مكلف بتكريم والديه وتقديرهما، فحتى لو كان لديهما انحراف فكري وعقائدي معاذ الله، فان من اللازم التعامل معهما باحسان في المسائل الدنيوية والأمور المادية قال: ﴿وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾[2] هذا المضمون موجود في عدة مواضع من القرآن ولكن هذا الجزء في قسم واحد. قال: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾[3] أي كن حسن السلوك معهما في الدنيا وفي أمور الدنيا وان كان لديهما انحراف فكري، ولكنه في هذا الجزء يذكر الانسان الملتزم الذي تربى في أحضان والدين مؤمنين ويكون ولي أولا د مسلماً وملتزماً، ويقول: ﴿ووصينا الانسان بوالديه احساناً﴾، ثم يشرح مقام الأم حيث تتمتع بحرمة خاصة ﴿حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾ وقد مر بحثها بشكل مفصل ﴿قال رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾[4]. لقد أنعمت علي بنعمة التوحيد والاعتقاد

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (١٥).

(٢) سورة لقمان، الآية (١٥).

(٣) سورة لقمان، الآية (١٥).

(٤) سورة الاحقاف، الآية (١٥).

الصحيح، وأنعمت على والدي بنعمة معرفة المعارف الدينية **﴿وان أعمل صالحاً ترضاه﴾** لأن الله لا يقبل سوى العمل الخالص فاذا كان في العمل جزء لله وجزء لغير الله، فان الله لا يقبل الجزء الذي لغير الله **﴿فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله﴾**[1]، لأنه لا يقبل العمل غير الخالص **﴿واصلح لي في ذريتي﴾**، هذا الانسان الملتزم يسأل الله ان يعطيه أبناء صالحين.

وقد قال الله: **﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾**[2]، ان الانسان المسؤول يقوم بتربية أبنائه كما يطلب من الله أن يهديهم الى سير الاسلام **﴿واصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين﴾**[3] وقد مر بحث ذلك. وقد وصلنا في البحث السابق الى هذه الآية: **﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم﴾**[4]، فهذا الانسان الملتزم الذي هو من أهل الدعاء، يفكر بوالديه ويفكر بأبنائه، والخلاصة انه يفكر بالمجتمع الاسلامي، يرعاه الله ويصرفه عن الانحرافات ويتقبل أعماله الحسنة بأحسن وجه ويجازيه. والتقبل أظرف من القبول، فالتقبل هو قبول كامل، قال: **﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾**، هذا العمل ينسبه الى نفسه والى مدبرات الأمر والمأمورين الالهيين وملائكة الرحمة، ويذكر أنهم كلهم يتقبلون عمله بأحسن وجه **﴿ونتجاوز عن سيئاتهم﴾**. ان الله يتجاوز عن سيئات الانسان الى درجة ان الانسان ينسى أساساً انه ارتكب مخالفة لئلا يكون خجلاً، وهذا العمل خاص بالله، خاص بمقلب القلوب. لو ان شخصاً أحسن الينا، ولكننا قابلنا احسانه بسلوك سيّء واهانة موجهة له، الا انه

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٣٦).
(٢) سورة التحريم، الآية (٦).
(٣) سورة الاحقاف، الآية (١٥).
(٤) سورة الاحقاف، الآية (١٦).

تجاوز عنا ولم يقل لنا شيئاً ولم ينتقم منا، فاننا نخجل كلما جلسنا عند مائدة محبته، لأننا جفيناه، فهو عاملنا بمحبة ونحن أسأنا وعفا عنا، ومن الواضح اننا سوف نخجل وننفعل كلما واجهناه، فلا نحن نقدر على منع هذا الانفعال، وهو عذاب باطني، ولا هو يقدر على منع انفعالنا وخجلنا الباطني. وبناء على هذا فان بعض الآثار الظريفة للذنب هي انه يؤلم المذنب دائماً، اما اذا أسأنا تجاه أمر الله، وظلمنا وعصينا ثم تبنا وشملتنا رأفة الله، فان الله يتجاوز عن سيئاتنا ويشملنا برأفته ولطفه ويعمل على انسائنا اننا ارتكبنا مخالفة ففي الجنة ليس ثمة محل للألم والانفعال، ولطف الله مطلق وشامل. والله يُنسي الانسان المذنب انه كان من أهل الذنب وانه كان لديه فساد حتى لا يكون خجلاً **﴿نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم﴾**، ولطف الله سبب للتجاوز المطلق، بل الصفح المطلق، وهو أسمى من العفو، لأنه قلب الصفحة، وتغيير صفحة الذكريات، وليس مجرد العفو والتجاوز، بل تغيير مشهد الحادثة ومحوه. وعلى هذا لا يتذكر الانسان المذنب أبداً انه ارتكب ذنباً في الدنيا. **﴿في أصحاب الجنة﴾**، وهذا وعد صدق حيث كانوا يوعدون سابقاً بهذا الوعد. **﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾**[1]، وفي هذه السورة توصف طائفتان:

الأولى: الطائفة التي تخضع وتطيع ما جاء به الأنبياء، حيث حدّد عملهم وسلوكهم وخاتمة أمرهم.

والطائفة الثانية: هم الأشخاص الطغاة والعاصون الذين يقاومون ما جاء به الأنبياء ويخضعون لأهوائهم، حيث يجب ان يحدد برنامجهم ودوافعهم ونتائج عملهم وعقابهم، والقرآن يطرح هذا الجزء بهذا الشكل.

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (١٦).

﴿**والذي قال لوالديه أف لكما اتعدانني ان أخرج**﴾[١] ، شاب ساذج سيّىء التفكير، لا يسمع نصائح والديه المفيدة، يقول لهما انكما توعداني بالقيامة وتقولان ان هناك عالماً بعد هذا العالم وان الحياة بعد الموت، هي حق، وان الانسان الميت يحيا مرة ثانية أفّ لتفكيركما، لو كان الموتى يحيون لكان السابقون الذين ماتوا قد أحيوا في حين انه لم يخرج أحد من المقبرة ولم يظهر أحد من تحت التراب، فالميت لا يحيا هذا الشاب الساذج يقول لأبويه أف لكما. وكلمة أف، هي زجر واهانة. ﴿**أف لكما اتعدانني ان أخرج وقد خلت القرون من قبلي**﴾، مرت قرون ولم يأتِ أحد من المقابر، وقد قطعت البشرية مراحل ولم تشهد احياء ميت ﴿**وقد خلت القرون من قبلي**﴾. كان هذا كلاماً ساذجاً لانسان مفسد. الا أن أبويه المسلمين والملتزمين، كانا يستغيثان هكذا ﴿**وهما يستغيثان الله ويلك آمن**﴾[٢] ، ان وعد الله حق وليس للبطلان سبيل الى وعد الله، فالكون كالشجرة التي يقطف صاحب البستان ثمارها للاستهلاك، وليس كالغابة التي لا صاحب لها، والتي اذا أثمرت أشجارها سقطت ويبست ﴿**والله أنبتكم من الأرض نباتاً**﴾[٣] ، ان الانسان حين ينتهي عمره، يكون كالثمرة الحلوة والناضجة، يقطفها بستاني عالم الخلق، يقطفها المأمورون عن الالهيون وتنتقل الى موطن آخر، ولا تفنى بالموت، يقولان: ﴿**ويلك آمن أن وعد الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الأولين**﴾[٤] ، هكذا يفكر هذا الشاب الساذج الفاسد الفكر وأمثاله، ولكن نتيجة فسادهم هو أنهم ﴿**أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من**

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (١٧).
(٢) سورة الاحقاف، الآية (١٧).
(٣) سورة نوح، الآية (١٧).
(٤) سورة الاحقاف، الآية (١٧).

قبلهم من الجن والانس﴾[1] .

قال تعالى في القرآن الكريم: **﴿انا من المجرمين منتقمون﴾**[2] ، وقد أشرنا في مباحث آنفة الى كيفية انتقام الله وذكرنا أنه هناك أربع كيفيات للانتقام، نشير اليها باختصار للتذكير لأنه سبق أن بحثناها بشكل مفصل.

الانتقام على أربعة أقسام:

الأول: هو الانتقام الذي يأخذه المظلوم من الظالم للتشفي.

الثاني: هو الانتقام الذي يقوم به قاضي المحكمة من المجرم والمتهم، لغرض اقامة النظم.

الثالث: هو الانتقام الذي يقوم به الطبيب من المريض غير الملتزم بالحمية.

والرابع: هو الانتقام الذي يقوم الولي العطوف من الطفل المشاكس، والمولّى عليه المتمرد.

القسم الأول: وهو الانتقام لغرض التشفي غير موجود عند الله.

والقسم الثاني: وهو الانتقام من أجل اقامة النظم موجود في الدنيا بوصفه حدوداً إلهية، اما في الآخرة فلا وجود لهذا الانتقام لأنه ليس ثمة تعدي وذنب في ذلك العالم ولذا لا توجد عقوبة اعتبارية.

والقسم الثالث: هو انتقام الطبيب من المريض غير المحتمي فاذا قال الطبيب للمريض ان هذا الطعام مضر لك ويجب تجنبه، لكن المريض عصى

---

(١) سورة الاحقاف ، الآية (١٨).

(٢) سورة السجدة، الآية (٢٢).

ومزق ورقة الطبيب، فان مخالفة ارشادات الطبيب تؤدي الى زيادة مرضه ونتيجة هذا العصيان التألم والموت البطيء، وهذا انتقام تكويني للطبيب من المريض غير المحتمي والانتقام الرابع أدق من ذلك وهو انتقام الولي الواعي من المولى عليه الغافل، فعندما يقول الانسان لطفل متمرد لا تلمس سلك الكهرباء هذا فانه خطر، او لا تلمس هذه النار فتحترق، ثم يعصى الطفل ارشادات الولي الرؤوف، فان مخالفته لارشاده تؤدي الى احتراق يده وموته، وهذا الانتقام، انتقام فوري، لا يشعر به الشخص اذا كان مأخوذاً وفاقداً للوعي، واذا كان واعياً فانه يشاهد هذا الانتقام من المجرمين أهل القلوب السوداء، والقرآن الكريم يعتبر بعض الانتقام الالهي من هذا النوع الأخير، فالذين يأكلون مال اليتيم، يأكلون في بطونهم ناراً، **﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾**[1] ، انهم يأكلون الآن ناراً لكنهم لا يرون ولا يعلمون ولا يشعرون، لأنهم حُذروا بالمحبة كاذبة وحين ترتفع ستائر الطبيعة المخدّرة ويستعيد الانسان المخدر وعيه، ويستيقظ الانسان النائم، عند ذلك يرى ألسنة النار من باطنه ويرتفع صراخه. لقد بدأ العذاب من الآن، لكنه يعلم ويحسّ في القيامة، وهناك يبدأ الصياح، وهناك طبعاً جملة من أنواع التعذيب والنيران، قال: **﴿وسيصلون سعيرا﴾**. كتب أمير المؤمنين عليه السلام في رسالة الى أحد ولاته «مثل الحياة الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها»[2] ، وطبعاً اذا كان الانسان المسموم فاقداً للوعي فانه لا يشعر أن السم المهلك قد أثّر فيه، وكلام الامام علي عليه السلام، هذا يناسب القسم الرابع من أقسام الانتقام،

---

(١) سورة النساء، الآية (١٠).

(٢) نهج البلاغة للفيض، الرسالة ٦٨.

والغرض هو أن مبدأ هذا الانتقام يتبين في يوم القيامة. وبعد ان طرح القرآن هاتين الطائفتين وشرح سلوكهما وذكر خاتمة أمرهما وتكلم عنهما بشكل كلي وجامع، قال: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾[1]، لاحداهما درجات فضيلة، وللأخرى دركات رذيلة، احداهما تصعد ولها درجات ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات﴾[2]، والأخرى تسقط الى الأسفل ﴿ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾[3]، فهناك دركات للنزول، ودرجات للصعود، ﴿ولكل درجات﴾ منشأها ﴿مما عملوا﴾ هل لدى الانسان درجة؟ هل لدى الانسان دركات؟ هل الدرجة والدركات مستقلة عن الانسان أم ان الانسان سوف يكون نفسه عين الدرجة وعين الدركة؟ قال في أول الآية: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾، احداهما درجات عالية والأخرى دركات سافلة ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾، من أجل أن يوفي الله أعمالهم، فانه يعطيهم درجات تفي بعملهم، لا ان يعطيهم شيئاً غير باطن العمل، فمن أجل الوفاء بذات العمل، ومن أجل ان يعطى العامل ذات العمل، فانه تعطى اليهم حقيقة عملهم، فاعطاء الدرجات هي مقدمة للصيرورة درجة واعطاء الدركات مقدمة للصيرورة دركة، والتعذيب مقدمة للصيرورة عذاب، والحرق مقدمة للصيرورة حطباً والاشتعال مقدمة للصيرورة حجارة نار، فالانسان يأخذ شعلة في البداية، ثم يشتعل أي انه يسخن أولاً ثم يحترق ويلتهب ثم يصبح ناراً، يتألم أولاً ويتأثر ﴿يصلى النار الكبرى﴾[4] ثم يصير ﴿وتصلية جحيم﴾

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (١٩).
(٢) سورة المجادلة، الآية (١١).
(٣) سورة النساء، الآية (١٤٥).
(٤) سورة الأعلى، الآية (١٢).

فللاحتراق الخارجي يقال يصلى وللداخلي تصلية ثم يصير ﴿**نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة**﴾[1] يصير ناراً متجسدة، والقرآن الكريم يسمي الظالمين والقاسطين وأهل القسط والظلم حطب جهنم ﴿**وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً**﴾[2]، وأحياناً يقول مخاطباً الوثنيين: ﴿**انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم**﴾[3]، فالعابد والمعبود كلاهما في النار ومعبودكم في الحقيقة هو هواكم، والشيطان الداخلي والخارجي قد خدعكم، وإلا فان هذه الأوثان تقول يوم القيامة انها مشمئزة من عمل الوثنيين وانها ما كان يجب ان تكون أوثاناً معبودة ﴿**كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾[4] وفي القرآن الكريم كثير من هذه الآيات التي تذكر أن الأوثان تشمئز من عباد الأوثان وتكون عدواً لهم. فمعبودنا في الحقيقة هو أهواؤنا وشيطاننا الداخلي والخارجي. ﴿**انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم**﴾، البعض وقود ﴿**هم وقود النار**﴾[5] كأمثال آل فرعون، فاذا صار الانسان فرعوناً فانه لا يحرق نفسه فحسب، بل يحرق الآخرين أيضاً، فهو وقود النار والانسان الضال العادي هو حصب جهنم، والفاسد المتعارف هو حطب جهنم، هذا الحطب يسخن أولاً ثم يشتعل كله، وذلك الحجر يسخن في البداية ثم ينصهر وذلك الحجر الكبير يسخن أولاً ثم يصبح جميعه شعلة وهكذا الانسان يعطى له أولاً دركة الى أن يصبح دركة، مثلما يعطى الانسان الصالح درجة في البداية ثم يصبح درجة، يعطى أولاً روح وريحان ثم يصبح

---

(١) سورة الهمزة، الآيتين (٦ و٧).

(٢) سورة الجن، الآية (١٥).

(٣) سورة الأنبياء، الآية (٩٨).

(٤) سورة الاحقاف، الآية (٦).

(٥) سورة آل عمران، الآية (١٠).

نفسه روح وريحان ﴿فأما ان كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم﴾[1] ، أي يصبح نفسه جنة، روحاً، ريحاناً، قال في سورة آل عمران ﴿هم درجات﴾[2] أي أن نفس الانسان يصير درجة. وفي بعض الآيات ﴿لهم درجات﴾[3] ، واذا كانت هناك عبارة ﴿لهم درجات﴾ في موضع وفي موضع آخر عبارة ﴿هم درجات﴾، فذلك لا يعني ان حرف اللام محذوف في سورة آل عمران، كلا، بل التفاوت بين هذه الآيات ناجم عن ان معانيها في طول بعضها وليست في عرض بعضها، فكما ان علومنا وأعمالنا هي حال في البداية ثم تصبح ملكه، كذلك ألمنا وكنزنا، هما حال في البداية ثم يصيران ملكه، وهكذا عقاب وثواب الانسان أيضاً حيث يكون في الابتداء يكون دركة ثم يصير الانسان نفسه دركة، في البداية يكون درجة ثم يصبح الانسان نفسه درجة، اذ لا يعطى الانسان درجة الى الأبد، ولا يحكم على الانسان بدركة الى الأبد. فالأمر كذلك في عقلنا النظري، وهو كذلك في عقلنا العملي أيضاً وثوابنا كذلك وهكذا هو في مسائلنا العلمية، ان العلم والفكر اذا كان في حدود علم حصولي وفي حدود وجود ذهني وفي حدود حال فانه لا يكون ملكه ولا يتحد مع النفس فاذا أصبح ملكه استقر في القلب ورسخ في النفس وأصبح الانسان راسخاً في العلم.

وفي مقام العقل العملي الذي هو ادارة البدن والعمل والسعي اذا كانت الفضائل النفسانية في حدود الحسن الظاهر واذا كان العمل الصالح في حدود حالة وليس ملكة راسخة فان الانسان لا يكون عين ذلك العمل، اما اذا أحب الانسان الفضيلة ورسخ العدل في نفسه وحكم العقل العملي في نفسه،

(١) سورة الواقعة، الآيتين (٨٨ و٩٨).
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٦٣).
(٣) سورة الأنفال، الآية (٤).

يصبح الانسان هو العمل الصالح. وكذلك في العقل النظري اتحاد العالم مع العلم حتى لا اتحاد العالم مع المعلوم الذي هو مفهوم ذهني وماهية حصولية. ما قالوه من اتحاد العالم والمعلوم كلاهما معلوم بالذات حيث تكون الذات هي نفس العلم، وليس تلك الصورة التي هي مفهوم او ماهية ان العالم يتحد مع العلم في الحقيقة وليس مع المعلوم الذي يكون مفهوماً وماهية. العامل يتحد مع العمل أيضاً، وروح العمل هي النية والارادة الانسان يتحد في العقل العملي مع النية التي هي روح العمل، وفي العقل النظري مع العلم الذي هو روح المعلوم وكلما ارتقى اكثر اقتربت صلة العلم والعمل اكثر، بحيث يصبح العلم نفس العمل والعمل نفس العلم، وفي مرحلة أعلى يصير العلم عين القدرة والقدرة عين العلم حيث ان المرحلة العليا للعقل العملي هي الشهود، والشهود هو مرحلة فوق العقل العملي أي يصل عن طريق التخلية والتجلية والتحلية التي هي مراحل العقل العملي الى الشهود الذي هو بنفسه علم وعقل نظري، وهنا يقول الأستاذ العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه ان ﴿**ولكل درجات مما عملوا**﴾ هو أرضية لـ ﴿**وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون**﴾ حيث تتحد الدرجة مع صاحب الدرجة. كما ان الدركة تتحد مع صاحب الدركة. الانسان هو نفسه عذاب نفسه، فهو اما نفسه روح وريحان في البستان الأبدي، أو يكون نفسه عذاباً في جهنم الحارقة ﴿**وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون * ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها**﴾[1]، في القرآن يذكر عرضان فهو يقول تارة: ﴿**ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا**

---

(١) سورة الاحقاف، الآيتين (١٩ و٢٠).

بالحق﴾[1]، ويسألون بصفة سؤال توبيخي واستفهام تقريري ﴿أليس هذا بالحق﴾، ويقول أيضاً ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ ويقال لهم: ﴿اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾، وفي البرزخ أيضاً يعرضون على النار لأجل التخويف ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾[2]، وتارة يقول: ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾[3].

نرجو الله تعالى ببركة القرآن الكريم أن يختم أمور الجميع بالخير، غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية(٣٤).

(٢) سورة غافر، الآية (٤٦).

(٣) سورة الكهف، الآية (١٠٠).

الدرس السادس

مبدأ الوحي ومضامينه

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

رغم ان القرآن الكريم، كله وحدة واحدة وحقيقة واحدة، لأنه نور والنور لا ينفذ اليه أي تشتت، الا ان الله تعالى نظم وأنزل مضامين القرآن الكريم الرفيعة على شكل فصول متنوعة، ولكل سورة مضمون خاص كما تشترك عدة سور في معنى جامع واحد، وهذا التنظيم ليس من أجل انه لا يوجد جامع حقيقي بين سور القرآن، بل من أجل ادراك أفضل ومعرفة أكثر لمعانيه.

وقد طرحت في البحوث الآنفة السور المعروفة بالحواميم التي تبدأ بكلمة ﴿حم﴾ وذكرنا ان هذه الحروف المقطعة هي رمز الى مضمون تلك السور، ولما كان لهذه السور السبع مضمون مشترك ومحتوى جامع فان الحروف المقطعة المذكورة في بداية هذه السور، واحدة، تبدأ هذه السور بـ

﴿حم﴾ وفي بعضها اضافة ايضاً تشير الى خصيصة زائدة في تلك السورة، ان المحتوى الجامع والمشترك لهذه السور السبع هو شرح أصول الدين، اي التوحيد والنبوة والمعاد على ضوء تبيين أصل الوحي، اي أن الجزء المهم لمضامين هذه السورة هو في تبيين الوحي وأهمية الوحي ومبدأ الوحي ومضمون الوحي، لذا تبدأ هذه السور السبع بـ﴿**تنزيل الكتاب**﴾، ﴿**حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم**﴾ أو ﴿**من الله العزيز العليم**﴾ أو تعابير أخرى ذكرت بشكل مفصل سابقاً.

وسورة الجاثية هي احدى هذه الحواميم السبع وقد عرفت باسم الجاثية لأنه ذكرت فيها كلمة جاثية ﴿**وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى الى كتابها**﴾[1] فجميع أهل المحشر في حالة جثو من اثر السرعة والضغط يوم القيامة، أي ليست هناك حالة استقرار لهم، الا فئة خاصة مصانة من الحزن يوم القيامة ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر**﴾[2]. والخلاصة اشتهرت هذه السورة بالجاثية لمجيء كلمة جاثية فيها.

وتبين هذه السورة، التوحيد عن طريق الآيات الآفاقية وعن طريق الآيات الأنفسية، كذلك وتدفع الانسان الى التفكير في العالم الخارجي والتفكير في داخله، ليكون موحداً وتحثه الى ان يكون موحداً كاملاً من خلال التدبر في الخارج والتأمل في الداخل، فاذا فكر في العالم الخارجي وأدرك التوحيد من الآيات الآفاقية حصل على مقدار من السعادة، واذا فكر في العالم الداخلي وأدرك التوحيد، بالسير في الآيات الأنفسية، حصل على مقدار أكثر من السعادة واقترب أكثر الى الغاية، واذا وصل الغاية، بالتفكير

---

(١) سورة الجاثية، الآية (٢٨).
(٢) سورة الأنبياء، الآية (١٠٣).

والسير في حقيقة الوجود، وتوصل الى ضرورة الأزل من حقيقة الوجود، وبعبارة أخرى، اذا أدرك الوجود الصرف، من حقيقة الوجود فانه يكون قد قطع طريقاً أكمل ونال فوائد أوفر. ان الذي عرف الله من الله، وعرف الله بالله، والذي عرف الله، عن طريق التفكير في حقيقة الوجود، لا يطلب عند ذلك من الله شيئاً. اما الذي يترك حقيقة الوجود وأصل الخلق، ويطلب فرعه وظله، فهو يظن التكامل يتخيل انه يضيف شيئاً الى سعادته، بينما هو يفقد تلك السعادة الأصيلة، قال تعالى في بداية هذه السورة: **﴿ان في السموات والأرض لآيات للمؤمنين﴾**[1]، اذا كان الشخص مؤمناً ومعتقداً وغير تابع للهوى، فان سيراً قصيراً في خلق الكون، يهديه الى التوحيد. **﴿ان في السموات﴾** أي أن التدبر في خلق السماوات والأرض يوضح للمؤمنين آيات التوحيد، لا يحتاج الى نظر عميق جداً، ولا تلزمه بحوث فلسفية معقدة، وهذا الأمر فطري وبسيط وميسور لجميع الناس، لذا قال: **﴿لآيات للمؤمنين﴾**، ليس طريقاً صعباً واستدلاله غير معقد، وبرهانه غير ثقيل، فمجرد ان لا يكون الانسان متأثراً بالهوى وهاوياً فانه يتوصل الى وحدانية الله بالسير في خلق السماوات والأرض. **﴿وفي خلقكم﴾**[2]، أي التدبر في خلقكم، وهذا الفصل للانسان عن الكون يدل على أن الانسان أيضاً آية، في توحيد الله، والتدبر فيه كآيات أنفسية طريق أهل المعرفة وكذلك الكون هو آية وحدة الله، والسر في فصل الانسان عن الكون هو أهمية خلق الانسان وخاصية الآيات الأنفسية.

ان الانسان بالتأمل في ذاته وصفته وفعله، يرى نفسه محتاجاً ولا يقدر

---

(١) سورة الجاثية، الآية (٣).

(٢) سورة الجاثية، الآية (٤).

على الاعتماد على نفسه فهو غير مستقل، وفيه علل وعوامل تثير حاجات فيه، وكذلك هناك علل وعوامل تشبع حاجاته بشكل مؤقت وهذه المسألة موجودة دائماً بين تيارين من العلل والعوامل الخارجية، فثمة مجموعة من العلل والعوامل توجد فيه بعض الحاجات، وهناك جملة علل وعوامل تشبع حاجاته، وهو خاضع العلل والعوامل الخارجية التي توجد فيه الحاجة ـ فتثير فيه الجوع والعطش والتعب، وتجعله محتاجاً الى الأكل والشرب والاستراحة، وثمة علل وعوامل خارجية أخرى تشبع هذه الحاجات، كالطعام واللباس وأمثالها. ان الانسان لا يمكن ان يكون غير محتاج فهو لا يمكنه ان يضمن أصل وجوده بنفسه كما لا يقدر ان يؤمن بقاء ذلك ولا يستطيع اشباع حاجاته بنفسه، بل هو قهور للعلل والعوامل الخارجية من كل الجهات، وتلك بدورها محكومة بعلة أخرى أيضاً، فكل واحدة من هذه العلل والعوامل الخارجية تدار بنظم ونفوذ عامل آخر.

ولو ان الانسان فكر بنفسه وأحس بحاجته، لرأى أن حاجته تشبع بواسطة موجود غير محتاج وانه يعتمد على معتمد لا يحتاج الى موجود آخر، واذا تصور أنه محتاج الى غير الله فقد أصيب بخيال كاذب يقول الامام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجادية: «رأيت ان طلب المحتاج الى المحتاج سفه من رأيه وضلة من عقله»[1]، لأن الموحد هو ذلك الذي يكون عاقلاً، ويطلب حاجته من الغني بالذات لا من المحتاج، واذا فكر الانسان في خلقه، فان من المؤكد أن يصل الى توحيد الله، ﴿**وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون**﴾[2] وبما أن معرفة النفس بالسير في الآيات

---

(١) الصحيفة السجادية، دعاء ٢٨.

(٢) سورة الجاثية، الآية (٤).

الأنفسية ومعرفة الروح المجردة ومعرفة الارادات والأفكار التي تحصل ثم تفسخ والقرارات التي تتخذ ثم تخرق ليست بالأمر السهل لذا فقد نسب الله ذلك الى أهل اليقين وقال: ﴿لقوم يوقنون﴾ لأن هذا طريقه شاق، ونتيجته مثمرة في الآية الأولى ذكر ان التفكر في خلق السماوات والأرض يفيد الناس المؤمنين وفي الآية الثانية، ذكر ان التفكر في النفس وفي الآيات الأنفسية يفيد أهل اليقين، وميزة هذين الطريقين حسب تعبير علماء أهل الحكمة هو أن الطريق في السير الأنفسي يكون عين السائر، والطريق في السير الآفاقي يكون غير السائر، ان الانسان الذي يفكر في نفسه ويتحرك في ذاته، يكون طريقاً وسائراً أيضاً ويرى ان معينه ومحبوبه معه، فلطف الله مع الانسان كما انه طريق الانسان الذي هو من أهل اليقين وأهل السير الأنفسي أيضاً، ولهذا السير مسير ومسافة وصاحب، والانسان في هذا السير يصاحبه لطف الله وهو في جوار الله، واذا سار الانسان في نفسه فمن المؤكد انه سيكون معه أحد يرشده لأن الحركة لا تكون من دون تحريك، اذن معه مرافق وطريق، والصاحب والمرافق الذي يهديه هو لطف الله، والعامل المباشر لارشاده هو الامداد الغيبي الذي يرافقه في هذا الطريق، وذلك هو لطف الله الخاص ولا يمكن معرفة هذه المعارف من دون اليقين، والسير في هذا الطريق ليس بالأمر السهل وليس من نصيب أي شخص فهناك من الأشخاص من يفكر في العالم الخارجي، ويفكر في الآيات الآفاقية لكن لا يفكر في نفسه الا قليلاً انه ما هي نفسه؟ وماذا جبل في طينته؟.

ان العالِم الذي يسعى الى حل المشاكل الخارجية وكيفية خلق السماوات والأرض، والى التوصل الى وجوب الواجب من امكان السماوات، أو الى التوصل الى المحرك الذي لا يتحرك من خلال حركة نظام

الطبيعـة، أو للتعـرف الـى المبـدأ القـديـم والأزلـي مـن حـدوث السمـاوات والأرض، معرفته ووصوله هذا نافعان ومفيدان، ولكن ليس بالشكل الذي يوصل الانسان الى مرحلة اليقين. ـ اما اذا فكر الانسان في نفسه، وقال من انا؟ ومن أين جئت؟ من الذي يؤثر فيّ؟ من الذي يديرني؟ اذا فكر في نفسه، وسار في الآيات الأنفسية بحضور وعلم ووعي في لطف الله، فان الامداد الالهي يصاحبه في السفر. انه من أهل اليقين. والشخص الذي يفكر في العالم الخارجي ويسعى ان يصبح عالماً وعارفاً، ولا يتدبر في وجوده، فان باطنه فارغ، وحسب تعبير العارف الاسلامي المشهور المولى الرومي في كتاب المثنوي، ان الذي ليس في نفسه شيء، يشبه الذي يبذل كل طاقته لفك عقدة قوية لكيس فارغ، اي أنه يجهد نفسه ويحل العقدة، ويصبح حلال عقـود ويسهـل المشكلـة، لكـن بـاطنـه فـارغ وليـس لـديـه شـيء. اما اذا سعى الانسان الى انضاج داخله أي يجعل باطنه عيناً تجري فان جهوده تثمر لذا يعبّر الله عن هذا التدبر الخاص، باليقين، فيقول: ﴿**وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون**﴾. ان الانسان المتدبر، يفهم ماذا ومن يفور ويهيج في باطنه يفهم ان الحيوانات الوحشية في الخارج هي أمثلة للأوصاف الوحشية لطبيعتـه التـي تتحـرك فـي داخلـه أي انـه يمـر علـى بستـانـه الـوحشـي البـاطنـي ويتعرف عليه كتعرفه على الحيوانات المفترسة في الخارج ثم يربّيه شيئاً فشيئاً يـربـي تلـك الأوصـاف الـوحشيـة الخلـق لتصيـر ﴿**أشداء على الكفار**﴾ يـربيهـا لتصبـح مثـل كلـب معلّـم، وبعبـارة أخـرى لا يـدعهـا تستمـر فـي طبيعـة الافتراس.

والخلاصة ان عليه ان يفكر بشأن الوحوش الداخلية، كما يفكر بشأن الوحوش الخارجية، لذا طرح في المسائل الرياضية والمسائل النجومية التي

هي أرقى مستوى من القسم الأول، لكنها لا تصل الى عمق القسم الثاني، مسألة التعقل، فقال: **﴿واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾**(١)، فالشخص الذي يفكر في النظام الرياضي والنجومي لليل والنهار والأسبوع والشهر والسنة، ويدرس النظم الموجود في الأسبوع والشهر والفصل والسنة بشكل صحيح يرى انه **﴿لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾**(٢)، فالشمس وان كانت اكبر من القمر وهي التي تعطيه النور الا انه لا يحق لها ان تخالف النظام ولا ان توجد أدنى فاصلة أو سبق.

ان نظام الكون هو نظام المحبة والانسجام فحاملوا العرش يفكرون بالآخرين، والذين لديهم أنوار معنوية يهتمون بالأفراد الضعفاء، والذين لديهم أنوار قوية يرافقون الضعيف في مستوى الطبيعة والمادة، الشمس لا تترك القمر الذي يجب ان يأخذ منها النور، ولا تنفصل عنه وتتركه خلفها ولا تفكر فيه، فالشمس لا يحق لها التقدم والسبق **﴿لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار﴾**. فنظام الوجود قد سيطر على الشمس والقمر، بحيث ان كلا منهما موظف بعمل معين **﴿وكل في فلك يسبحون﴾**، وهذا في النور الظاهري، وفي الشمس الظاهرية، وفي السماء الظاهرية، اما في النور الباطني، والشمس الباطنية والسماء الباطنية فقد قال تعالى **﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم**

---

(١) سورة الجاثية، الآية (٥).

(٢) سورة يس، الآية (٤٠).

عذاب الجحيم﴾[1] . فأولئك الملائكة المعروفون المقربون الخاصون حملة العرش الذين يصلي عليهم الامام السجاد عليه السلام صلاة خاصة لا يدعون المؤمنين والتائبين بل هم يستغفرون لهم أثناء تسبيحهم وتحميدهم لله ان العرش ليس جسماً، العرش ليس أريكة طبيعية ومادية، العرش ليس مادة بل هو مقام حكم الله، ومقر امر الله، ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[2] العرش هو العلم الفعلي، والعرش هو الحكم، والعرش هو التدبير، يقع على قمته التدبير الالهي، وقد خلق العالم به، وحاملوا مقام حكم الله الذين هم ملائكة مقربون، يسبحون ويحمدون الله، ويؤمنون بالله، ويستغفرون للمؤمنين ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾.

ليس من الصحيح أبداً ان يفكر الانسان بنفسه ويرى نفسه فقط وان ما ورد من الدعوة الى النهوض وقت السحر، والدعاء لأربعين مؤمناً على الأقل، هو من أجل أن يفكر الانسان بغيره.

واذا اهتم الشخص بالآخرين في السحر وسأل الله لهم المغفرة، فانه سيفكر أثناء النهار بالقيام بأعمالهم بالتأكيد فهو حين يسأل الله، المغفرة للغير ليلاً، فانه يطلب من الله، في النهار أيضاً حل مشاكلهم. ان الانسان الذي ينهض بالليل انما يسير في طريق الملائكة، انه لا يفكر بالرقود والارتياح انه يريد ان يكون ذو طبيعة ملائكية، وهو حين يبلغ مقام العرش يفكر بأهل الأرض، والعرش أساساً مدبر للأرض، وملائكة العرش مدبرات وتفكر بأهل الأرض، حتى تجعلها عرشية مثلها ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾، يمكن للانسان ان يحمل روحاً سامية وقلباً منفتحاً حيث ان (قلب المؤمن

---

(١) سورة غافر، الآية (٧).

(٢) سورة طه، الآية (٥).

عرش الرحمن)، واذا وصل الشخص الى ذلك المقام القلبي او الى عرش الرحمن فان من المؤكد انه سيفكر بالآخرين، ولقد كان رسول الله ﷺ يفكر بالأمة كما كان سائر الأنبياء عليهم السلام يفكرون بالأمة أيضاً، ويسألون الله ان يغفر لها. ﴿**ويستغفرون للذين آمنوا**﴾.

ان سؤال ودعاء الملائكة الحاملة للعرش هو: ﴿**ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما**﴾. الكون عين رحمتك وعين علمك الفعلي. ﴿**فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم**﴾.

وهذه هي خاصية نظام الخلق، فكل موجود أعلى يهتم بالموجود الأسفل، وذلك لا بمعنى ان الهدف الأساسي للموجود الأفضل، هو الافاضة على ما دونه، بل ان الاهتمام بحاجات «المادون» وسيلة لرقي «المافوق»، والهدف الأصيل للموجود الأرقى، هو نيل مقام أكثر شموخاً. وفي نظام الطبيعة أيضاً، كل من يتمتع بنور ظاهري، مكلف باضاءة مناطق واسعة ولا يتقدم ويترك الآخرين لوحدهم ﴿**لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر**﴾، وكذلك الذين يتمتعون بنور باطني ومعنوي، كملائكة الرحمة وملائكة العلم، يفكرون بالمادون والفقراء. وليس ممكناً ان يعطي الله موجوداً نعمة خاصة، دون ان يطلب منه مسؤولية، فاذا كانت الملائكة الحاملة للعرش تفكر بالتائبين، فما هي وظيفتنا تجاه الغير؟.

واذا كان نظام الوجود منظم بالشكل الذي يسعى كل من يقع في مقام عالي الى الأخذ بيد الأسفل، فما هي وظيفتنا؟ ان التوصل الى هذا النظام يتحقق بالتعقل الصحيح ﴿**واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون**﴾. ان دراسة المسائل الجوية للرياح والمطر وحدوثها وتصريفها وكيفية تنظيم

الليل والنهار والأسبوع والشهر والفصل والسنة، ومعرفة المسائل النجومية والرياضية وأمثالها، هي في حدود التعقل وليست من نصيب كل انسان متوسط.

لقد بيّن الله في طليعة هذه السورة ثلاثة أقسام من الآيات: القسم الأول هي آيات عامة، يستفيد من مطالعتها اي انسان بسيط الفكر، وهي مشاهدة أصل خلق السماء والأرض. قال تعالى ﴿لآيات للمؤمنين﴾. والقسم الثاني الذي يكون فيه الطريق عين السائر، هو تحليل معرفة النفس ومعرفة الآيات الأنفسية، وطريقها صعب ونتيجتها وافرة الثمر، لأن طريق معرفة النفس هو أدق وأنفع من معرفة الخارج، وبرهان معرفة النفس، أنفع برهان بعد برهان الصديقين، حسب تعبير الحكماء المتألهين. وحول هذا القسم قال تعالى: ﴿لقوم يوقنون﴾. اما القسم الثالث، فهو الطريق الرياضي والنجومي، وطريق التعرف على المسائل العلمية، فقال بشأنه: ﴿لقوم يعقلون﴾، وهذا التعبير انه يوجد دور للايمان تارة ولليقين أخرى وللتعقل ثالثة قد ورد في كثير من سور القرآن.

قال تعالى في سورة الرعد: **﴿تلك آيات الكتاب والذي أنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾**[1] ثم أقام أدلة التوحيد **﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾**[2] وهنا حيث طرحت للجميع مسألة السماوات من دون عمد ومسألة العرش وتسخير الشمس والقمر وتفصيل الآيات، عبّر بـ**﴿لعلكم**

---

(١) سورة الرعد، الآية (١).

(٢) سورة الرعد، الآية (٢).

بلقاء ربكم توقنون﴾، وأما حين تطرح المسائل العلمية والفكرية يقول: ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[١]، وعندما تطرح المسائل الرياضية وكذلك تربية الدواجن والزراعة وسائر الفنون التي تلزمها مسائل دقيقة أخرى عبر بـ﴿لقوم يعقلون﴾ قال تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب﴾ الى أن قال: ﴿ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[٢]. وفي هذه السورة فرّق بين اليقين والتفكر والتعقل وقد بينا ذلك في بحوث سابقة بالتفصيل، عند بحث التوحيد. وفي سورة الجاثية موضع البحث، بيّن مضمون ثلاثة أقسام من الآيات، ثم قال: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾[٣]. فهؤلاء اذا لم يؤمنوا بآيات الله وإذا لم يعتقدوا بكلام الحق ولم يتنوروا بهذه الأدلة والبراهين المفيدة فبأي كلام سوف يتنورون، وبأي آيات سوف يتيقنون؟.

ان الشيء الوحيد الذي لا يدع الانسان يرى نفسه محتاجاً الى الله، وهو يشاهد الآيات الآفاقية أو يسير في آياته الأنفسية، وان يدرك ان ذات الله تعالى قد خلق الكون والانسان وهو يديرهما، وأن على الانسان ان يكون مطيعاً لله وحده وكفى، ان ذلك الشيء هو عبادة الهوى وطاعته، والذي يجلب اسوداد الشعور، والحيلولة دون الايمان واليقين والتعقل، ولا يسمح للانسان ان يفكر بشكل صحيح ويسير بشكل صحيح ويصل الى الغاية في الوقت المناسب. لذا قال: ﴿ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب

(١) سورة الرعد، الآية (٣).
(٢) سورة الرعد، الآية (٤).
(٣) سورة الجاثية، الآية (٦).

أليم﴾[1] ، وهذا التبشير هو بدوره نوع من التعذيب الروحي ، فتهنئة التلميذ الراسب في الامتحان هو نوع من العذاب النفسي، وهذا التعبير أي التبشير بالعذاب هو نوع من التعذيب الروحي من الناحية الأدبية، وهو أسوأ عذاب يعذب به الله الشخص المستكبر، فبالاضافة الى العذاب البدني والنار البدنية التي تحرق الجسم والجلد ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها﴾[2] ، هناك نار أخرى تحرق الروح وتجعل المذلة تستولي عليها، لذا حين يطرح في هذه السورة، عذاب المستكبرين يذكر انهم يحكمون بعذاب الذلة والفضيحة، وأسوأ عذاب للانسان المستكبر هو العذاب الروحي والذلة، لذلك قال: ﴿واذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين﴾[3] ، والانسان المستكبر هو ذليل الآن أيضاً لكنه غير مطلع على ذلته، كالانسان الظالم والمعتدي الذي هو الآن حيوان مفترس لكنه لا يعلم بذلك. وحين تظهر وحشيته في الآخرة ويحشر بصورة حيوان وحشي عند ذلك يتضح للجميع أن تكبر الانسان المستكبر هو ذل في الحقيقة، من دون أن يعلم انه ذليل، وكبرياؤه الباطل، الذي هو ذلة في الحقيقة، يظهر في يوم القيامة على شكل ذلة، ومنطق القرآن هو ان المستكبر يعذب بعذاب مهين وعذاب ذلة، فلا يعذب فقط بعذاب جهنم الذي يحرق جسمه، بل يعذب أيضاً بعذاب الذلة، الذي هو في الحقيقة ظهور لذلك الاستكبار يعطى له فيؤلم روحه، ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾، ان على المستكبر أن يعلم انه ذليل في الواقع، والاستكبار كبرياء كاذب، والكبرياء الكاذب هو ذلة صادقة، والانسان المستكبر الذي يستهزىء بدين الله ، هو كبير باطل، وذليل

---

(١) سورة الجاثية، الآيتين (٧ و٨).

(٢) سورة النساء، الآية (٥٦).

(٣) سورة الجاثية، الآية (٩).

صادق، والشخص الذي يتعامل مع دين الله باستكبار عزته وكبره، عزة وكبر كاذبان، فتكون ذلته وصغره ذلة وصغر صادقان، فاذا كان كبره كاذباً فما يقابله صادق بالتأكيد، وليس ممكناً ان يكون كبره كاذباً ولا يكون له صغر صادق. من غير الممكن ان يكون استكباره كاذباً، ولا تكون له ذلة صادقة، فاذا كان تكبره كاذبا، كانت ذلته صادقة، واذا كان صعوده كاذباً فان نزوله صادقا، وقد ذكر ثقة الاسلام الكليني - رضوان الله عليه - كلاماً عن الامام الكاظم عليه السلام في كتاب الكافي، القيّم انه قال: (اتق المرتقى السهل اذا كان منحدره وعراً)[1]، فلا تذهب الى طلب الدنيا والتفاخر الكاذب الذي يكون ارتكابه سهلاً، لكن نهايته هي السقوط على الرأس، لا تذهب في صعود سهل فيه لذة كاذبة، ونزوله صعب ومقرون بذلة صادقة.

ان الاستكبار أمام آيات الله، يستطيع القيام به أي انسان، فأي انسان لا يتمكن من الاستهزاء والتعامل الاستكباري مع الدين؟ انه عمل يستطيعه كل شخص، لأنه ينسجم مع الطبيعة المادية للانسان، والشيطان يساعد على ذلك. انه عمل سهل، الا ان تحمل تلك الذلة البالغة أمر شاق وصعب. نرجو الله تعالى بحق الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ان يختم أمورنا جميعاً بالخير، وان يجعلنا متواضعين للحق، حتى نكون مرفوعي الرأس يوم القيامة. إلهي كفى بي عزاً ان أكون لك عبداً وكفى بي فخراً ان تكون لي ربا، أنت كما أحب فاجعلني كما تحب[2].

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) الكافي، باب اتباع الهوى، الحديث ٤.

(٢) من مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام، مفاتيح الجنان، بعد المناجاة الخمسة عشر.

الدرس السابع

معرفة الله هي نتيجة للتعقل

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

البحث الذي طرح سابقاً، كان بيان السور السبع المعروفة بالحواميم، ولأن هذه السور السبع ذات مضمون مشترك، فقد ادى هذا الأمر إلى المجيء بكلمة من الحروف المقطعة وهي ﴿حم﴾ في أوائل هذه السور. وكما أوضحنا سابقاً فان الجزء المهم لمضمون هذه السور السبع، التي نزلت في مكة يدور حول بيان الخطوط العامة للمعارف الدينية، اي التوحيد والنبوة والمعاد، وكانت السور النازلة في مكة تبين معارف وأصول الدين، أما السور التي كانت تنزل في المدينة، فانها كانت تشرح فروع الدين والتعاليم والبرامج العبادية وسائر البرامج علاوة على بيان المعارف العامة وأصول الدين.

ومن هذه الحواميم السبع سورة الجاثية التي طرحنا بعض مضمونها في

الدرس السابق، ولما كان الشرك الربوبي غير منحصر بأهل الحجاز في ذلك الوقت، بل كان كثير من الناس في أقاليم متنوعة، وفي كل عصر يواجهون مسألة الربوبية ومصابون بالهوى والانحراف والخطأ في التوحيد الربوبي فان هذه السورة تثبت مسألة التوحيد الربوبي بصورة مفصلة حتى لا يكون الانسان خاضعاً لتدبير وتعليم وتربية أحد الا الله سبحانه، ولا يحكمه قانون غير قانون الله، ففي البداية يتجاوز ذاتيات نفسه وينقذ نفسه من قيد الهوى ثم بعد ذلك لا يحترم ميول الآخرين وأهوائهم، فلا هو يعمل بميله ولا باهواء الغير واذا قمع هواه عند ذلك لا يكون تابعاً لهوى الآخرين واذا لم يعتبر فكره ضامناً للسعادة الأبدية، ولم يعتمد عليه، ورأى نفسه محتاجاً إلى الوحي السماوي، فانه لن يعتمد على فكر ورأي الغير بشكل تلقائي. ان الذي يعمل بميله وهواه او هوى غيره ويواجه الوحي الالهي، ويتعامل معه باستكبار فان هذا الاستكبار الظاهري لديه، سوف يكون ذلة باطنية له، فالانسان المستكبر يصبح ذليلاً في يوم القيامة وهذا الاستكبار هو نفسه ذلة حقيقية، تظهر في الآخرة. ان الانسان الذي لا يكون عبداً لله ولم يحظَ بهذا الفخر يصير عبداً للهوى، وعبد الهوى ذليل بلا شك لكنه لا يعلم انه ذليل، وهذه الذلة تظهر في يوم القيامة، لأن القيامة هي يوم ظهور الحقائق. اما الانسان الذي يكون عبد الله فهو عزيز حقيقة، وهذا الفخر وهذه العزة يتضحان في يوم القيامة الذي هو وعاء ظهور الحقيقة. من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي كفى بي عزاً ان أكون لك عبداً وكفى بي فخراً ان تكون لي ربا إلهي أنت كما أحب فاجعلني كما تحب»[1].

ان الشخص الذي يتعامل مع وحي الله باستكبار فتكبره هذا كاذب

---

(١) مفاتيح الجنان، بعد المناجاة الخمسة عشر.

حقيقة، ولما كان تكبره كاذباً، فان صغره صادق بالتأكيد. والشخص الذي يظهر نفسه كبيراً كذباً باطنه صغير لا قيمة له، واذا كان كبر الانسان أمراً كاذباً فان صغره صادق. واذا كان تكبره باطلاً فان ذلته حق، ويوم القيامة هو يوم الحق، فتظهر ذلته الحقيقية تلك في يوم القيامة. **﴿ذلك اليوم الحق﴾**[1].

ان الذي يستكبر امام وحي الله، هو ذليل وسافل في المعنى، وذلته تظهر غدا، لذا قال في سورة الجاثية: **﴿ثم يصر مستكبرا﴾**[2]، أي أن الشخص الذي لا يؤمن بالآيات الالهية، ويتعامل باستكبار **﴿فبشره بعذاب أليم﴾**[3]، وقال في الآية اللاحقة: **﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾**[4] أي عذاب يهينهم ويحقرهم، أي أن استكبارهم الباطني الذي هو في الحقيقة ذلة حقيقية يظهر غدا. ومن أجل الحؤول دون هذا اللون من الشقاء وفتح طريق السعادة فقد بيّن الله تعالى التوحيد الربوبي بشكل مفصل في هذه السورة وذكر ان الانسان كسائر الموجودات له مدبر وهذا المدبر هو الذي خلقه، ويؤكد القرآن في هذه السورة على مسألة التوحيد الربوبي أكثر من أي شيء. ففي بداية هذه السورة يعرض لنا ثلاثة طرق وثلاثة أدلة أحدها للمؤمنين والآخر لأهل اليقين والثالث للعقلاء وهذه الطرق هي التعقل واليقين والايمان والتي طرحت في الدرس السابق. وفي ختام السورة قال: **﴿فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين﴾**[5]، وقد طرح مسألة الربوبية ثلاث مرات في هذه الآية القصيرة بصفته رب السموات ورب الأرض ورب

---

(١) سورة النبأ، الآية (٣٩).

(٢) سورة الجاثية، الآية (٨).

(٣) سورة الجاثية، الآية (٨).

(٤) سورة الجاثية، الآية (٩).

(٥) سورة الجاثية، الآية (٣٦).

العالمين، فالانسان حين يريد القيام بأعمال أرضية يجب ان يعتمد على الله لأنه رب الأرض، واذا أراد العمل بشأن الفضاء والكواكب والذهاب إلى السماء فعليه ان يلتجيء إلى الله، لأن الله هو رب السماوات، فالله هو رب السماء والأرض وحركة الكون والطبيعة. لقد ذكرت مسألة ربوبية الله، ثلاث مرات في هذه الآية التي تقل عن سطر واحد، لم يقل ان الله هو رب العالمين، لأن مشركي الحجاز كانوا يؤمنون ان الله رب العالمين رب الأرباب ولكن الأمور الجارية، ومسائل الأرض ومسائل الرياح والمطر، ومسائل البحر والهواء ومسائل الصحراء وسائر المسائل المحدودة، تقوم بها أرباب متفرقة أخرى وموجودات أخرى، لذا كانوا يخضعون لها ويحبونها، ولكن هذه الآية تبين ان الخضوع والركون خاص بالله عز وجل.

لو تحركتم بفكر وتعقل فان حصيلة تعقلكم تكون معرفة الله، ولو تحركتم بتهذيب وشهود قلب فان ختام يقينكم هو شهود الله اذا أردتم التحرك عن طريق الفكر، فيجب ان تصلوا إلى رب العالمين، واذا أردتم ان تتحركوا عن طريق القلب، وتسعوا عن طريق العرفان، وتسيروا عن طريق تهذيب النفس، فان ختام مشاهدتكم، هو رب العالمين، فالله هو رب العالمين، عند العاقل، وهو رب العالمين، عند المتقي. **﴿فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين﴾**. وعلى هذا لا يمكن القول انه وان كان الله هو رب كل نظام الخلق الا ان الوسيلة أمر لازم أيضاً، لتكون تلك الذريعة، ستاراً للشرك، نعم من الضروري وجود وسيلة حتى نصل إلى فيض الله، وقد هيأها الله وقال: **﴿وابتغوا اليه الوسيلة﴾**[1]. ان الذي يقول انه وان كان الله حقاً وهو رب العالمين الا ان الوسيلة أمر لازم انما يريد تفسير شركه الخفي بغطاء

---

(١) سورة المائدة، الآية (٣٥).

توحيدي، فالشخص الذي يعتقد ان ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾[1] لا يقول انه وان كان الله حقاً الا أن الوسيلة أمر لازم، لأنه يرى كل شيء كمجاري لفيض الله، وفي أول خطوة يقول: إلهي هيّء لي ما يكون وسيلة اليك واذا تهيأت الوسيلة، يدرك طبقاً لما جاء في سورة النحل ان المهيّء لتلك الوسيلة، هو الله ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[2]، فهو الذي أعطى هذه الوسيلة. الانسان يدعو الله ويقول: (قرب اليك وسيلتي من بين الوسائل)، ونسأل الله مقام الوسيلة ـ الذي هو مقام شهود خاص ـ لرسول الله ﷺ ونقول: (وقرب وسيلته)[3]. ان الانسان الموحد يطلب من الله حل المشاكل في بداية العمل، وفي خلال العمل يعتبر توفيق الحركة من الله، كما يرى الاستفادة في ختام العمل لطفاً من الله ﴿رب أدخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق﴾[4]، لذا طرح مسألة الربوبية ثلاث مرات في هذه الآية القصيرة حتى يتضح ان نظام السماء والأرض كله تحت تدبير الله ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾[5]، وقال في الآية اللاحقة: ﴿وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[6].

وهذه الرؤية لا تسمح للانسان ان يعيش بفكره ورأيه ولا تسمح له ان يسير في طريق فكر ورأي الآخرين ويكون تابعاً لميله وهواه وميول وأهواء الآخرين، والانسان المستكبر مهما كسب من العلم أيضاً فانه لا يكتنز الا

---

(١) سورة الفتح، الآية (٤).
(٢) سورة النحل، الآية (٥٣).
(٣) الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٣.
(٤) سورة الاسراء، الآية (٨٠).
(٥) سورة الزخرف، الآية (٨٤).
(٦) سورة الجاثية، الآية (٣٧).

الذلة والجهل وقد ذكر تعالى ان الذين يتبعون الأهواء هم جهلة وضالون حتى في حال كونهم علماء. قال تعالى في سورة الجاثية التي طرحت فيها مسألة التوحيد الربوبي: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون**﴾[1]. ان الشخص الذي لا يتبع الوحي ويرى نفسه مختاراً ويعمل بميله وهواه ويسير وفق ميل ورأي الآخرين، لا يملك العين التي تقدر على رؤية الأنوار الالهية والأذن التي تستطيع سماع الآيات الالهية لأنه ختم عليها، لأن العين والأذن ليستا للانسان بل هما أمانة إلهية. واذا صرف الانسان هذه النعمة الالهية في غير محلها فان الله يختم على عينه وأذنه التواقتين للحق، وعندما تختم عينه وأذنه يظل أي فكر باطل وأي هوى ساذج في داخله على حاله، فلا يتمكن من اخراج تلك الآراء الباطلة والميول الفارغة من قلبه، ولا يستطيع ادخال الأفكار الإلهية والأفكار الحقة إلى قلبه عن طريق العين والأذن، لأن مجرى القلب اذا كان مسدوداً، وكانت فتحة القلب مختومة، فان اخراج الأوصاف المذمومة غير ممكن أبداً، كما ان ادخال الأوصاف الممدوحة ليس ممكناً كذلك، فانسداد فتحة اناء النفس يحول دون نفوذ مادة جديدة، وانما يتمكن الانسان من غسل وعاء واستخراج الأوساخ من داخله وسكب ماء زلال فيه، حينما لا يكون رأس الوعاء مغلقاً فحسب وتربية الانسان انما تكون ممكنة عندما تكون عينه وأذنه مفتوحتان وتكون نافذة قلبه مفتوحة لقبول المعارف الحقة، اما اذا سلب الله منه نعمة السمع والبصر وفهم المعارف، نتيجة عبادته للهوى وحبه له عند ذلك يظل كل فكر ملوث أو وصف خبيث في قلبه في مكانه، ولا يفتح الطريق أبداً

(١) سورة الجاثية، الآية (٢٣).

لنفوذ المعارف الإلهية، لأنه ﴿**وختم على سمعه وقلبه**﴾، وجعل على عين نفسه ستاراً ﴿**وجعل على بصره غشاوة**﴾، وعادة تأتي العبارة في القرآن الكريم بهذا الشكل ﴿**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة**﴾[1]، وهذا هو دأب القرآن الكريم، اي أنه ينسب الختم الى السمع والقلب، واما بالنسبة الى العين فيستخدم وضع ستار ويقول ﴿**أعينهم في غطاء عن ذكري**﴾[2]، وان كان هناك احتمال ان يكون الختم مرتبطاً بجميع الأعضاء القلب والأذن والعين، وعلى أي حال، يضع غطاء الغفلة على العين، ويختم على نافذة القلب والسمع بالعذاب الالهي، والله تعالى بالختم يقوم بعملين:

الأول: يسد على الأغيار طريق الخروج.

والثاني: انه يحول دون دخول الصديق، فالصديق لا يحق له الدخول الى قلب الكافر، وهاتان الأثران يعودان لأصل واحد، حيث يذكر انه يختم على سمع وقلب الانسان المطيع للهوى، كي لا تنفذ المعارف الالهية، التي هي حقائق تمنح السعادة وقد جاءت من ديار الحبيب، في قلبه الذي هو عدو لله واذا ختم سمع الكافر والمنافق وقلب الانسان المطيع للهوى عند ذلك لا يسمع صوت الصديق ولا يعود يصل موضوع من المعارف الى أنفسهم لأن المعارف الالهية أسمى من ان تلقى في نفس الكافر، ولا يناسب ان تدخل نعمة الهداية في قلب الكافر، كما لا تخرج من قلبه الأوهام والخيالات الفارغة.

لقد امتحن الله الانسان الكافر والمنافق عدة مرات، وألقى عليه حجة

---

(١) سورة البقرة، الآية (٧).

(٢) سورة الكهف، الآية (١٠١).

ظاهرة وباطنة، وأرسل اليهم أفضل الناس رسل هداية، لكنهم تجاهلوا، وقد قال تعالى انه أرسل الى الناس رسولاً ﴿**من أنفسكم**﴾، وفي قراءة أخرى ﴿**من أنفَسكم**﴾ بفتح الفاء والسين أي أكثركم نفاسة وقيمة، لكنهم لم يولوه أهمية. وقد أرسل الله ملائكة الوحي بوصفهم حملة الرسالة، وأنزل الوحي من مكان بعيد حتى يؤمنوا، الا أنهم لم يهتموا عند ذلك ختم الله على سمعهم وقلوبهم، ولم يعد الكلام الحق ينفذ في سمعهم، ولا يستقر المعنى الحق في أنفسهم، والختم هو الذي يسد الطريق امام دخول المعارف الى حرم القلب، وهناك ختم آخر يجعله الله يمنع به من دخول الغرباء الى حرم الصديق، حيث قال تعالى: ﴿**ان الأبرار لفي نعيم * على الآرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾[1].

الحديث عن الأبرار الذين لم ينالوا مقام المقربين بعد فهؤلاء يسقيهم ساقي الغيب برحيق مختوم لا أن باب انائه مختوم بل نفس الشراب مختوم وختامه مسك فهذا الشراب كله مختوم بالمسك ولا طريق للنفوذ اليه وهذا لا يعني ان هذا الشراب يعطي طعماً لذيذاً بعد الشرب، بل ان الطعم اللذيذ هو ختام هذا الشراب، ولا يحق لأي غريب الدخول الى حدود هذا الشراب، فضلاً عن الوصول الى ذلك المقام فهذا ليس اناء قد ختم بابه بل نفس الشراب هو المختوم لا أن من يشرب يشم في الخاتمة رائحة المسك بل جميعه قد ختم بالمسك ﴿**ختامه مسك**﴾.

ثم يدعو الناس اذا كانت لديهم حركة سريعة وقدرة على السعي لكي يتحركوا للوصول الى هذا المقام ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ فهذا

---

(١) سورة المطففين، الآيات (٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦).

المقام مقام التنافس لأنه يحتوي على النفاسة وغلاء القيمة المطلب النفيس على الانسان ان يحصل عليه بسرعة ومشقة وهذا الحاصل يسمى بالتنافس.

ان وصف هذا الرحيق بان ختامه مسك وانه كله امن ولا يحق لأحد الوصول اليه يمهد الأرضية لهذا السؤال وهو، من أي عين يخرج هذا الشراب؟ وقد قال الله سبحانه رداً على هذا السؤال المقدر بأن الشراب المذكور ومع كل ما فيه من ميزات ليس شراباً صرفاً وخالصاً، بل مختلطاً ﴿ومزاجه من تسنيم﴾، فهذا الشراب ممزوج مع مقدار من تسنيم. فما هي عين التسنيم؟ وأين هي؟ يطلق السنام على أعلى ظهير البعير كما يطلق على كل مكان مرتفع سناً جليل، فهذه العين الجليلة العالية تخرج وتنزل من مكان مرتفع ويمزجون مقداراً من ماء تلك العين ويعطونه للأبرار - ممزوجاً وهو الرحيق - المقربون يشربون ماء ينبوع التنسيم الخالص، لأنه ﴿الا لله الدين الخالص﴾[1] فهم ليس لديهم شيئاً غير الاخلاص، وليس في قلوبهم شيء غير الله، فهم لم يخضعوا لأحد غير الله ولم يحبوا أحداً الا الله، بل ضحوا بكل محبوب في سبيل الله، وساحة قلوبهم متيمة بحب الله سبحانه، ولهذا ليس ثمة محبوب سوى الله للمقربون.

أما الأبرار فلديهم أحباء غير الله لكنهم يضحون بهم في سبيل المحبوب بالذات، وقد قال الامام الصادق عليه السلام: «هل الدين الا الحب»[2]. وذكر أمير المؤمنين عليه السلام حول هدف الأحرار من العبادة اننا نعبد «حبا لله وتلك عبادة الأحرار»[3] وذلك المقام اذن شامخ ومستور عن

---

(١) سورة الزمر، الآية (٣).

(٢) سفينة البحار، مادة (حبب).

(٣) الميزان: ج١ ص ٣٥.

الأغيار.

ثم قال تعالى في وصف عين التسنيم: ﴿عيناً يشرب بها المقربون﴾[1]، التسنيم عيناً يشرب المقربون شرابها الخالص، والمقربون أرقى من الأبرار، فيمزج مقدار من عين التسنيم ويجعل بصورة رحيق مختوم ثم يعطى للأبرار ليشربوه، فهم يشربون من شراب ممزوج وليس من شراب خالص لأنهم لم يصلوا الى مقام المقربين الشامخ ﴿ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾[2] أي أن الأبرار يشربون شراباً ممزوجاً بالكافور ثم يصف الكافور فيقول: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾[3]، هذه العيون في تصرف خواص العباد فالعين في الجنة تابعة لأهل الجنة وليس أهل الجنة تابعين للعين، فهي ليست كالبستان في الدنيا وفي الكرة الأرضية، حيث يكون الانسان تابعاً للعين، ويعيش حيثما توجد عين، بل العيون في الآخرة تابعة لارادة أهل الجنة، وفي اي مكان ارادوا يخرج ماء العين، قال تعالى: ﴿يفجرونها تفجيرا﴾[4]، وأفضل شراب خالص هو الذي ورد بيانه في سورة ﴿هل أتى﴾، قال تعالى: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهورا﴾[5].

وقد ذكر أمين الاسلام، الطبرسي - رضوان الله عليه - في آخر هذه الآية الكريمة انه روي عن الامام الصادق عليه السلام، قوله عن الشراب الطاهر انه: «يطهرهم عن كل شيء سوى الله اذ لا طاهر من تدنس بشيء من الأكوان

---

(١) سورة المطففين، الآية (٢٨).
(٢) سورة الانسان، الآية (٥).
(٣) سورة الانسان، الآية (٦).
(٤) سورة الانسان، الآية (٦).
(٥) سورة الانسان، الآية (٢١).

الا الله»[1]، فهم يطهرون من كل ما سوى الله، وهذا هو التوحيد الخالص، والموحدون الحقيقيون ليس أنهم لا يعملون بفكرهم واعتقادهم فحسب بل لا يعملون بفكر واعتقاد أحد أيضاً، اذ لا يطيعون ولا يحبون غير الوحي الالهي، وهم موحدون خالصون وهم أهل اليقين، وقد ذكر تعالى في سورة الجاثية هذه في ما يتعلق بأهل اليقين بأن الذين يتمتعون بهداية خاصة هم أهل اليقين، وان الذين يتعاملون باستكبار مع الوحي الالهي مختوم على سمعهم وقلوبهم.

والنتيجة هي ان الله سبحانه ختمين، ختم رحمة وختم غضب، فيختم شراب أهل الجنة بختم الرحمة حتى لا يصل اليه غريب، ويختم على قلوب وسمع وأبصار الكفار والمنافقين حتى لا تنفذ المعارف الإلهية الرفيعة الى أبوابهم، فيظل الانسان الكافر والمفسد على تلوثه الفكري وهواه الشخصي **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾**[2]، وحين توضع على بصره غشاوة ويختم على سمعه، ويختم على نافذه القلب فلا تنبع المعرفة من باطن القلب، كما لا يمكن ايصال المعارف اليه من الخارج، لذا قال: **﴿فمن يهديه من بعد الله﴾**، او ليس البصر والسمع طريقاً لهداية الانسان؟ أو ليس القلب طريقاً لهداية الانسان؛ أو ليس الله مقلب القلوب؟ أو ليس الله مالك للسمع والأبصار، **﴿أمن يملك السمع والأبصار﴾**[3] فإذا ختم مقلب القلوب، على نافذة القلب، واذا ختم مالك السمع والبصر على سمع وبصر احد، وجعل على بصره غشاوة، فمن يستطيع هدايته؟ من الذي حاك هذا الغطاء؟ من الذي هيأ

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج١ ص ٤١١.
(٢) سورة الجاثية، الآية (٢٣).
(٣) سورة يونس، الآية (٣١).

خيوط هذا الغطاء؟ ان المعاصي الصغيرة والكبيرة للانسان الفاسق، هي التي تشكل خيوط ذلك الستار، والهوى وعبادة الهوى، هي التي تهيىء ذلك الختم.

وفي مقابل هؤلاء الأشخاص، هناك جماعة تتمتع بهداية إلهية خاصة، تتمتع بهداية مقرونة باليقين، وبالنسبة لهؤلاء قال في سورة الجاثية: ﴿**هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون**﴾[1].

ان القرآن هو آيات بصيرة لعامة الناس، وبامكانهم الوصول الى الغاية من أي طريق أرادوا واذا أرادوا طاعة الوحي، فالقرآن عامل لبصيرتهم، ولذا اعتبر هذا الكتاب بمثابة بصائر للناس، الا انه هداية ورحمة لأناس خاصين ﴿**وهدى ورحمة لقوم يوقنون**﴾، فهو بصيرة وهداية خاصة ورحمة خاصة لأهل اليقين وأهل المعنى وأهل القلب، وهؤلاء لا يرون المعارف فحسب، بل يصلون اليها ويدركونها، فالآخرون يرون أما أهل اليقين فيدركون ويحصلون والانسان اذا سار عدة خطوات باتجاه الحق، فانه يجد كثيراً من معارف اليقين ويراها.

يقول الشاعر الفارسي (ما معناه): «ان سعيت وجاهدت فانك تصير ملاكا أليست ورقة التوت تتحول الى حرير».

أليس الحرير الذي هو أفضل لباس الطبيعة أصله من ورق شجرة التوت، يتحول حريراً بواسطة جهد دودة القز؟ فاذا كانت ورقة التوت تتحول حريراً بالتربية، فلماذا لا يصبح الانسان ملكاً عن طريق التربية الصحيحة؟ وطريق صيرورة الانسان ملكاً مفتوحاً ﴿**هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم**

(١) سورة الجاثية، الآية (٢٠).

يوقنون﴾ ان الشخص الموحد في مسألة التوحيد الربوبي ولا يقع تحت غطاء تدبير أحد غير تدبير الله، لا يقول أبداً انني أتصرف برغبتي، لا يقول أبداً انني أقول هكذا، لا يقول أبداً انني أحب هذا بل يقول أحب ما يحبه الله فهو لا يرى نفسه على الاطلاق. انك حجاب لنفسك، ولو نهضت من البين لرأيت ان لا مكان للأغيار ولا يقنت بالأصول العامة للدين، ولرأيت بعين النفس المبدأ والمعاد، لشاهدت المبدأ الذي ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾[1]، ولشاهدت بعين الروح المعاد، الذي هو غيب لم تصله حتى الآن من ناحية السير الطبيعي.

يقول الله تعالى لو كنتم من أهل اليقين، لرأيتم جهنم حالياً، قال تعالى: ﴿لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم﴾[2]، أليس من المؤسف ان يصير ورق التوت حريراً ولا يصبح الانسان ملكاً ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾، ويكفي في أهمية اليقين انه لم يخلق في عالم الخلق شيء أقل منه، وليس ثمة شيء أثمن منه، وقد طرح في هذا المجال بحث جامع في الملكوت وكيف تمتع ابراهيم الخليل سلام الله عليه بالملكوت الالهي. ومن أجل ان يعلم الانسان ان قبائحه وحسناته تواضعه وتكبره، ظلمه وعدله، علمه وجهله، سفاهته وعقله، يقينه وشكه، كلها تدخل في الحساب، ذكر ان لكل فرد كتاب أعمال، تسجل فيه كل أعماله، وان هناك كتاب اجتماعي، وكتاب عام للأمة والمجتمع بشأن المسائل الاجتماعية والجماعية.

يذكر القرآن ان هناك كتاباً للمجتمعات، وقد أشار الى كتاب الأمة في

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٠٣).

(٢) سورة التكاثر، الآيتين (٥ و٦).

هذه السورة موضع البحث فقال: **﴿وترى كل امة جاثية كل امة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾**[١] ، اذا كان لكل فرد كتاب، فان هناك كتاب للمجتمع كذلك، لكل أمة كتاب، مما يدل على انه لكل أمة حياة ومسؤولية ووظيفة، وأمر ونهي. وطاعة وعصيان، وثواب وعقاب، وبالتالي فلها كتاب بالتأكيد. هذا الكتاب يبين الوظائف الاجتماعية للأمة، وما ورد في سورة الاسراء **﴿وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا﴾**[٢] يشير الى هذا الكتاب الفردي، فلكل فرد أوامر فردية، أمر ونهي فردي، وظائف فردية، طاعة وعصيان فردي، ويعطى كل فرد كتاباً مدونة فيه جميع الأعمال، فيراها ويقرأها كلها في ذلك الكتاب. في هذه السورة أشار الى أن للأمة حياة على حدة، وللمجتمع حياة جديدة ومسؤولية جديدة، فعليه أن له أمراً ونهياً جديداً وعلى حدة وله كتاب.

نرجو الله تعالى ببركة الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ان يوفق الجميع في الوظائف الفردية والاجتماعية، وان يجعل الأمة تتسلم كتاب الوظائف الفردية والوظائف الجماعية في يدها اليمنى، نسأل الله برحمته المطلقة قبول هذه البحوث، واهداءها كأفضل هدية الى الروح المطهرة للرسول الأكرم وأهل بيت العصمة والطهارة والأنبياء والأولياء ـ عليهم أفضل صلوات المصلين ـ وان يجعل قلوبنا أوعية للمعارف الالهية وان لا يفرّق بيننا وبين الكتاب والعترة في الدنيا والآخرة، غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة الجاثية، الآية (٢٨).

(٢) سورة الاسراء، الآية (١٣).

الدرس الثامن

الأصول الثلاثة في السور السبع

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

بالرغم من ان القرآن الكريم بأجمعه متناسق ومنسجم، لكن هناك سور خاصة نزلت بشأن مضمون خاص ومعارف معينة، اي أن ذلك المحتوى الخاص قد بيّن بشكل أفضل وأكثر في تلك السور الخاصة، ولذا فان للسور التي نزلت بشأن مضمون خاص، اسم خاص وتتشابه مع بعضها الآخر في الكلمات التي تشرع بها، كالحواميم، وهي سبع سور في القرآن تبدأ بـ ﴿حم﴾ وتدعى بالحواميم السبع. وقد أشير الى مضمون هذه السور الى حد ما، في البحوث المتقدمة.

والجزء المهم لمحتوى هذه السور السبع، هي الأصول الثلاثة، أي التوحيد والنبوة والمعاد.

وقد أشير في هذه السور من خلال شرح الوحي وأهمية القرآن وكيفية

نزوله الى التوحيد والنبوة والمعاد، أكثر مما في سائر السور. وهناك فقرات كثيرة بشأن المعاد، أحدها مسألة الكتابة وتسجيل وتدوين أعمال الانسان، ذلك لأن المحاسبة في يوم القيامة وهو يوم الحساب تكون ممكنة، عندما تحسب أعمال الأشخاص السيئة والحسنة، والأعمال تحسب حين يكون لها حضور، وهي انما تحضر حينما تكون قد دوّنت في الدنيا. وتسجيل الأعمال، هو نفس كتابة الأعمال، وضبط الأعمال هو تنظيمها وكتابتها الذي يعبّر عنه بكتاب الأعمال.

والشيء المطروح حول كتابة الأعمال، هو هل أن هذه الكتابة لفظية، أي تكتب بالحروف كما هي كتابة الكتب في الدنيا، أم أن معنى كتابة الأعمال ليس الكتابة اللفظية، وانما معنى لها معنى آخر؟ وهل هذه الأعمال هي الأعمال الفردية للانسان فحسب، أم أن أعماله الاجتماعية وسلوك المجتمع، تكتب هي الأخرى أيضاً؟ وفي النتيجة هل ان الفرد فقط لديه كتاب مدونة فيه اعماله الفردية أم أن الأمة والمجتمع لهما أيضاً كتاب جامع رسمي وعام، تكتب فيه الوظائف الاجتماعية كما يكون لكل فرد كتاب؟ وهل الملائكة هم كتّاب هذا الكتاب أم لا؟ وهل بالامكان ان يكون لله تعالى حضور وظهور مباشر في كتابة الأعمال، ام أن هذا العمل متروك لمأموري تدوين الأعمال؟ وبالنتيجة، كيف سيكون تعامل الفرد أو المجتمع مع كتاب الأعمال هذا في يوم القيامة؟ هذه مسائل قد طرحت في تلك السور السبع.

في سورة الجاثية التي تقدمت بعض مواضيعها سابقاً، وردت مسألة كتابة الأعمال بهذه الصورة: ﴿**وترى كل أمة جاثية**﴾[1]، أي أن كل أمة تراها جاثية لشدة عذاب القيامة، والانسان الخائف والمتهيىء للهرب، يجثو حيث

---

(١) سورة الجاثية، الآية (٢٨).

لا يقدر على الجلوس ولا يستطيع الذهاب. وهذا الحال يسمى بالجثو. فالعذاب يوم القيامة مرعب الى درجة يكون الجميع فيها في حالة جثو، وان كان الذين قد قرر القضاء الالهي لهم الأمان، بسبب صلاحهم ولياقتهم، مصانون فلا يشعرون أبداً بالنار ولا يحزنون **﴿لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾**(١)، فأولياء الله مصانون من هذا الخوف، في ذلك اليوم حيث الخوف العام **﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾**(٢)، لأنه **﴿ان المتقين في مقام أمين﴾**(٣) ان المتقين يعيشون في مكان أمن، بالتأكيد فالذين كانوا في الدنيا في أمن من خطر الذنب والوسوسة، هم في أمان في الآخرة من خطر الاحساس بالعذاب **﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾**(٤)، فالشخص المؤمن من ناحية العقيدة ومن ناحية المسلك أعماله صالحة، يتمتع بالأمن الالهي، والذين لم يلوثوا رداء دياناتهم بظلم، يتمتعون بأمن الله سبحانه، وهم في هدوء وراحة، حينما يجثو الآخرون.

﴿كل أمة تدعى الى كتابها﴾، يتضح من هذه الآية الكريمة ان المجتمع موجود وحيّ مثلما ان الفرد موجود وحي، والمجتمع مسؤول، كما يكون الفرد مسؤولاً، ومثلما للفرد حياة وممات، فللمجتمع والأمة حياة وممات أيضاً. وكما ان كتاب الفرد يكون خفيفاً او ثقيلاً، كذلك كتاب الأمة والمجتمع، اما أن يكون خفيفاً أو ثقيلاً. ومثلما ان الفرد يصبح طعمة لعذاب النار، اذا كان كتابه خفيفاً، ويعيش راضياً ومرضياً في ساحة قدس الله

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٠٢).
(٢) سورة الأنبياء، الآية (١٠٣).
(٣) سورة الدخان، الآية (٥١).
(٤) سورة الأنعام، الآية (٨٢).

سبحانه اذا كان كتابه ثقيلاً وكان يتمتع بالحق ﴿**فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية**﴾[1] ، كذلك الأمة والمجتمع يتعرضان لعذاب النار، ان كانت أعمالهما خفيفة وكان كتاب اعمالهم خال من الحق، واذا كان كتاب اعمالهم يتمتع بالحق وثقيلاً، فسوف يعيشون حياة كلها سرور. ﴿**اليوم تجزون ما كنتم تعملون**﴾[2] أي اليوم يوم القيامة عين اعمالكم هي جزاؤكم أي ما عملتموه فترونه جزاء لكم ونفس تصرفاتكم تؤدى لكم على نحو الجزاء.

وبناء على هذا فان الأمة حية ومسؤولة، كالفرد، ولها وظائف وكتاب أعمال. ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق**﴾[3] ، لأنه سجل نص عملكم، ويقدمه لكم، ليس فيه أي بطلان، ويبين لكم أعمالكم الباطلة من دون تغيير ونقصان، فهي لا يضاف اليها ولا هي تنقص، انه يوضح لكم بشكل صحيح أعمالكم الباطلة، اذا كان لديكم سلوك باطل، فترون انكم ارتكبتم باطلاً، واذا قمتم بعمل صحيح، فانه يبين لكم اعمالكم الصحيحة بصورة صحيحة، فترون نص العمل، وتشاهدون عين العمل ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق**﴾، لماذا؟ لأنه ﴿**انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**﴾[4] .

ان أعمالنا الخارجية هذه هي نسخة مأخوذة من الأصل، فقبل ان نأتي الى هذا العالم، كان الله تعالى يعلم، ماذا سنفعل باختيارنا وارادتنا، كان يعلم اننا سنتحرك بارادتنا نحو الخير أم نذهب باختيارنا الى جهة الشر، فالانسان على مفترق طرق ﴿وهديناه

(١) سورة القارعة، الآيتين (٦ و٧).
(٢) سورة الجاثية، الآية (٢٨).
(٣) سورة الجاثية، الآية (٢٩).
(٤) سورة الجاثية، الآية (٢٩).

النجدين﴾[١] ، فالله تعالى يعلم، الطريق الذي سيختاره الفرد برغبته وارادته، وما عَلِمَه الله سبحانه هو الأصل، وما يتحقق في العالم الخارجي هو نسخة من ذلك الأصل، وعمل الملائكة هو تطبيق هذا العمل مع النسخة الأصل، وجهود وسعي المسؤولين عن تربية الانسان هو اخراج ما هو كامن في باطن كل فرد او مجتمع بالقوة الى مرتبة الفعلية، فيحولون الانسان الصالح بالقوة، الى صالح بالفعل، او اذا كان هناك فساد في داخله بالقوة يصل الى مرتبة الفعلية، فيظهر كل ما في باطن الأفراد، بمجيء التعاليم والامتحانات الالهية، ﴿انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾.

ان معنى كتابة الأعمال، ليس تدوين أعمال الناس في دفتر، فمثلاً اذا صلى أحد يكتب ان الشخص الفلاني قد صلى ركعتين، واذا صام، يكتب له انه صام ذلك اليوم، واذا اغتاب يسجل له انه اغتاب، واذا قام بتهمة، يكتب له انه اتهم، ذلك لأن الوجود اللفظي والكتابي، هو وجود اعتباري للشيء، وليس وجوداً حقيقياً له، فلا يكون موضحاً للحقيقة التكوينية للشيء، وفي النتيجة يمكن انكاره مثلاً اذا عرف الشخص، هذه العبادة الخارجية باسم «الصلاة» او باسم «نماز»[٢] ، فهذا أمر اعتباري، مبني طبقاً له، ذلك المضمون بهذه الكلمة، بين هذه المجموعة، لكن مجموعة أخرى تسمي ذلك المضمون بكلمة أخرى، لأن دلالة اللفظ على المعنى، هي بالوضع والاعتبار، وهي ليست دلالة تكوينية، ولما لم تكن الدلالة على ذلك، تكوينية، فهي ليست ذات العمل، وقد لا تكون قابلة للاحتجاج، في المحل الذي لا يكون لغير الحق ظهور، اما اذا كان عين العمل قد كتب وخزن في

---

(١) سورة البلد، الآية (١٠).

(٢) نماز كلمة بالفارسية تعني الصلاة ـ «المترجم».

محل، بحيث اعتبرت هذه الذخيرة لذات العمل، وهذا التدوين لذات العمل كتابة للأعمال، فانه لا يكون هناك مجال للانكار في يوم الحساب أبداً. وبناء على هذا فان كتابة الأعمال لا تكون بوصفها كتابة أعمال بقلم ظاهري، لأنه لم يقل في هذه الآية الكريمة، انا نكتب كل ما تفعلون، وانما قال **﴿انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾**، أي أن ما تعملون هو نسخة نستنسخها طبقاً للأصل، فالأصل هو اللوح المحفوظ، وهذه الكتب التي هي عبارة عن ذات أعمالكم، استنسخت من ذلك المكتوب الأصل، وذلك الموطن الذي توجد فيه أعمال الجميع هو موطن كتابة الأعمال.

والمبدأ الفاعلي الذي يطابق بين أعمالنا وما هو محفوظ في اللوح، هو كاتب العمل، وبما ان ذات وعين هذا العمل يظهر في يوم القيامة، فهو قابل للاحتجاج من قبل الله سبحانه، ولا يمكن للعبد انكاره، فلا بد للانسان من الاعتراف بعمله، لأنه يرى عين عمله وليس كتابته وهذا ينسجم وينطبق مع الآيات التي تقول: **﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا﴾**[١]، فليس هناك كتاب مكتوبة فيه أعمال الانسان، ويرى الفرد أو المجتمع كتاب الأعمال، بل يشاهد عين الأعمال حاضرة، وقال تعالى: **﴿علمت نفس ما قدّمت وأخرت﴾**[٢] وقال كذلك: **﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات﴾**[٣] وقال تعالى: **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمداً بعيدا﴾**[٤]، أي أنهم يشاهدون عين العمل، ويجدونه حاضراً.

---

(١) سورة الكهف، الآية (٤٩).
(٢) سورة الانفطار، الآية (٥).
(٣) سورة البقرة، الآية (١٦٧).
(٤) سورة آل عمران، الآية (٣٠).

ولما كانت هذه الآيات لها دلالة على أن الانسان يرى عين العمل، وقد ذكرت تلك الآية من سورة الجاثية استنساخ الأعمال، يتضح ان مسألة كتابة الأعمال ليست كتابتها بوجود كتبي ولفظي مثلاً ماذا عمل الشخص الفلاني وماذا قال؟ بل تقوم بتسجيل عين العمل، وهذا هو تسجيل الأعمال، الذي لايشبه أبداً التسجيل على الشريط، اذ ان الشريط يسجل اللحن والصوت او الصورة فقط، ولكنه لا يسجل الارادة والمضمون والنية، فالنوايا لا يمكن تسجيلها في الأجهزة المادية، ولا يمكن كتابة الارادات، وليس بالامكان تسجيل النية والعقيدة في شريط الطبيعة، فهي أمور معنوية، وليست من الأمور المادية، وانما من اللازم وجود موطن، يسجل فيه عين العمل وروحه التي هي النية والارادة، والكتاب الذي يسجل ظاهر العمل وروح العمل، معروف باسم كتاب الأعمال، الذي ينظم باليد القادرة كملكٍ عالمٍ واعٍ عادل معصوم، فهناك موطن في عالم الوجود تحفظ فيه جميع أعمالنا بجميع ما لدينا من خواطر ونوايا وهذه هي كتابة الأعمال، التي يراها الانسان حين يصل الى ذلك الموطن الخاص.

ونقرأ في موضع من القرآن بأن الملائكة تكتب أعمالنا كما نقرأ في جزء آخر من القرآن بأننا نرى كل أعمالنا، والجمع بين هذين الأمرين هو ان مسألة حضور الأعمال ومسألة الكتابة تحصلان في الموطن معين، ولو كانت كتابة الأعمال، ككتابة لفظية، تكتب بالحروف، لكانت غير حضور الأعمال، اما اذا كانت كتابة الأعمال، هي بمعنى تدوين عين الأعمال، لا بمعنى الكتابة بالكلمات والحروف والرقم والقلم، فهي عين مرحلة الحضور والعين الخارجي للأعمال، وتتطابق مع الآيات التي تذكر بأن الانسان يشاهد عين أعماله ﴿**انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**﴾، ويعمل كتّاب هذا الكتاب،

وهم الملائكة، من أجل تطبيق ما يوجد في الخارج مع ما هو محفوظ في اللوح، في الحقيقة، وقد مدحهم الله وعرّفهم بوصفهم حافظين وكاتبين كراما.

وعندما يتبدل نظام الطبيعة **﴿اذا السماء انفطرت * واذا الكواكب انتثرت * واذا البحار فجرت * واذا القبور بعثرت * علمت نفس ما قدّمت وأخرت﴾**[١]. يفهم كل انسان ما عمل في ماضيه وفي أواخر عمره أو ما عمل في زمان حياته وماذا كانت آثار عمله بعد الممات **﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾**، يفهم كل ذلك دفعة واحدة، لا يدركها من خلال العلم الحصولي ويتذكرها بل يدركها عن طريق الشهود. **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا﴾** لأنه يرى في ذلك اليوم، نفس العمل، ويشاهده ويعرفه.

﴿وان عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾[٢]، لقد مدح الله، الملائكة بالكرامة والجلالة، قال تعالى: **﴿بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾**[٣]. كرامة الملائكة هي في طاعة الله، في أنهم تابعون لأمر الله، لا يسبقون أمره، وليس لديهم مشروع أو رغبة ابتدائية من أنفسهم، ولا يقومون بأي عمل، قبل أمر الله، يريدون ما يريد الله، وينفذون ما يأمر الله، تابعون في القول، ومطيعون في العمل.

وهذه الصفة الممتازة أدت الى كرامة الملائكة، وقد علّم الله، الناس هذه الصفة لكي يصلوا الى الكرامة، قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا**

---

(١) سورة الانفطار، الآيات (١الى٥).

(٢) سورة الانفطار، الآيات (١٠ الى ١٢).

(٣) سورة الأنبياء، الآيتين (٢٦ و٢٧).

تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾[1] ، أيها المؤمنون، كونوا في جميع شؤون الحياة، تابعين لأمر الله سبحانه، والرسول الأكرم ﷺ، ولا تتقدموا أبداً على الله، ورسوله الكريم، ولا تكونوا مستقلين وتابعين لرأيكم، وليكن كل كلامكم وسلوككم، بعد أمر الله سبحانه، وهذا هو طريق الكرامة الذي بيّنه الله للناس.

قال تعالى: ﴿وان عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾، فاذا شاهدتم عين أعمالكم يوم القيامة، فان الملائكة شاهدة لأعمالكم في جميع الأحوال ﴿يعلمون ما تفعلون﴾، انهم يرون ظاهر العمل وباطنه، ويعلمون ارادتكم ونيتكم، ويكتبون تلك الارادة مع هذا العمل في عين الوجود الخارجي، في مكان واحد، لا أنهم يكتبون في دفتر لفظي.

ورد في جوامعنا الروائية، ان القلم الذي يكتب الحقائق، هو من ملائكة الله، وان ذلك اللوح الذي هو وعاء الحقائق، مَلَك من ملائكة الله «ان اللوح والقلم ملكان من ملائكة الله»[2] ، وقد لُفت انتباه الناس الى هذه الكرامة في كثير من آيات القرآن، حتى يبلغوا مقام الكرامة الشامخ، عن هذا الطريق. والكتاب الذي نزل لتعليمنا وتربيتنا، قد نزل بأيدي ملائكة كرام ﴿بأيدي سفرة * كرام بررة﴾[3] ، هؤلاء كرام، يريدون ان ينال الناس مقام الأبرار الشامخ.

والله تعالى لا ينسب كتابة الأعمال هذه الى الملائكة فحسب، بل يذكر انه هو يكتب أعمال الانسان كذلك، يكتب أي عمل يقوم به أي شخص،

---

(١) سورة الحجرات، الآية (١).

(٢) تفسير نور الثقلين، آخر الآية الأولى من سورة القلم.

(٣) سورة عبس، الآيتين (١٥ و١٦).

وكل عمل يقوم به الأشخاص، سواء كان حسناً أم سيئاً، مسجّل ولا يزول أبداً ﴿**فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون**﴾(١).

ان لسان القرآن الكريم في بيان جزاء السيئة، مطلق، ولكنه مقيد في بيان ثواب الحسنة والعمل الصالح، فبشأن السيئة يبين ان كل انسان، يجازى اذا ارتكب عملاً سيئاً، سواء كان مؤمناً، أم كافراً، لكنه لا يقول بشأن العمل الصالح، ان هناك ثواب أخروي لكل من يقوم بحسنة وعمل صالح، لأن العمل الصالح لا يكون مقبولاً الا في حالة صدوره عن نفس مؤمنة ومعتقدة، فقبول عمل الخير مقيد بالحسن الفاعلي، اما عقاب عمله فغير مقيد بالقبح الفاعلي، فالانسان يجازى على عمله السيّء، سواء كان فاعله مؤمناً، ام كافراً. اما اذا لم يكن الشخص معتقداً بالله والقيامة، وقام بعمل خير، فان هذا العمل لا يكون سبباً لدخوله الجنة في يوم القيامة، لأنه لم يقم بالعمل لله ولثواب يوم القيامة، وعمر كل عمل يرتبط بنية وإرادة صاحب ذلك العمل، كل عمل لا يكون لله، فهو قصير العمر، ذلك لأن رؤية الكافر للكون مغلقة ومحدودة، انه يؤدي العمل في اطار الطبيعة، وروح العمل هي التي تحييه، فاذا كانت ارادة الكافر منحصرة في حدود الطبيعة فقط، وكان اعتقاده في حدود المادة فحسب، ولم يفكر خارج منطقة الطبيعة والمادة، ولم يعتقد بأنه يجب اعطاء ذلك العمل دواماً وبقاء وجعله خالداً، فان عمله لا يظهر أبداً في يوم القيامة، ﴿**وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً**﴾(٢). ليس لهذا العمل ظهور وحياة في يوم القيامة، لأن كل عمل

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (٩٤).

(٢) سورة الفرقان، الآية (٢٣).

يدوم بمقدار روحه.

أحياناً يشكل انه لماذا يجب ان يعذب الفرد الذي ارتكب معصية في فترة قصيرة بعذاب أبدي؟ الجواب هو أن هذا العمل قد صدر عن روح صاحب العمل، وهي روح مظلمة الى الأبد، والانسان الكافر لديه روح لا تزول أبداً، وهي مظلمة الى الأبد، لأنه لم يصدق ويؤمن بالحقيقة قبل يوم القيامة ولا يمكنه الاعتقاد في يوم القيامة أيضاً. ان القيامة هي يوم ظهور الحق، وليست يوم الايمان لأن الايمان فعل اختياري، والارادة هي التي تفصل بين الانسان وايمانه، وفي يوم القيامة لا يصدر العمل عن الانسان بوصفه عملاً اختيارياً والا لكان ذلك الموطن عالم تكليف أيضاً «ان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل»[1] والكفار يرون الحق يوم القيامة، لكنهم لا يستطيعون الايمان، يقولون: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾[2] الا انهم لا يتمكنون من الايمان، لأن ذلك الموطن، ليس محل ايمان، ليس موطن كسب سعادة جديدة، لذا يقولون: ﴿فارجعنا نعمل صالحاً﴾[3]، أي عذاب أسوأ من أن يرى الانسان الحق ولا يستطيع الايمان به، لقد كان الايمان ممكناً لهذا الانسان المفسد في الدنيا وكان الحق ثابتاً، وفي الآخرة لا يمكن الايمان في ذلك الموطن وان كانت الحقيقة تثبت بشكل واضح.

وبناء على هذا، فان في كل مرة يتكلم القرآن فيها عن العمل الصالح، يشير الى انه إنما يقبل فيما لو كان لدى الانسان الذي يقوم بهذا العمل، نفس إلهية طاهرة، كالآية ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة

(١) نهج البلاغة للفيض، الخطبة ٤٢ ص ١١٩.
(٢) سورة السجدة، الآية (١٢).
(٣) سورة السجدة، الآية (١٢).

طيبة﴾[١] والآية ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له لكاتبون﴾[٢]، رغم ان كل عمل يسجل بأيدي الملائكة، هو عمل الله، لأنهم مأمورون من قبل الحق، ليس صحيحاً ان الملائكة مستقلون عن الله، وان الله غير محيط حقيقة بأعمال الملائكة لكي تنسب بالتالي أعمال الملائكة الى الله بالمجاز. فالله «مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة»[٣]، والملائكة هم مظهر الفاعلية الإلهية، وهم من الأسماء الفعلية لله، وعمل الملائكة هو عمل الله في مقام فعل الله، بالاضافة الى ان هذه المعاني هي في مرحلة أعلى بشكل بسيط ومجرد محض.

﴿وانا له لكاتبون﴾، أي اننا ندوّن تلك الأعمال سواء الأعمال الفردية أو أعمال المجتمع الجماعية، وقد ورد بشأن الأعمال الفردية، كما أشرنا في ختام البحث السابق ﴿وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا﴾[٤].

ان بعض الأوصاف والأعمال، تعلّق كالطوق في أعناق أصحابها، مثل البخل الذي يعلّق كالطوق في عنق الانسان البخيل الذي لم يؤدِ الحقوق الإلهية. ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾[٥]، يقول هنا: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا﴾، كل انسان يرى كتابه منشوراً ومفتوحاً، يرى كل الأعمال التي قام بها خلال عمره، مفتوحة وواضحة ومنتشرة ومنفصلة عن بعضها الآخر، لا أنه يراها بشكل مجمل، ولا انه يرى الوجود الكتبي

---

(١) سورة النحل، الآية (٩٧).
(٢) سورة الأنبياء، الآية (٩٤).
(٣) نهج البلاغة للفيض، الخطبة الأولى.
(٤) سورة الاسراء، الآية (١٣).
(٥) سورة آل عمران، الآية (١٨٠).

واللفظي لها، بل يرى عين الأعمال منشورة ومفتوحة وظاهرة، ثم يقول: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[1]، لا تقرأ الوجود اللفظي للأعمال، بل شاهد نفس العمل، حيث أن شهود عين العمل قراءة لكتاب العمل، والانسان يرى في يوم القيامة كل أعمال فترة عمره بنظرة واحدة، عند ذلك يقول بمنتهى العجب: ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها﴾[2]، لأنه خرج من دائرة التدريج، فلا ذلك الكتاب هو في رهن التدريج، كما ان الانسان أيضاً قد تحرر من الطبيعة التدريجية للدنيا ودخل في عالم يمكنه دفعة واحدة رؤية جميع أعماله وأفعاله حاضرة ومشهودة.

واذا لم تكن كتابة الأعمال بمعنى الوجود الكتبي واللفظي لها، فان قراءتها لا تكون بمعنى تلفظ الوجود الكتبي واللفظي لها، وكتابة الملائكة هي ككتابة الله سبحانه، ليست بشكل الكتابة المتعارفة، وتعبير القرآن الكريم هو: ﴿انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾. وبناء على هذا، فان هذين الأصلين من أصول القرآن المطروحين بشأن المعاد، أي مسألة حضور الأعمال ومسألة كتابة الأعمال، والتي بيّنت سور الحواميم مواضيع مفيدة حولهما، اذا كانا متقاربين ومرتبطين، واذا اتضح معنى حضور وظهور الأعمال ومعنى كتابة الأعمال وقراءة الأعمال، فان مسألة وزن الأعمال تصبح واضحة كذلك، وهذا العمل المكتوب في الكتاب الالهي يكون اما خفيفاً او ثقيلاً، واذا كان الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة هو الحق اذ ان نفس الميزان حق ووحدة الوزن التي توزن بها المواد أيضاً حق، ﴿والوزن يومئذ الحق﴾[3]، فالشخص الذي لم يقم بأي عمل حق ليس لديه وزن وميزان

---

(١) سورة الاسراء، الآية (١٤).

(٢) سورة الكهف، الآية (٤٩).

(٣) سورة الاعراف، الآية (٨).

والشخص الذي لم يعمل شيئاً لله، فان أعماله لا توزن، لأنها كلها خفيفة، وهو أيضاً يجد أعماله خفيفة، والعمل الخفيف والذي لا وزن له لا يوضع في ميزان الحق، لذا قال القرآن الكريم بشأن الكافرين: ﴿**أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً**﴾[1]، فبما أن وحدة الوزن هناك حق، ويوزن العمل بالحق، فان العمل الذي لا يكون لله، ليس فيه حقيقة، ولعدم وجود حقيقة في ذلك العمل، ليس له أي وزن. ولأنه بلا وزن، فانه لا يؤتى به الى ميزان الحق، واذا كان قد قال تعالى: ﴿**وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾[2]، يتضح ان ذلك انما هو فيما يتعلق بأعمال المؤمنين.

ان على المؤمن ان يكون منتبهاً، وعلى الانسان المعتقد أن ينتبه الى أن كل عمل يقوم به، يحاسب عليه، فالميزان له، اما للكافر فليس هناك من وزن، فعمل الكافر خفيف، والعمل الخفيف لا يوضع في الميزان، لأنه سراب، والسراب لا يقبل الوزن، رغم ان كل انسان يشاهد ما عمله، سواء كان حسناً أم سيئاً.

وهذا الميزان ليس له كفتان ظاهراً، بل كفة واحدة، حيث ان عين الحق وزنه، والعمل يوزن بالحق ﴿**والوزن يومئذ الحق**﴾. والباطل حيث انه ليس له أي نصيب من الحق، فلا يوضع في ميزان الحق واستناداً الى الآية ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾[3] فكل انسان يشاهد ما يراه لكن الكافر يرى ان عمله ليس له لب، ولأنه خال من

---

(١) سورة الكهف، الآية (١٠٥).
(٢) سورة الأنبياء، الآية (٤٧).
(٣) سورة الزلزلة، الآيتين (٧ و٨).

اللب وليس له وزن، فهو لا يقبل الوزن، لذا قال: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾. وطبعاً هناك حساب واضح لدركات الكفار، مثلما ان لدرجات المؤمنين حساب واضح، ويتم دراسة دركات الكافرين بدقة، كما هو الحال بالنسبة لدرجات المؤمنين، وذلك موضوع آخر.

والنتيجة هي ان للفرد كتاب وكذلك للمجتمع والأمة. فالفرد مسؤول تجاه وظائفه، وللمجتمع أيضاً وظائف اجتماعية. وكتابة الأعمال لا تعني الوجود اللفظي والكتبي لها، بل تدوين وحفظ نفس الأعمال الخارجية.

ان مسألة كتابة الأعمال تقبل الانطباق مع مسألة ظهور وحضور الأعمال. ومسألة كتابة الأعمال ومسألة حضور الأعمال تنسجمان مع مسألة وزن الأعمال كذلك. وكتّاب هذا الكتاب، هم الملائكة، والله تعالى أيضاً.

نرجو الله تعالى ان يوفق الجميع الى ان لا يفكروا الا بالحق ولا يرون الا الحق. لا يقولوا الا الحق ولا يسيروا الا في طريق الحق. اللهم اجعل حياتنا حياة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، ومماتنا ممات أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام. وان لا تفصل بيننا وبين أنبيائك وأوليائك العظام في الدنيا والآخرة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس التاسع

كيفية نزول القرآن

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

بالرغم من ان جميع آيات القرآن الكريم، قد نزلت من مبدأ واحد، وتدعو الناس الى منتهى واحد وتوجههم في صراط مستقيم واحد، اي ان قوسها النزولي وخط صعودها واحد. الا ان كل منها تشرح للبشرية شعاعاً خاصاً من حقيقة الله سبحانه، الذي هو نور السماوات والأرض. ان كل آية من القرآن هي نافذة، وكل سورة منه باب من أبواب رحمة الله اللامتناهية، التي تعرّف الناس ببدء وانتهاء الكون. مثل السماوات التي تكون في يوم القيامة، ابواب رحمة ﴿فكانت أبواباً﴾[1] اي أن كل السماوات هي باب، لا ان جزءاً منها باب، والقرآن كله باب رحمة الله، لا ان بعضه باباً، كما ان الامامة هي باب النبوة «أنا مدينة العلم وانت يا علي بابها»، وقول رسول

---

(١) سورة النبأ، الآية (١٩).

الله ﷺ، هذا لا يعني أن بعض أطراف مدينة العلم، باب، وتلك الباب هي الامام علي بن أبي طالب، بل ان كل أطراف مدينة العلم، باب وتلك الباب الواسعة هي الامام علي عليه السلام، الذي هو بمنزلة نفس النبي، على أساس ﴿**وأنفسنا وأنفسكم**﴾، اي أن مقام الامامة يبين مضمون النبوة باستثناء مقام التشريع، ان هذين المعصومين عليهما السلام، كل منهما يبين الآخر، الا ان أحدهما سمّي بوصفه باب العلم والآخر، بوصفه مدينة العلم، ومع ان القرآن كله ابواب رحمة الله، وسوره منسجمة ومتناسقة، وكل منها منعطفة الى الأخرى الا ان محتوى بعض السور، مواضيع خاصة، لم تبيّن في سور أخرى بهذا الوضوح، ومن هذا القبيل تبحث الحواميم السبع في القرآن بشأن محتوى خاص. ورغم ان ذلك المحتوى قد بيّنته سور أخرى في القرآن، الا ان هذا المضمون قد بيّن في هذه السور السبع بشكل أفضل وأكثر انسجاماً، ان مضمون هذه السور السبع هو شرح الوحي وأهمية الوحي وكيفية نزول الوحي وما جاء به الوحي، كما انها تبين ما جاء به الوحي في الأصول الثلاثة، التوحيد والنبوة والمعاد، وتبين أصل الوحي في مرحلتين.

في سورة الدخان التي هي احدى الحواميم السبع عندما يبين قضية الوحي ونزول القرآن ويقول: ﴿**حم * والكتاب المبين * انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين**﴾[1]. والقسم في القرآن، كما تقدم في بحث القَسَم، هو بالبيّنة، وليس في مقابل البيّنة، اما القَسَم الموجود لدى الناس وما يطرح في المحاكم، هو في مقابل الشاهد والبيّنة، فالشخص الذي لا يقيم بيّنة، يَقسِم، اما الله، فهو حين يَقسِم، يقسم بنفس البيّنة، واذا كان لدى الأنبياء بيّنة ﴿**اني على بيّنة من**

(١) سورة الدخان، الآيات (١، ٢، ٣).

ربي﴾[1] ، فان الله الذي هو نور السموات والأرض، يتكلم ببيّنة، بالتأكيد، وقَسَمه لا يكون في مقابل بيّنة، بل ان الله سبحانه يُقسِم ببيّنة، كما لو يقول الانسان أقسم بالشمس ان الوقت نهار الآن، يقال للعطشان، أقسم بهذا النبع الزلال انك اذا شربت من ما فيها، فانك ترتوي. والقَسَم في الحالات المذكورة، هو قَسَم ببيّنة وليس في مقابل بيّنة.

ان الله تعالى يقسم بالكتاب المبين، لأن هذا الكتاب مبيّن لكل المعارف، وهو دليل للانسانية، لذا يقسم بالكتاب المبين، وهذا الكتاب المبين الذي يبين الأصول الثلاثة، التوحيد والنبوة والمعاد، يبيّن بدقة، الرؤية الكونية الالهية، نزل هذا الكتاب في ليلة واحدة ﴿انا أنزلناه في ليلة مباركة﴾، لماذا أنزل الكتاب؟ لأن السنة الإلهية تقوم على تخويف البشر من عواقب أعمالهم السيئة، فالانذار والتخويف من عواقب الفساد الخطيرة، سنة إلهية، وقد خوّف الله، البشر، في كل العصور الماضية من العواقب الخطيرة للأعمال السيئة، وأرسل الأنبياء لتبشيرهم على أعمالهم الخيرة، وانذارهم وتخويفهم ازاء الأعمال السيئة، والانسان اذا لم ينذر وترك لحاله، فانه يسقط، ان الله قد أرسل الأنبياء بوصفهم مبشرين ومنذرين، ولكن مع هذا فان تعبير القرآن الكريم بالنسبة لهاتين الصفتين، ليس واحد، فقد أرسل الأنبياء بصفتين، صفة بشير ونذير، لكنه لم يقل لنبيّه، أبداً، انك أرسلت لغرض البشرى فقط، اما بشأن صفة الانذار فيقول بصورة الحصر ﴿ان أنت الا نذير﴾[2] ، ويقول رسول الله ﷺ ﴿ان انا الا نذير﴾[3] ، أي أنني ليس لدي مسؤولية غير الانذار، فهناك حصر اضافي بشأن الانذار، وليس

(١) سورة الأنعام، الآية (٥٧).
(٢) سورة فاطر، الآية (٢٣).
(٣) سورة الأعراف، الآية (١٨٨).

كذلك بشأن البشرى، لأن الانذار له أهمية، تفتقدها البشرى، والانسان ان لم يخوّف من العاقبة السيئة للفساد، فانه يسقط، ويصاب بالشهوة، وينحرف نتيجة الشهوة، لذا قال الله: ﴿انا كنا منذرين﴾، اي أننا نخوّف الانسان من العاقبة السيئة، لأن الانذار سنّتنا ومن هنا أنزلنا القرآن، فانزال القرآن قائم على سنة إلهية، وهي اخافة المجتمع من عاقبة العمل السيّىء، والقرآن الذي بيّن جيداً، معارف المعاد، هو أفضل وسيلة للانذار من الفساد. والآن يدور البحث حول كيفية نزول القرآن في ليلة واحدة؟ أي كيف قطع الرسول الأكرم ﷺ اكثر من ستة آلاف آية في ليلة واحدة؟ كيف سار في ليلة واحدة في آلاف الخزائن الإلهية؟ روي عن الامام السجاد سلام الله عليه، قوله بأن كل آية من الآيات القرآنية هي خزينة من خزائن العلم الالهي. ومعنى نزول القرآن في ليلة واحدة، هو ان رسول الله ﷺ قد زار هذه الخزائن في ليلة واحدة، فأي سير هذا؟ وأي سفر هذا؟.

يقول الشاعر الفارسي ما ترجمته: «لقد كان ذهابه بنحو وكذلك عوده بشكل لا يدرك في ذهن بشر».

ان ليلة نزول القرآن هي في الحقيقة، هي ليلة معراج رسول الله ﷺ. وان كان معراج النبي ﷺ المعروف هو غير هذا المعراج. وان كان بحث المعراج، هو غير بحث نزول القرآن، ولكن ما لم يرتفع الانسان الكامل عن عالم الطبيعة، فانه لا يدرك القرآن في جميع أبعاده، واذا أراد أن يدرك القرآن في حدود ﴿انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[1]، فقط، وفي حدود ثقافة العرب، في حدود كونه عربياً في حدود كسوة اللفظ ورداء الكتابة وثوب الكلمة والكلام، في حدود الآية والسورة، والخلاصة

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٣).

في حدود القرآن التدويني، فذلك يستلزم ان لا يكون قد قطع المدارج الغيبية لله، ولم يصل الى مرتبة أم الكتاب، في حين ان الله يقول: **﴿وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾**[1] . والانسان لا يجد أم الكتاب، ما لم يعرج، فالقرآن قد نزل، والرسول قد عرج، فالرسول تلقى القرآن في أم الكتاب، والقرآن نزل الى عالم الطبيعة في قوس النزول. **﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين﴾**[2] كانت تلك الليلة، ليلة مباركة، إذ نزل القرآن من مبدأ الوحي كما عرج الانسان الكامل من عالم التراب، فالقرآن نزل من مرتبة الغيب الى عالم الشهادة كما ان روح النبي ارتفعت من مرتبة الشهادة الى عالم الغيب. ولو لم تصعد روح النبي ﷺ الطاهرة، ولم يشاهد حقيقة القرآن في أم الكتاب، فذلك يستلزم ان يشاهد بعد واحد للقرآن، وهو مرتبة العربية وكونه يحمل مفهوماً ذهنياً، والمسألة التي تطرح هنا، هي ان الله ذكر ان هذا القرآن الذي يبين المعارف، قد أنزله في ليلة واحدة، وفي مواضع أخرى قال: **﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم﴾**[3] ، والذي يدل على التدريج، أو قوله: **﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾**[4] . اعترض البعض على مسألة عدم نزول القرآن دفعة واحدة؟ فقال تعالى لقد انزلناه تدريجاً لكي يستوعب تدريجا. يقول تعالى: **﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾**[5] . فكيف الجمع بين هاتين الطائفتين من الآيات؟ كيف

---

(١) سورة الشعراء، الآيتين (١٩٣ و١٩٤).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٤).
(٣) سورة النحل، الآية (٤٤).
(٤) سورة الاسراء، الآية (١٠٦).
(٥) سورة الفرقان، الآية (٣٢).

ذكر الله ان القرآن كله قد أنزله في ليلة مباركة، وفي جزء آخر من القرآن يشير الى ان القرآن قد أنزله بالتدريج، حتى يقرأه النبي ﷺ للناس بالتدريج فتارة يعبر عن نزول القرآن بالتفريق والتدريج كما يقول في جواب الذين قالوا «لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة» انه يجب ان ينزل بالتدريج لكي تتعرفوا الى معارفه بالتدريج. كما قال للرسول ﷺ انه أنزلناه بالتدريج **﴿ما نثبت به فـؤادك﴾**، فهناك قسمان من الآيات في القرآن، قسم يدل على أن القرآن، نزل، دفعة واحدة كما في الآية تلك من سورة الدخان، وقسم آخر هي تلك الآيات التي تذكر أن القرآن نزل تدريجاً، فكيف نجمعهما؟ ان الآيات التي تشير الى نزول القرآن في ليلة واحدة، ليست قليلة، قال تعالى في سورة القدر: **﴿انا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر﴾**[1]، فكيف نجمع بين قول الله سبحانه، في عدة مواضع من القرآن، بأن القرآن قد أنزلهُ في ليلة واحدة، وقوله تعالى في آيات أخرى، انه أنزله بالتدريج؟ وليلة القدر هي في شهر رمضان المبارك أيضاً، لأنه قال في سورة البقرة: **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾**[2].

وقد اعتبر الله تعالى، أهمية شهر رمضان المبارك من خلال نزول القرآن فيه حيث يصف الله سبحانه شهر رمضان بنزول القرآن، فهل نزل القرآن مرتين؟ أي أن هذا القرآن قد نزل كله دفعة واحدة في ليلة القدر، ونزل كله بالتدريج مرة أخرى، طيلة سنين عديدة؟ أم انه نزل مرة واحدة، بالتدريج خلال ثلاث وعشرين سنة؟ ان مسألة نزول القرآن مرتين، لا تقبل النقاش ظاهراً، لأن بعض الآيات تشير الى أن القرآن كله قد نزل تدريجياً

---

(١) سورة القدر، الآيات (١و٢و٣).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٥).

خلال رسالة النبي ﷺ، وهناك آيات أخرى تذكر ان هذا القرآن قد نزل دفعة واحدة. لا يمكن القول ان الآية **﴿انا أنزلناه في ليلة القدر﴾**، تعني ان الآية الأولى فقط، نزلت في ليلة القدر، او ان بعض الكتاب المبين، قد نزل في ليلة القدر. ان معنى **﴿حم * والكتاب المبين * انا أنزلناه في ليلة مباركة﴾**[1]، في الظاهر هو انزال هذا الكتاب المبين دفعة واحدة، فهل ان طريق الجمع بين هاتين الطائفتين من الآيات هو في القول بأن القرآن كله قد نزل مرتين؟ مرة بالتدريج، ومرة دفعة واحدة؟ ام انه نزل مرة بشكل اجمالي، ومرة أخرى بالتفصيل خلال فترة ثلاث وعشرين سنة، فيكون انزاله راجعاً بالاجمال وتنزيله راجعاً للتدريج والتفصيل؟ ام يجب اختيار طريق آخر للجمع بين الطائفتين؟ ان من المسلّم به من ناحية معرفة القرآن، ان جميع الآيات منسجمة مع بعضها الآخر، ولا يوجد في القرآن اختلاف أبداً، **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا﴾**[2]. والقرآن كله معطوف على بعضه، أي ان الست آلاف ونيف آية، ليست شبيهة بستة آلاف عمود مستقيم منفصلة عن بعضها الآخر، وانما كالجدران الهلالية المرتبطة ببعضها البعض، بحيث اذا رفع أحد هذه الهلاليات، يسقط الجميع، وثبات أي منها مرتبط بثبات الآخرين، ومن هنا اذا أنكر شخص آية قرآنية، فانه أنكر كل القرآن، واذا قَبِل شخص آية واحدة من القرآن، فيجب ان يكون قد قَبِل بجميع القرآن، وان أراد أحد، فهم آية واحدة، فعليه ادراك عمق جميع الآيات، واذا كان محروماً من ادراك عمق سائر الآيات، فانه لا يستفيد أبداً من عمق الآية المطلوبة، بل يستفيد منها بمقدار ضعيف، ومن هنا، قال الله

---

(١) سورة الدخان، الآيات (١و٢و٣).

(٢) سورة النساء، الآية (٨٢).

سبحانه : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾[1] .

أي أنزل أحسن الحديث منسجماً ومتشابهاً ومنثنياً ومنعطفاً على بعضه وهو هذا القرآن كما مر مفصلاً في الأبحاث السابقة ولما كان القرآن كله منسجماً، وليس هناك أي اختلاف بين آياته، فاننا متيقنون ان لا اختلاف بين الآيات التي تشير الى ان القرآن نزل، تدريجياً، والآيات التي تذكر ان القرآن نزل دفعة واحدة. فهل [illegible]ن تفسير الانزال دفعة واحدة، بالاجمال، والانزال التدريجي، بالتفصيل، أي نقول ان اجمال القرآن وخلاصة القرآن نزلت مرة واحدة في ليلة القدر، ونزل تفصيله تدريجياً، خلال ثلاثة وعشرون عاماً، كما ذكر بعض المفسرين، ام لا؟.

في البداية يجب الالتفات الى ان القرآن التدويني الذي يذكّر بالحوادث الجزئية للمجتمعات البشرية، كحوادث السلام والحرب والوقائع الاقتصادية والاجتماعية ويبيّن القضايا المختلفة مع احكامها، لا يمكن ان يكون قد نزل دفعة واحدة، لأن هذه الآيات تبيّن الوظائف التدريجية للفرد أو المجتمع، فعند كل حادثة تقع، كانوا يسألون رسول الله ﷺ، وينزل الجواب، كالآية ﴿والله يسمع تحاوركما﴾[2]، وهذه كانت من الحوادث التي أجاب عنها القرآن، وكان النبي ﷺ يسأل أسئلة مختلفة في ظروف خاصة، فتنزل أجوبة خاصة. والكتاب الذي يبين حوادث ثلاث وعشرين سنة، واحدة تلو الأخرى، ويبين الحكم المتعلق بكل حادثة الى جانبها، لا يمكن ان يكون قد نزل مرة واحدة، فالتعليمات التدريجية والبرامج التدريجية، تتبع حوادث تدريجية، وقوانين كهذه لا تنزل مجتمعة ودفعة

---

(١) سورة الزمر، الآية (٢٣).

(٢) سورة المجادلة، الآية (١).

واحدة. ان هذه الآيات التفصيلية والسور المفصلة المتضمنة احكاماً جزئية وحوادث متنوعة وأجوبة وتعليمات مشخصة ومحدودة، لا يمكن أن تكون قد نزلت دفعة واحدة، اما اذا كان هناك اجمال وتفصيل بشأن القرآن، فان بالامكان القبول بهذا المعنى وهو ان تفصيله كان خلال ثلاثة وعشرون عاماً، اي ان هذا القرآن لا ينزل دفعة واحدة، بما فيه من سعة، وما نزل في ليلة القدر لا يمكن أن يكون آيات مفصلة وسور منفصلة عن بعضها الآخر، بالنظر للبعد الزماني، وبُعد حروفه وبُعد كلماته وبعد تدريجه، اذن ما هو معنى ذلك الاجمال حتى ينسجم مع هذا التفصيل التدريجي خلال ثلاثة وعشرون عاماً؟ ان القائلين بأن اجمال اقرآن قد نزل في ليلة القدر وتفصيله كان خلال ثلاثة وعشرين عاماً، اعتبروا ان المقصود من الاجمال، ليس الابهام والخلاصة، فمرة يقول مذيع الأخبار، خلاصة الخبر وتفصيل الخبر. وتفصيل الخبر يقابل خلاصة الخبر خلاصة الخبر مبهمة، وتفصيله مبيّن، واجماله لا يعبر عن جميع المضامين بالتفصيل، الا بشكل ضعيف ومبهم وذلك الابهام، تبيّنه الأخبار المفصلة. وخلاصة الأخبار لا تبين كل القضايا مفصلة، فهل القول بأن اجمال القرآن قد نزل في ليلة القدر، وتفصيل القرآن خلال ثلاث وعشرين سنة، يعني الخلاصة والتفصيل بذلك المعنى؟ أي المجمل في قبال المبين، ام لا؟ فتارة يكون الاجمال في مقابل التفصيل، اي ان ذلك المجمل مبهم، وذلك المفصل مبين، وتارة يكون الاجمال في قبال التفصيل، اي البسيط في قبال المركب. كأن يقال ان المجتهد هو الذي لديه ملكة الاجتهاد، وملكة الاجتهاد هذه مجملة لجميع مسائل تفصيل الفقه؟ والحكيم عالِم في مراحل العقل بالمستفاد بجميع مسائل الرؤية الكونية الفلسفية بشكل اجمالي.

وما يكتبه في الكتاب الفلسفي هو تفصيل لما يعلمه في مقام ملكة الاجتهاد والملكة الفلسفية، والفقيه المشهور الذي لديه ملكة اجتهاد فقهي، هذا الاجتهاد المطلق هو مقام اجمال، وذلك التدوين للكتب الفقهية في مقام التفصيل، لا ان ذلك المجمل في مقابل المبين، بمعنى ان يكون المبهم في قبال المعين والمبين، بل يوضع البسيط في قبال المركب. ان الفرق بين الاجمال والتفصيل، ليس هو الفرق بين الابهام والتبيين، بل فرق بين البساطة والتركيب، وذلك العلم الاجمالي المطروح في الأصول، هو علم تفصيلي واحد وشكان صرفان، وذلك العلم الاجمالي مصحوب بالجهل والشك، والانسان الذي يعلم مسألة بالتفصيل، لكنه لا يعلم حالاتها، فان تلك المسألة التي يعلمها، معلومة بتفصيله، والحالات التي لا يعرفها هي حالة جهل بسيط وشك محض. وذلك الاجمال والتفصيل المطروح في الأصول، هو علم ممزوج بالجهل والشك، وذلك المجمل والمبين المطروح في الأصول، هو ابهام في قبال التبيين. اما الاجمال والتفصيل المطروح في هذا البحث، فهو بساطة في قبال التركيب. فالمجتهد المطلق الذي لديه ملكة الاجتهاد، تكون تلك الملكة اجمالاً لآلاف المسائل الفقهية التفصيلية فتلك الآلاف من المسائل التفصيلية هي ملكة الاجتهاد المجملة هذه ومملكة الاجتهاد هذه مجملة، وآلاف المسائل الفقهية تلك، تفصيلية، وذلك التفصيل هو قبال هذا الاجمال، أي تفصيل مقابل بساطة ومفصل مقابل بنيط، وليس مبهم في مقابل مبين، وفي ليلة القدر نزلت جميع معارف القرآن بشكل مجمل أي بشكل بسيط شبيه بالملكة الاجتهادية في الفقه ونظير التمكن من الرؤية الكونية في الفلسفة التي تحمل لغواً بسيطاً جميع الحقائق. وتفصيل تلك الحقيقة الواحدة والبسيطة هو تفصيل تلك

الحقيقة البسيطة خلال ثلاث وعشرين سنة، وهذا التحليل يمكن ان يكون تفسير مناسب لنزول القرآن الكريم. وهناك توضيح آخر ذكره الأستاذ العلامة الطباطبائي ـ رضوان الله تعالى عليه ـ في تفسير الميزان، وهو ان تفصيل القرآن لم ينزل مرتين، أي لم تنزل معارف القرآن في ليلة القدر، ثم نزلت مرة أخرى طيلة ثلاث وعشرين سنة، بل ان القرآن له مرتبة بسيطة وصيانة من التغيير، وله كذلك مرتبة تفصيل صالحة للتغيير بنحو الناسخ والمنسوخ وأمثال ذلك ويقال لكلا المرحلتين، قرآناً، وما نزل على القلب المطهر للرسول الأكرم ﷺ، في ليلة القدر، دفعة واحدة، هو المرتبة البسيطة المصانة من التغيير، اما ما نزل خلال ثلاث وعشرين سنة فهو مرتبة التفصيل والكثرة والتي تنسجم مع تغييرات الناسخ والمنسوخ. وهذا التحقيق رغم انه يقبل التطبيق مع بعض الشواهد القرآنية والروائية، ولكن يجب الالتفات الى ان نزول ذلك المعنى البسيط للقرآن مع ليلة القدر، لا ينسجم الا حين يكون اجماله ممزوجاً مع الكشف التفصيلي، واذا كان اجماله هو بساطة صرفة، حيث ان ذلك من لوازم كونه ام الكتاب ومقام حمل القضاء، فانه لا يكون مناسباً أبداً مع النزول في ليلة القدر التي هي ليلة مقدار، ولكن اذا كان اجماله بمعنى كونه بسيط الحقيقة، وينسجم مع الكشف التفصيلي، فان هذا التفسير يمكن ان يبين نزول القرآن في مرحلتين، فمرة نزلت كل المعارف القرآنية من دون لفظ على رسول الله ﷺ، ومرة أخرى نزل في كسوة اللفظ وفي رداء اللغة خلال ثلاث وعشرين سنة. ﴿انا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وطبقاً لما ذكره الأستاذ ـ رحمه الله ـ فان ليلة القدر ليلة مباركة، لأن القرآن نزل فيها بشكل مفصّل ولكن لماذا يجب ان يكون ذلك الاجمال في عين الكشف التفصيلي؟ لأنه ﴿فيها يفرق كل أمر

حكيم﴾[1] ليلة القدر تلك، هي ليلة مقدار وليست ليلة اجمال، ليلة تفصيل، لا ليلة تلخيص، ليلة هندسة ومقدار، لا ليلة رسم خطة عامة، ونزول القرآن في ليلة القدر، كان نزولاً بقدر ومقدار وهو اجمال في عين الكشف التفصيلي، اذا كانت جميع الأمور تنفصل عن بعضها الآخر في ليلة القدر، فأن المعارف القرآنية قد نزلت منفصلة عن بعضها البعض، على القلب المطهر لرسول الله ﷺ، والنبي ﷺ قد فتح في ليلة واحدة أبواب أكثر من ست آلاف خزينة وشاهد ذخائرها عن قرب، لا انه قام بسير اجمالي بمعنى الابهام، في ليلة واحدة، ذلك لأنه لا يوجد محض ابهام في مقام التجرد أولاً وثانياً ان ليلة القدر ليست اجمالاً، ليلة القدر ليلة مقدار وهندسة وكثرة، ليلة القدر، وليست ليلة القضاء، وكان لرسول الله ﷺ، حضور في مقام القضاء أيضاً **﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾**، اما في ليلة القدر وهي ليلة تفصيل، ليلة تفريق الأمر، يجب ان يكون رسول الله ﷺ، قد وجد جميع الآيات، مفصلة **﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾**، لأنه بيّن أصل التفصيل في سورة هود **﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت﴾**، وبيّن ذلك في سور أخرى، ان أحد المقامات هو مقام احكام، واجمال، ومقام آخر، مقام تفصيل. وقال تعالى في سورة الزخرف أيضاً **﴿والكتاب المبين * انا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون * وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾**، فهو محكم في مرحلة التجرد التام ومفصل في مرحلة الطبيعة، وكل أمر محكم يفصّل في ليلة القدر، وكل قضاء، يقدر في ليلة القدر، وكل تلخيص يفصل في ليلة القدر، ولكن ليس في الخلاصة ابهام، ولا في القضاء، ابهام، وليس في أم الكتاب، ابهام، وليس هناك تدريج في

---

(١) سورة الدخان، الآية (٤).

خصوص هذا التفصيل، وبناء على هذا، يطرح في القرآن شكلين من التفصيل، احدهما تفصيل استمر ثلاث وعشرون سنة، وهو تفصيل زماني وتدريجي، والآخر تفصيل مقرون بالاجمال، أي انه مركب وفي نفس الوقت بسيط، لأن فيه جميع الحقائق التركيبية بنحو اللف والبساطة، فهو يحمل جميع الكمالات الكثيرة وفي نفس الوقت هو واحد، وبما ان هذه الكثرة هي في طول تلك الوحدة وليست في موازاتها، فعليه يمكن الجمع بينهما في موطن واحد، اي أنه موجود على شكل وحدة في أم الكتاب، وفي نفس الوقت تتوفر فيه جميع حقائق التفصيل والبيان اللاحق، لأنهما ليستا متوازيتين، حتى يكون اجتماع الاجمال مع التفصيل واقتران الوحدة مع الكثرة، غير ممكناً. وعلى هذا فاذا قلنا ان المعارف القرآنية نزلت على القلب المطهر لرسول الله ﷺ، بشكل تفصيلي في عين الاجمال، واجمالي في عين الكشف التفصيلي، ليس بصورة تفصيل تدريجي ومنظم زمنياً خلال ثلاث وعشرين سنة الذي لا ينسجم مع الاجمال، عند ذلك سوف يحافظ على معنى القدر، كذلك مثلما انه سيحافظ على مسألة كونه دفعة واحدة والتي تستفاد في الانزال، لأنه ورد التعبير بالانزال وليس التعبير بالتنزيل، كذلك تفسر مسألة النزول مرتين، والا فان الاجمال بلا تفصيل، لا يتناسب مع التقدير في ليلة القدر ﴿**فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا انا كنا مرسلين * رحمة من ربك انه هو السميع العليم**﴾[1]، أي أن ذلك الأمر الذي كان محكماً وبسيطاً عند الله سبحانه، قد فرق في ليلة القدر، وذلك القضاء البسيط قد كُثّر في ليلة القدر، وذلك الواحد قد تجلى، في ليلة القدر في مجالٍ متعددة. وذلك البسيط ظهر في ليلة القدر في مجالٍ مركبةٍ.

---

(١) سورة الدخان، الآيات (٤و٥و٦).

وهذا النزول هو بنحو التجلي، وليس التجافي، وهو التعبير الرفيع في نهج البلاغة الذي ذكر مراراً، حيث قال الامام: «فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير ان يكونوا رأوه».

ان القرآن مجلى ظهور الله، ومشاهدة المتكلم في كلماته يتطلب عيناً ملكوتية، والشخص غير العالِم بهذه المعارف، أعمى، فيتضح ان العالِم هو الذي يرى تلك المعارف، لا ان يعلم مفاهيمها فقط. العالِم هو الذي ينظر لا أن يكتب فحسب، العالِم هو الشخص الذي يدرك وليس الذي يقول فقط. يقول شيخ الاشراق في حكمة الاشراق: «خلاصة ما كتبته في هذا الكتاب، هو افاضة من الله تعالى، في احدى الليالي، وقد تعلمتها، ثم كتبت ما أدركته في ليلة واحدة، خلال فترة، في هذا الكتاب المفصل». وكتاب حكمة الاشراق للسهروردي، هو قرة عيون أصحاب المعارف في المبدأ والمعاد، حسب تعبيره وتعبير المرحوم صدر المتألهين. انه يقول ان الله علّمني خلاصة مواضيع هذا الكتاب، في ليلة واحدة. اذن يمكن قطع طريق عدة سنين، في ليلة واحدة، وليس هناك شخص كرسول الله ﷺ، قطع مسير ست آلاف آية ونيفاً في ليلة واحدة، وآيات القرآن هي خلاصة عالم التكوين، وليست ثمة حقيقة في العالم، لا يحويها القرآن وليس لديه رأي بها ولم يقلها، لكن القرآن نور وهداية، يمكن مشاهدته بنفس طاهرة وقلب منير. وهو ليس كالعلوم التجريبية، التي يستطيع الانسان استخدام مسائلها عن طريق العلم الاكتسابي.

اما الشخص الذي يصل مرحلة عالية، فانه يشرف على جميع العلوم التي تقع في مرحلة أدنى، أو ليست هذه العلوم وجودات مجردة؟ أو ليست العلوم جزء من الصور المجردة في الكون؟ او ليست هذه العلوم وجودات

خاصة؟ او ليس ام الكتاب حاوياً لها كلها؟ أو ليس **﴿وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾**(١) ، او ليس كل تلك الخزائن هي جزء من أم الكتاب، وهي كتب تفصيلية وتدريجية؟ أو ليس للانسان الكامل الذي هو ولي الله الأعظم اشراف واحاطة حضورية بجميع الخزائن الالهية وبكل ما دونها، حينما يصل الى أم الكتاب؟ بناء على هذا فانه يعرف جميع العلوم التفصيلية، والانسان الذي لم يبلغ تلك المكانة الرفيعة، لا يفهم الا هيكل القرآن، لا يعرف الا لغة القرآن، انه يتعرف على مقام التفصيل التدريجي للقرآن، ويعقد علاقة مع لفظ ومفهوم القرآن، وليس مع روح القرآن، ونحن لا نقدر على فهم جميع العلوم واستنباطها من القرآن. الغرض ان الليلة المباركة هي الليلة التي يتمكن الانسان من ادراك حقيقة، يقترن فيها الاجمال مع الكشف التفصيلي، ولا يكون هناك ابهام في دائرة تلك الحقيقة، لأن تلك الحقيقة بسيطة، وليست مبهمة والابهام لا ينفذ في البساطة، وليس شيخ الاشراق، وحده، بل هناك عدد آخر من العرفاء والحكماء الالهيين والاسلاميين قد حصلوا على هذا الفيض، فالتلاميذ الخواص للأنبياء والأولياء يستنشقون أحياناً تلك النفحات الالهية، فاذا كان رسول الله ﷺ قد رأى اكثر من ست آلاف خزينة إلهية، في ليلة واحدة، فان تلاميذه يمكنهم أيضاً من خلال السير في طريقه، فهم وادراك كثير من المعارف القرآنية والرؤية الكونية، في ليلة واحدة، وهذا الطريق غير مسدود امام الناس السالكين.

ان الانسان اذا سافر عن طريق القلب، وسعى في معرفة النفس، يستطيع ان تكون له ليلة قدر ويدرك اجمالاً بعض الأنوار الالهية، مع كشف

---

(١) سورة الحجر، الآية (٢١).

تفصيلي، ليلة القدر، هي ليلة التقدير ليلة القدر، ليلة هندسة، وكل شيء ينزل بقدره.

نرجو الله تعالى ان يوفقنا في ان تكون قلوبنا وعاء لمعارف القرآن الكريم، وان نقرأ آيات كثيرة في مقام التلاوة، خاصة في هذه الأشهر المباركة، شهر رجب، شهر شعبان، شهر رمضان المبارك، لأن تلاوة الآيات هي فضيلة **﴿يتلو عليهم آياته﴾**[1]، وان نأنس بعد التلاوة والقراءة، بالمعاني الرفيعة للقرآن، ثم نجعل هذه المعاني في أنفسنا كعلم راسخ، وان نقوم الى جانب ذلك بالعمل الصالح طبقاً لما أرشد اليه القرآن، حتى يكون القرآن معنا في الدنيا والآخرة، فاذا فعلنا هكذا، لم يتركنا القرآن ونكون مع القرآن، بعد موتنا، وهذا ليس معناه اننا نعمل بالقرآن، بعد الموت، بل نحشر مع القرآن، نحشر مع آيات الله. نرجو الله تعالى ان يتقبل هذه البحوث، ويهديها الى الأرواح المنورة للأنبياء والأولياء.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٦٤).

الدرس العاشر

تثبيت التوحيد بواسطة الأنبياء

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

عرضت بعض المسائل في بيان المضمون المشترك لسور الحواميم، واتضح ان لكل سورة من سور القرآن الكريم مضمون خاص، لا يوجد بكل خصوصيته في السور الأخرى. والسور التي لها مضمون مشترك، لها بداية وخاتمة مشتركة. وهناك عدة سور في القرآن الكريم، لها محتوى ومضمون مشترك، تعرف بالحواميم السبع، وهي متشابهة تقريباً في أولها وآخرها، فبداية هذه السور السبع هي ﴿حم﴾، وهي تبحث بشأن تنزيل الكتاب وتنزّل الوحي، ولما كان مضمون هذه السور السبع، هو تبيان الوحي وأهمية الوحي وبيان مبدأ الوحي وسير نزول الوحي، وكذلك بيان ما جاء به الوحي - وهو التوحيد والنبوة والمعاد، فان لهذه السور السبع صفة جامعة، وتستهدف هدفاً واحداً. وقد تكلمنا بعض الشيء بشأن هذه الحواميم السبع، وبقيت

بعض المسائل بشأن بعضها، يجب ان تبيّن خلال هذه البحوث باذن الله.

ان القرآن كتاب علم وبرهان، ولذا فهو لا يقول مسألة بلا برهان، ولا يقبل ادعاء بلا برهان وانما كل مسألة يقولها، اما ان تقترن بالبرهان العقلي او النقل المعتبر الذي يؤيد العقل اعتباره ويقبل الكلام الذي يصدر عن عقل محكم او موروثاً من نقل معتبر، والقرآن لا يقبل الشيء الذي لا يقام له دليل عقلي، او لم يؤيد بنقل معتبر، وحيث لم يكن التوحيد الربوبي مطروحاً بين أهالي الحجاز والوثنيين في الأقاليم الأخرى، أي أنهم لم يكونوا معتقدين ان الله سبحانه هو رب الانسان، وان كل نفع وضر وخير وشر، سلامة ومرض، غنى وفقر، حياة وممات، نشاط وعناء، وأمثال ذلك، كلها تدار بنظام إلهي، ومبدأ التربية هذا هو رب العالمين الذي يدبرها ويديرها كلها، بل كانوا يتصورون ان لكل واحدة من هذه رب موسمي ومؤقت، وكانوا يعبدون هذا الرب او ذاك الرب من أجل ان ينتفع الشخص الفلاني او يرتفع الضر عن الشخص الفلاني ﴿**أأرباب متفرقون خير**﴾[1]، فقد أثبت القرآن في هذه السور بالبرهان، المعاد والوحي والتوحيد الربوبي، ثم دعاهم الى البيان باقامة دليل إذا كانت لديهم مسألة بشأن الشرك، وأشار أيضاً الى أن ذلك الادعاء الذي لديهم لا يطابق العقل ولا هو ميراث نقل معتبر.

ومن هذه السور السبع التي تتصدرها ﴿**حم**﴾، سورة الزخرف ﴿**حم * والكتاب المبين * انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾[2]. وقد ذكرنا معنى ﴿**حم * والكتاب المبين**﴾، في مباحث سابقة. لقد ذكر الله ان هذا الكتاب المبين قد جعله في كساء اللفظ وفي رداء العربية وأنزله بلفظ

---

(١) سورة يوسف، الآية (٣٩).

(٢) سورة الزخرف، الآيات (١و٢و٣).

﴿لعلكم تعقلون﴾، وهذا يدل على أن للقرآن مراحل، فبعض المراحل الرفيعة للقرآن، ليست في متناول العلم الاكتسابي لأنها ليست من سنخ المفهوم والماهية والعلم الاكتسابي، حتى تدرك عن طريق التصور والتصديق الذهني، وبعض المقامات الرفيعة للقرآن لا تفهم بالفكر العادي للبشر، ومرحلتها النازلة التي لها علاقة باللفظ والمفهوم الاعتباري، هي في متناول العقل المتعارف، اما المرحلة التي ليست في كساء اللفظ، لا تدخل في رداء المفهوم وثوب الماهية، ولا تقع في متناول العلم الاكتسابي وعقل العلماء المتعارفين، فتلك المرحلة العالية لا تدرك أبداً، لأنها لم تتنزل الى لباس اللفظ والمفهوم الاكتسابي، الا أن يرقى الانسان ويبلغ ذلك الموطن الرفيع، ويجده في ذلك المقام الشامخ.

واذا قيل بأن الصلاة معراج المؤمن، فانها تعرج بالانسان وترفعه، وسلّم المعرفة هذا، يهيىء أرضية ادراك ذلك المعنى الرفيع للقرآن، وقوله تعالى: ﴿انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾، يدل على ان معارف القرآن، غير قابلة لتعقل البشر المتعارف، لو لم تجعل في قالب اللفظ، ولو لم تظهر بصورة كلمات.

﴿وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾[(١)]، ان لهذا القرآن مرحلة أرفع، وهي أم الكتاب، التي هي أصل كل كتاب، وهذه الكتب المنزلة، تصدر عن أم الكتاب، وأم الكتاب هو في محضر الله.

ولا يستطيع معرفة مرحلة القرآن تلك، الا الذين يكونون عند الله. ﴿ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾[(٢)]. ان الشهداء الذين

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية (٢٠٦).

استشهدوا في سبيل الله، وهم أحياء عند ربهم، يمكنهم بعد نيل مقام الحياة عند الله، وبمقدار معرفتهم وتجردهم الروحي، مشاهدة ذلك المعنى الرفيع الذي لم يتنزل للقرآن. وسرّ عدم امكانية الوصول الى ذلك المعنى السامي للقرآن، وعدم الوصول الى ذروة القرآن، عن طريق الفكر المتعارف هو ﴿وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾، فهو عال ومحكم لأنه لدى الله، والموجود المجرد والعالي، لا يكون في متناول العقل والأفكار النازلة، قبل التنزل الى عالم المثال والكثرة، والمحكم لا يوضع في متناول أفكار الذين لا يفهمون غير الكثرة والمفاهيم الاكتسابية، قبل التفصيل. فلأنه (علي) و (حكيم)، فانه غير قابل للتعقل الاكتسابي، وغير قابل للادراك المفهومي، وهذا المفهوم يوجد في أوائل جميع هذه السور السبع، مع بعض التفاوت المتنوع والقليل.

ثم يبين السنة الالهية، التي هي طريقة الله في التعليم والتربية، والتي يواصل فيضه طبقاً لها، وهي انه لا يترك الناس من دون انزال الوحي. سواء آمن الناس، ام لم يؤمنوا، وسواء كانوا خاضعين أمام ما جاء به الأنبياء، أم تعاملوا معه باستكبار، فلو ان البشر لم يؤمنوا بالرسالة والوحي والنبوة، فان الله لا يقطع سلسلة الرسالة واطار النبوة، بل الوحي دائمي والرسالة دائمية حتى تبلغ ذروة ختم النبوة، التي اذا آمن بها الشخص، فانه سيتمتع برعاية الله الخاصة، وكل من لم يؤمن بها، يتعرض الى الانتقام الالهي ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين﴾(١)، فاذا كان هناك شعب معتدي، فان ذلك لا يؤدي الى قطع الوحي، ولا ينقطع ارسال الأنبياء اذا لم يؤمن شعب ما بالوحي، نتيجة اسراف الشعب واستبداده، فالسنة الالهية

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٥).

مستمـرة، ولا ينجـم عـن عـدم القبـول بـالـوحـي، قطـع سلسلـة الـوحـي، ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾.

في المسائل المالية، اذا كان الانسان من أهل الاسراف، فان الله يسلب منه النعمة، ويحول معيشته من الرفاه الى الضيق، ويسوقه من الراحة الى العناء، الا ان نعمة الوحي والرسالة لا تقطع عنه، اذا كان من أهل الاسراف في المسائل العقائدية والدينية، فالرسالة لا تقطع، والوحي لا يزول لأن هذه الحجة يجب ان تستمر ما دام البشر حياً، حتى تصل الى الحجة الخاتمة التي تظل الى الأبد، وهي حجة الله البالغة، هذه سنة إلهية، واذا تعرض الأنبياء الى ايذاء الشعوب، نتيجة الاستهزاء، فان هذا التعدي لا يفضي أبداً الى قطع الله سبحانه، للوحي ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي الا كانوا به يستهزؤون﴾[1]، فمن لا يؤمن يهلك، ومن يؤمن يحيا حياة أبدية. ﴿فاهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين﴾[2]. وقد ذكّر الله سبحانه بالسنة الالهية، في استمرار الوحي، بعد أن بيّن أهمية الوحي، ثم تساءل عن كلام ودليل الآخرين في شركهم بالتوحيد الربوبي وعدم ايمانهم بمبدأ واحد مدبّر، وارجاعهم الأمور الى غير الله، فكل مسألة عقائدية وفكرية يجب ان تستند اما الى دليل عقلي او الى دليل نقلي معتبر، لأنه ليس ثمة دليل اكثر من هـاتيـن الحجتيـن، امـا العقـل أو الـوحـي. «ان لله على النـاس حجتيـن حجـة ظاهرة وحجة باطنة فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام واما الباطنة فالعقول»[3]، فاذا كان العقل دليل باطني، والوحي دليل ظاهري، وكلاهما نـاشئـان من مبدأ واحـد، ويهـديـان الانسـان الى هـدف معين، وليست هنـاك

(١) سورة الزخرف، الآيتين (٦و٧).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٨).
(٣) أصول الكافي، ج١ ص ١٦.

حجة اكثر من العقل والوحي، وهما منسجمان، اذن يجب ان يستند كل أسلوب وعمل في العالم، على احدى هاتين الحجتين، اما الحجة الباطنية او الظاهرية، وكان المشركون في الحجاز، والوثنيون في المناطق الأخرى يرجعون أمورهم الى غير الله. وهذا الادعاء، يجب ان يقبله العقل أو يثبته النقل المعتبر.

في البداية يذكر الله، برهان التوحيد الربوبي، فيقول: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾**[1]، فيبين هذا التوحيد، باستدلال، فاذا كان خالق السماوات والأرض هو الله، فان الله هو ربكم بالتأكيد، لأن الربوبية هي بدورها نحو من الخلق، وهناك دليلان يمكن بهما القول بأن الرب هو الخالق، احدهما هو أن الربوبية، هي نفسها نحو من الخلق، لأنها ايجاد الروابط، وايجاد الربط مثل ايجاد المربوط والمربوط اليه، هي عبارة عن خلقها، والله هو الخالق، فقط، والدليل الآخر مبني على التلازم بين الربوبية والخلق، اي ان الذي خلق الموجود هو الذي يستطيع تربيته، وان الذي خلق شيئاً، هو الذي يهديه، والله يثبت التوحيد الربوبي بهذين الدليلين الموجودين في مختلف مواضع القرآن، أحدهما ان الربوبية هي نفسها شكل من أشكال الخلق، واذا لم يكن ثمة خالق غير الله، فليس هناك ربّ غير الله. والدليل الآخر هو ان الربوبية من لوازم الخالقية، فاذا آمنتم بعدم وجود خالق غير الله، فيجب ان تؤمنوا بأنه لا يوجد رب غير الله، وهذا الاستدلال ليس برهاناً من ناحية المصطلح، بل هو جدال أحسن.

والاستدلال يكون جدالاً اذا ارتكز على مقدمات مسلّمة لدى الخصم، ويكون حكمة اذا قام مباشرة على مبادىء بيّنة او مبيّنة، ليس من ناحية انها

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٩).

مقبولة عند الخصم، ولا من ناحية انها مشهورة ومسلّمة، بل من ناحية انها حق. وقد أمر الله، رسوله ان يدعو الناس الى الحق بالحكمة، وبالجدال الأحسن. وقد اعتبر المعصومون عليهم السلام بعض أدلة القرآن الكريم، جدالاً أحسناً، فيذكرون ان استدلال الآية الفلانية، هو من باب الجدال الأحسن، لأنه يرتكز على مقدمات مسلّمة **﴿أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾**(١) . والله الذي **﴿جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون﴾**(٢) ، هو ربكم ومدبّركم، وهذه اشارة الى ان أهل الأرض، هم في المهد كالأطفال ما داموا مرتبطين بالأرض، والذي رفع رأسه عن الأرض وتعلقاتها، يبلغ مرحلة رشده **﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً﴾**(٣) ، ان الذي لا يكون قوياً امام الارتباطات الطبيعية، يكون في مهد الأرض، وهو طفل، والأرض مهيأة كالمهد لمعيشتكم وحياتكم **﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون﴾**(٤) ، وهي اشارة الى قضية المعاد، لأن المطر حين ينزل، لا تحيا النباتات فقط، بل يحيا التراب الذي لا روح فيه كذلك، وقضية المعاد هي هكذا أيضاً، حيث تحيا الأبدان التي لا روح فيها.

﴿والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾(٥) . كل هذه هي خلق وخالقها

---

(١) سورة النحل، الآية (١٣٥).
(٢) سورة الزخرف، الآية (١٠).
(٣) سورة القصص، الآية (١٤).
(٤) سورة الزخرف، الآية (١١).
(٥) سورة الزخرف، الآيتين (١٢،١٣).

هو الله ﴿وانا الى ربنا لمنقلبون﴾[1] . وكما ان لدينا مبدأ ومعاداً في الأسفار الدنيوية، كذلك هناك سير من الدنيا الى الآخرة، حيث نركب في النهاية في واسطة نقل أخرى ونسافر الى عالم الأبد. كان هذا هو القسم الثالث لسورة الزخرف، حيث ذكرت فيه براهين التوحيد.

ثم بيّن منطق وسيرة الوثنيين والمشركين، سواء كان ذلك المشرك، يسجد للأوثان الخارجية التي تصنع باليد، او كان شخصاً يسجد للأوثان الباطنية، فالذي يتبع الميول، له عبادة للنفس والقلب ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً ان الانسان لكفور مبين﴾[2] ، وقد اعتبر بعض الوثنيين ان الملائكة بنات الله، في حين ان الله لا والد ولا مولود ومنزه عن التركب والانفصال، والوجود البسيط المحض، ليس له جزء واذا لم يكن له جزء، فلا نفوذ للتوليد فيه ﴿ام اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾[3] . فبالاضافة الى ان من المحال ان يكون لله ولد، فانه ليس له بنات، أيضاً وقد كانوا في الجاهية يفرقون بين الولد والبنت، أما الاسلام فلا يعتقد بفرق بينهما، ويعتبر الكل نعماً إلهية. كانوا هكذا ﴿واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * او من ينشأوا في الحلية وهو في الخصام غير مبين * وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾[4] . كان هذا ذكر لآراء الفئة التي كانت تعتبر الملائكة بنات الله، وكانت تنسب بعض الأمور الى الملائكة. وهو موضوع لا يدخل في صلب بحثنا حالياً.

---

(١) سورة الزخرف، الآية (١٤).
(٢) سورة الزخرف، الآية (١٥).
(٣) سورة الزخرف، الآية (١٦).
(٤) سورة الزخرف، الآيات (١٧الى١٩).

ان ما يطرح في صلب البحث، يبدأ من هنا، قال تعالى: ﴿**وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون**﴾[1]. كان المشركون يعتقدون بوجود الله وخالقيته، ويعتقدون ان الله خلق النظام كله، والله يدبره كله، فهو رب الأرباب، لكنهم كانوا يظنون ان هناك أرباب وآلهة تدير الأنظمة الموسمية والمؤقتة، يظنون ان هناك أرباباً للماء والأرض والبحر والصحراء، أما رب الأرباب فهو يدبر نظام الكون بأجمعه، فكانوا يعبدون تلك الأرباب الموسمية، حتى تقربهم الى رب الأرباب.

كانوا يقولون ان معرفة رب الأرباب غير ممكنة بالنسبة لنا، اذن فعبادته غير ممكنة، يجب ان نعبد شيء نعرفه، ونحن نعرف أرباباً أقل ـ كالملائكة وأمثالهم ـ ونعبدهم، ونسجد لهم، حتى يوصلونا الى رب الأرباب، ويكونوا شفعاؤنا ومقربونا، كانوا يفسرون أصل الشرك، هكذا، ويقولون لو ان الله لم يكن راضياً بهذا الشرك، لمنعنا عنه، ولما لم يمنعنا، فهو راضٍ به، لأن الله قادر على الأمور وهو رب الأرباب، ولولا رضاه بالشرك، لما كان ممكناً ان يقع شرك في العالم، فأرادوا بهذا القياس الاستثنائي، ان يثبتوا بأن الشرك حق ﴿**قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم**﴾، وقد ورد هذا البرهان في سورة الأنعام وفي سورة النحل كذلك، ولكن بنوعين من البيان، مرة بعنوان تصديق الشرك، ومرة بعنوان تكذيب الوحي.

﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء**﴾[2]، لقد استخدموا هذا البرهان لتصديق الشرك، واستعانوا بهذا البرهان لتكذيب الوحي، وقالوا ﴿**لو شاء الله ما أشركنا**﴾، فبما اننا نقوم بهذا

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٢٠).
(٢) سورة الأنعام، الآية (١٤٨).

العمل، فهو مطابق لارادة الله **﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا﴾**.
ان أساس الشرك كان يوجد أحياناً في المشركين المحرومين من التوحيد، وقد أخيا أساس الشرك هذا الأشخاص الذين لم يريدوا القبول بالمعارف الاسلامية الأصيلة. وفي أيام الحكم الأموي أحيا بعض الناس، الجبر كما تم احياء الجبر في أيام الحكم العباسي كذلك، وقد كان هناك نفوذ للأشاعرة في زمان بني العباس، وكانوا يعتقدون بالجبر ويريدون تبرير حكم الطواغيت والفاسقين عن طريق مسألة الجبر. ان مسألة الجبر والتفويض ليست بسيطة وواضحة، بحكم المرحوم كاشف الغطاء ـ رضوان الله عليه ـ في كتابه الشريف كشف الغطاء ـ وهو من الكتب الفقهية القيمة للامامية بنجاسة المعتقدين بالجبر أو التفويض، ويقول بعض الفقهاء المتأخرين كالفقيه الهمداني في كتاب مصباحه، في بحث الطهارة، ان مسألة الجبر والتفويض، ليست مسألة ضرورية وبديهية، بل هي مسألة نظرية وعميقة ومعقدة جداً، وقد وقع كثير من علمائنا الذين أرادوا ابطال الجبر، في التفويض، وهي بهذا المستوى من الخطورة والنظرية فاذا وقع شخص في الجبر او التفويض، نتيجة غموض وصعوبة المسألة، فانه أخطأ في موضوع نظري عميق، وليس في موضوع ضروري. ثم قال هذا الفقيه المشهور، في كتاب مصباحه الشريف، ان بعض السلاطين، أحيوا طريقة الجبريين، لأن مسألة الجبر عقيدة جيدة لاستمرار ظلم الطواغيت.

وعلى أي حال، قال تعالى: **﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾** وبما ان هذه الأمور قد حصلت فهذا يدل على أنها مرضية عند الله ولا لما أتينا بها وقضية التحريم، هي ان المشركين قد حرّموا بعض الأشياء **﴿الله أذن لكم أم على الله**

تفترون﴾[1] ، وهذا الجزء يشير الى تكذيب الوحي. كان المشركون يقولون لو كان الوحي والرسالة حق، فلماذا حرّمنا نحن هذه الأمور؟ وبما أننا حرّمناها، اذن ليس هناك وحي ورسالة، لأنه لو كان الله يريد الوحي والرسالة، لما استطعنا أبداً تحريم هذه الأشياء. وفي سورة النحل، يوجد هذا المضمون أيضاً، وهو انه لولا ارادة الله، لما قمنا بهذه الأعمال، ولأننا قمنا بها، فعليه يتضح ان الله يرضى بها. ان هذا البرهان الذي ورد بصورة قياس استثنائي في سورة الانعام وسورة النحل وسورة الزخرف، هو خلط بين الارادة التكوينية والارادة التشريعية لله، فاذا أراد الله شيئاً في نظام التكوين، بالارادة التكوينية، فانه يقع حتماً، لأنه قال: ﴿انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون﴾[2] ، ﴿وما تشاؤون الا أن يشاء الله﴾[3] . اما ارادة تشريع الله، فانها تترك طريق الطاعة والعصيان للانسان مفتوحاً، قال تعالى: ﴿انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً﴾[4] ، فكلا الطريقين مفتوحان بوجه الانسان، في المسائل القانونية والتشريعية فلا الشخص الذي يسير في طريق الخير، يطيع بالجبر، ولا الذي يسير في طريق الفساد، يعصي بالجبر، لأن اختيار المكلف محفوظ، في الارادة التشريعية، فالارادة التشريعية قابلة للعصيان، ولذا لا يطيع الفاسقون هذه الارادة، ومسألة الجبر والتفويض، وكذلك مسألة التوحيد والشرك، هي في قسم التشريع، اما في التكوين، فان الله هو رب العالمين، وكفى، ولا يوجد في هذا القسم، تكليف حتى يصبح الانسان مشركاً او موحداً، ومطيعاً او عاصياً لهذا

---

(١) سورة يونس، الآية (٥٩).

(٢) سورة يس، الآية (٨٢).

(٣) سورة الانسان، الآية (٣٠).

(٤) سورة الانسان، الآية (٣).

السبب.

ان أساس استدلال المشركين، قائم على الخلط بين التكوين والتشريع، لذا يقول القرآن: **﴿ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون * أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾**[1]. يقول بأن هذا الكلام الذي ذكروه بصورة قياس استثنائي لا يطابق العقل ولا النقل، تارة يستخدمونه لابطال التوحيد وتثبيت الشرك، وتارة يطرحونه لابطال الوحي والرسالة، مرة يقولون بما اننا وثنيون فالوثنية حق، ومرة يقولون بما اننا قد شرعنا قانوناً فتشريعنا حق، وليس هناك من وحي. يقولون حيناً لو كان هناك وحي، لما كان في ايديهم تحليل وتحريم، وبما انه لديهم، وهم يحرمون بعض الأشياء، فعليه ليس هناك وحي، وبقولون حيناً آخر لو كان التوحيد حقاً، لما أشركوا، وبما أنهم أشركوا، فالتوحيد ليس بحق ـ لو كان التوحيد حقاً ما كنا مشركين ولكن نحن مشركون فالتوحيد ليس بحق ـ وقالوا كذلك بشأن الوحي والرسالة: لو كان الوحي والرسالة حقاً لما حرمنا ولا آباؤنا من شيء ولكن حرمنا وحرم آباؤنا أشياء فلا يكون الوحي حقاً. في هذه الحالات، حيث أبطلوا التوحيد والوحي والرسالة، بالقياس الاستثنائي، يبين القرآن ان هذا القياس الاستثنائي وهذا الدليل لا يطابق العقل ولا النقل، فلا هو يستند على الحجة الباطنة، ولا الحجة الظاهرة، لا العقل يقبل هذا القياس، ولا النقل يؤيده **﴿ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون﴾**، لأن الارادة التي لا تقبل التخلف، هي الارادة التكوينية، وهي غير مطروحة في المسائل العقائدية والدينية، واما الارادة التي تتولى زمام تنظيم أصول وفروع الدين، فهي الارادة التشريعية، التي تقبل التخلف، فالمشركون ليس لديهم دليل معتبر،

(١) سورة الزخرف، الآيتين (٢٠و٢١).

بل يتكلمون بالتخمين والظن.

﴿**أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون**﴾، هل الوحي والكتاب السابق وسنة الأنبياء السابقين وتراث رسالة الماضين، تصدق ادعاء هؤلاء؟ هل كتب هذا الموضوع في كتاب من كتب الأنبياء؟ هل تحدث نبي من الأنبياء بهذا الكلام؟ هل تكلم معصوم بهذا الكلام؟ ﴿**ام آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون**﴾. نظير ما بيناه في السابق يقول تعالى في سورة الأحقاف: ﴿**قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ام لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين**﴾[1]، وقد تم بيان بحثه بشكل مفصل. ذكر ان الكلام يجب ان يستند اما الى دليل عقلي، او الى دليل نقلي، وقد أبطل الأنبياء جميع الشرك، وثبتوا التوحيد، واعتبروا الوحي والرسالة ضرورية، وهذه القضية كانت دليلاً نقلياً اما قضية الدليل العقلي، انكم لم تفرّقوا بين الارادة التكوينية والتشريعية، فالارادة التي لا تهزم هي ارادة التكوين، والارادة التي تنسجم مع العصيان والتخلف، هي ارادة التشريع، فقيامكم بهذه الأعمال، لا يعني أن الله ليس له وحي ورسالة، ولا يعني كونكم مشركين، ان التوحيد الربوبي ليس حقاً، وان الله لم يكن قد أراد التوحيد، بل ان الله أراد بالتأكيد، التوحيد والرسالة، بالارادة التشريعية ولكنكم لم تعتقدوا بذلك.

نرجو الله تعالى ببركة القرآن الكريم، ان يحيي المعارف الدينية في قلوبنا جميعاً، وان يمتعنا بمعارف خاصة الأولياء - ببركة الأنبياء والأولياء،

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (٤٠).

وأن يعرّف جميع المسلمين في العالم، بالمعارف الالهية، برعايته الخاصة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الـدرس الحادي عشر

رأي أهل الإفراط والتفريط حول الوحي

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

تفيض كل سورة من سور القرآن الكريم، مضموناً خاصاً، وكانت السور المتقدمة بمضمونها الخاص ذات هدف مشترك، والسور التي لها مضمون مشترك وذات هدف مشترك، يكون أولها موضوع معين وآخرها موضوع معين كذلك، فالمضمون الأول والأخير لتلك السور، واحد، هكذا هي المسبحات في القرآن الكريم، وهكذا هي الحواميم. ان الجزء المهم للمحتوى المشترك للحواميم السبع، هو بيان أساس الوحي، أين طليعته وأين هي مرحلته النزولية؟ وما هو المسار الذي يقطعه الوحي في تنزله؟ وماذا يحمل الوحي؟.

ان الجزء المهم لمواضيع هذه السور السبع، يدور حول بيان الوحي وما جاء به الوحي، الذي يبين الخطوط الأصلية للدين، أي التوحيد والنبوة

والمعاد. وقد أقام القرآن برهاناً، لاثبات هذه المعاني، وطالب الذين يزعمون خلافها بدليل، وذكر ان الدليل اما ان يرتكز على العقل او على النقل المعتبر، فأما ان يقبل العقل السليم. ذلك الدليل، أو أن يذكره نقل معتبر، وفي دليل العقل يلزم ان تنتهي المسألة النظرية الى البديهية حتى تفيد اليقين، والدليل النقلي يجب ان ينتهي الى كلام المعصوم عليه السلام، لأن كلام المعصوم هو الذي يفيد العلم، اما قول الآخرين فلا يفيد العلم، وكلام المعصوم يمكن جعله حداً وسطاً للبرهان الكلامي والحصول به على اليقين، اما في قول غير المعصوم فليس هناك يقين. وقد طالب القرآن، الوثنيين بدليل على ادعائهم الكاذب، وذلك في سورة الزخرف وسورة الاحقاف، وكلاهما من الحواميم فقال لهم ان كلامكم هذا يجب ان يستند الى عقل قطعي أو وحي قطعي. كان بيان القرآن الكريم في سورة الاحقاف هو: **﴿ام لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم﴾**(١)، وهذا الترديد هو كقضية مانعة الخلو، يمكن جمعها، أي اما ان يبرر كلام الأنبياء السابقين شرككم او ان تقيموا دليلاً عقلياً على ان الشرك حق وان هناك شريك لمبدأ العالم، فان لم يكن لديكم دليل نقلي او دليل عقلي على صحة ادعاء الشرك، فان ادعاءكم ليس الا ظن وتخمين. وجاء في سورة الزخرف التي سبق ان طرحت بأنهم كانوا يفتقدون كلا القسمين من الدليل، اذ لم يستندوا على دليل عقلي ولا على دليل نقلي. **﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون * أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾**(٢)، وخلاصة ادعاء المشركين هي أن الشرك في

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (٤).

(٢) سورة الزخرف، الآيتين (٢٠و٢١).

العالم لو لم يكن حقاً، ولو كانت عبادة الأوثان سيئة، لحال الله دون عبادة الأوثان، ولما لم يحول الله دون الشرك وعبادة الأوثان، فالوثنية حق اذن.
وهذا الاستدلال ورد في سورة الانعام وفي سورة النحل. ففي سورة النحل ذكر بهذا الشكل: **﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا اباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين﴾**(١). ان هؤلاء يستندون تارة الى سنة الآباء ويبررونها ويقولون **﴿انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون﴾**(٢)، ومرة يقولون بأن الشرك صحيح وحق، لهذا اعتقد به آباؤنا، ونحن كذلك، فهم تارة مقلدون، وتارة يقلدون بلسان التحقيق، تارة يقولون بأننا نعتقد بهذه العقيدة لأن آباءنا كانوا على هذه العقيدة، وتارة يقولون بأن آباءنا اعتقدوا بهذه العقيدة لأنها حق، ونحن أيضاً نعتقد بها. هذا هو كلام أهل الرؤية الضيقة منهم.

أما كلام محققيهم فكان على أساس القياس الاستثنائي، فيقولون ان اسلافنا ساروا في طريق الحق ونحن كذلك نسير في طريق الحق: **﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾** وبما اننا اشركنا نحن واسلافنا فالله لا يريد منا الا نشرك اذن والا لما اشركنا. فالله هو رب الأرباب فقط واما السماء والأرض والجبال والصحاري والحياة والموت والفرح والحزن فلها أرباب مستقلة تتكفل القيام بالأعمال الجزئية. كان الوثنيون في الحجاز والوثنيون أساساً على قسمين، فأهل التحقيق كانوا يقيمون دليلاً، والذين ليسوا من أهل التحقيق كانوا يكتفون بالتقليد، فالمقلدون كانوا

---

(١) سورة النحل، الآية (٣٥).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٢٢).

يقولون: ﴿انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون﴾، اما محققوهم فكانوا يقولون بأن الله غير قابل للعبادة، لأنه غير قابل للمعرفة والادراك، فكيف نعبد شيئاً لا نعرفه؟ والشيء الذي لا نعقله كيف نعبده؟ وقد أبطل القرآن كلا القولين.

ففيما يتعلق بكلام المقلدين، أشار الى ان الكلام الصحيح هو الذي يستند الى العقل أو الى الوحي فيكونا منسجمين، ولما كان البرهان العقلي لا يؤيد اتباع الآباء، وكذلك الوحي السماوي لا يرى ذلك صحيحاً، فتقليد الماضين في أصل مسألة التوحيد والشرك، يكون باطلاً.

وبشأن كلام المحققين، ذكر بأن الله ليس بعيداً عنهم، فآيات الله موجودة في الباطن والظاهر، وليس هناك شيء يرونه، الا وهو آية الله، ولا يمكن ان ينظرون الى شيء لا يرشدهم الى الله، وكون الموجودات التكوينية آيات، لا يشبه الآيات الاعتبارية، كما انها ليست نظير الآيات الموسمية والمؤقتة، كالشجرة التي تدل على الماء ما دامت خضراء، وحين تذبل لا تدل على الماء لأن الأشياء التي هي آيات إلهية، ليست هكذا، وانما كل شيء هو ذاتا آية الله، في أي حال كان وفي أي وضع وفي أي ظرف كان. ولا يختلف باطن وظاهر الأشياء، ولا هناك ميزة بين ماضيها ومستقبلها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته»(١) فهو وان لم يدرك بالكنه لكن المقدار الواجب معرفته به مقدور للعقل والله في كنه ذاته لا يدرك لأحد [فالعنقاء لا تصاد من أحد] «لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن»(٢)، مهما فكر

(١) نهج البلاغة للفيض، الخطبة (٤٩).
(٢) نهج البلاغة للفيض، الخطبة الأولى.

الحكيم، فهو لا يستطيع أن يفهم كنه الذات، ومهما ارتاض العارف، فانه لا يتمكن أن يرى كنه الذات، فالعارف اذا أراد أن يغوص في نفسه العرفانية، ويدخل في باطن القلب، فانه لا يستطيع ان يشاهد كنه ذلك الجوهر، والحكيم مهما فكر، لا يتمكن من ادراك كنه الذات، فكلا العمودين مغلقين، فلا الصعود ولا الغوص في العمق يوصلان الانسان الى كنه الله. والانسان ليس بامكانه ان يغوص بشكل عرفاني في بحر المعرفة، ويجد كنه الله، لأن الله غير محدود، ولا يستطيع التحليق بحكمة وادراك كنه الله، لأن الله وجود محض وغير محدود. «لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن».

ومع ان الحكيم والعارف، لا يصلان الى الاكتناه، ولكن «لم يحجب العقول عن واجب معرفته»، أي أن المقدار اللازم من معرفة الله، والمكلف به الانسان، يمكن ادراكه بالطريق الحصولي، وبالطريق الحضوري أيضاً. فكلا الطريقين مهيأين، طريق الحكمة وطريق العرفان، وطريق الفكر، وطريق القلب، وبناء على هذا كيف يمكن القول بأننا لا نستطيع أن نعبد الله لأننا لا نعرفه، واستدلال القرآن هو ان بالامكان معرفة الله بالمقدار اللازم، ويجب عبادته والمقدار الذي لا يمكن معرفته، ليس هناك تجاهه تكليف بالمعرفة وكذلك تكليف بالعبادة، فالمرتبة التي لا يعرف كنهها، لا يكلف أحد بها، اذ لا العقل يصل الى ذلك المقام الشامخ، ولا القلب، لا أحد هناك حتى يكلف، والانسان العاقل، مكلف بالمعرفة والعبادة، في المرتبة التي هي في حدود العقل، والعارف مكلف في حدود العرفان، وفي موطن الادراك الحضوري او الحصولي، مكان عبادة الحكيم أو العارف، وبناء على هذا، فان القرآن، يرفض كلام محققي أهل الشرك، ومقلديهم، يبطل

استدلال أهل التحقيق، بالبيان الذي تقدم، ويبطل ادعاء أهل التقليد بهذا البيان المذكور ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾.

وخلاصة هذا القياس الاستثنائي هي قولهم، بما اننا وثنيون فالله اذن يريد الشرك، فهم يبررون شركهم، وشرك آبائهم. ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين﴾[1]. ان هذه الاستدلالات تستهدف تكذيب الوحي، كانوا يقولون بأنه لو كان الوحي حقاً، ولو كان التشريع خاصاً بالله، وان على البشر ان يضع القانون عن طريق الوحي، او ان يقبل القانون الصادر منه ولا غير، لما استطعنا ان نضع قانوناً. فلو كان هناك وحي وكان التحليل والتحريم خاص بالوحي، لما تمكنا ان نقوم بهذا العمل، وبما اننا نحلل بعض الأشياء ونحرّم بعضها، فعليه يتضح ان ليس هناك وحي، وقد رفضوا بظنهم الواهي التوحيد بكلامهم ذلك، والوحي بكلامهم هذا، وأنكروا المعاد رأساً، قالوا: ﴿ان هي الا حياتنا الدنيا﴾[2]. كانوا يعتقدون بالإله الذي لا يريد مسؤولية، ولا يعتقدون بالإله الذي يريد مسؤولية، كانوا يؤمنون بالله بوصفه خالقاً، فقط، وليس بوصفه رب. وملخص آراء الوثنيين في الحجاز، هو الايمان بالخالق ونفي الرب والوحي والمعاد.

ويتفق المفكر المادي مع الوثنيين في كثير من هذه الأمور. وميزة الوثني عن المادي، هو انه يعتقد بالله الخالق، الذي ليس لديه أية صفة من حيث التدبير وطلب المسؤولية، اما المفكر المادي فهو لا يعتقد بذلك، ومن الواضح ان الاعتقاد بالخالق المعزول عن التدبير لا يؤثر في التربية، ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين﴾، ولم يطرح

---

(١) سورة النحل، الآية (٣٥).

(٢) سورة الانعام، الآية (٢٩).

هذا القول، المشركون في الحجاز فحسب، بل كان الماضون مبتلون بهذا الفكر الباطل. ﴿**فهل على الرسل الا البلاغ المبين**﴾، أي انه يجب عليك أيها الرسول، ابلاغ هذه المسألة لهم بكل وضوح، وافهامهم قضية التكوين والتشريع بشكل جيد، قل لهم ان لا يخلطوا التكوين بالتشريع، فالله لا يقهر في الارادة التكوينية، ان أراد شيئاً. ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾[1]، أما في ارادة التشريع فقد ترك مجال المعصية مفتوحاً ﴿**ليميز الله الخبيث من الطيب**﴾[2] وقال: ﴿**وهديناه النجدين**﴾[3]، أي أننا خلقنا الانسان مختاراً حتى يتبين الطريق الذي يختاره، فاذا سار في طريق الطاعة، فانه يسير فيه بارادة واختيار، وان سار في طريق العصيان، فهو سائر فيه باختيار، لا تخلطوا التشريع مع التكوين. وبناء على هذا، أفهمهم ببيان بليغ حول ما قالوه بشأن التوحيد او الوحي، وأشرح لهم ما أقسموا من عدم وجود حياة بعد الموت وعدم وجود القيامة، أقسم بالله ان القيامة حق ﴿**وأقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت**﴾، وقد قال الله لرسوله ﷺ، في عدة مواضع في القرآن ﴿**قل بلى وربي لتأتينكم**﴾[4]، فاذا كان الله رباً، فانه يقود البشر ويوصله الى الهدف النهائي، بالتأكيد ﴿**بلى وعدا عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ وعلى هذا، فان القرآن ذكر هذا الدليل ورفضه، ولم يكن لدى محققيهم أكثر من هذا الدليل.

اما غير أهل التحقيق، فكانوا يقولون بوجوب المحافظة على سنة الماضين، او يقولون بأن النبوة اذا كانت حقاً، فيجب ان يتولى هذا المقام

---

(١) سورة الانعام، الآية (١٨).
(٢) سورة الانفال، الآية (٣٧).
(٣) سورة البلد، الآية (١٠).
(٤) سورة سبأ، الآية (٣).

شخص ثري، لأنه مقام رفيع ولا يكون النبي شخصاً فقيراً أبداً. والقرآن لا يهتم كثيراً بهذه اللعبة لأنها سفيهة، يقول **﴿فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا﴾**[1] ، ويركز على القياس الاستثنائي لمحققي الوثنيين، سواء في سورة الأنعام او في سورة النحل او في سورة الزخرف. ويرد الدليل الذي ذكروه في ان النبوة اذا كانت حقاً، فان الثري الفلاني ينبغي ان يكون نبيّاً بسهولة فيبين ان صفاء الضمير هو الضروري في مقام النبوة، وليست الثروة، وان طهارة الروح ليس لها علاقة بالثروة، يسألهم هل ان تقسيم هذه الرحمة الالهية بأيديهم، حتى يؤمنوا بالثري نبياً؟ يؤمنوا بالشخص الثري اذا ادعى الرسالة، ولا يقبلوا من الشخص الفقير، المدّعي للنبوة، فهل ان توزيع الأمور المادية بأيديهم فضلاً عن تقسيم الأمور المعنوية؟ وهل ان أصل النبوة يدور في مدار المادة والثروة. هذا البحث تم ذكره ونقده سابقاً.

وبعد رفض القياس الاستثنائي للمشركين، قال تعالى: **﴿ان هم الا يخرصون﴾**، اذن ليس لديهم دليل عقلي. **﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾**، فهؤلاء ليس لديهم دليل نقلي معتبر كذلك، يتكلمون على أساس التخريص والتخمين. انهم لم يستندوا الى عقلهم الفطري، بل اكتفوا بالتقليد **﴿بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون﴾**، ويقولون أيضاً: **﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾**[2] ، وهذا اللون من التفكير، هو نفس التفكير المادي الذي يقول بعدم وجود شيء غير المادة، وان الأصالة هي للمادة، والعظمة والشرف

---

(١) سورة النجم، الآية (٢٩).

(٢) سورة الزخرف، الآية (٣١).

للمادة أيضاً، وتزداد العظمة والشرف بازدياد المادة، وتقل بقلتها، هذا التفكير، هو فكر مادي، ومع ان الوثنيين في الحجاز كانوا يعتقدون ان بعض الكائنات مجردة وغير قابلة للرؤية، ومن هنا كانوا يعتقدون بالله، وكذلك بالملائكة، الا ان القرآن رفض المسائل الأخرى التي كان يطرحها المشركون حول الملائكة، ولم يرفض الاعتقاد بتجرد الملائكة، كانوا يعتقدون ان الملائكة، آلهة، وقد رفض القرآن ذلك، كانوا يعتقدون ان الملائكة بنات الله، فرفض القرآن ذلك، لكنه لم يرفض مسألة تجرد الملائكة.

والخلاصة ان تفكيرهم كان تفكيراً مادياً، فهم يعتبرون النبوة مقام عظيم، والثري رجل عظيم، فيجب أن يكون هو النبي. وقد رد القرآن على هذا الوهم، فقال: **﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم﴾**[1] كل الرحمة يقسمها الله، فكيف برحمة النبوة الجليلة التي هي رحمة الله الخاصة. **﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾**. ان تقسيم الأرزاق الظاهرية بيد الله، فكيف بتقسيم رزق النبوة، انهم لا يعلمون لمن يجب ان تعطى النبوة. **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**[2]. هؤلاء لا يعلمون من الشخص الذي يجب ان يتم اختياره نبياً، ولا يعلمون الضمير الذي تناسبه النبوة والنفس التي تعرفها. فيجب الالتفات الى ان الله يقسم الأرزاق الظاهرية فكيف برزق النبوة الكريم. **﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض﴾**[3]، أي قسمنا بينهم معيشتهم في الدنيا، بالتفاوت، من أجل جريان النظام الأحسن. لأنه لو كان الجميع في مستوى واحد، لما كان نظام الخلق نظاماً أحسناً. ولو

(١) سورة الزخرف، الآية (٣٢).
(٢) سورة الأنعام، الآية (١٢٤).
(٣) سورة الزخرف، الآية (٣٢).

كـان الكـل فـي القـابليـات متسـاوون كلهـم فـي مستـوى واحـد مـن الثـروة والتمكن، كلهم يعملون في عمل واحد، الكل لهم ذوق واحد، لانفصمت عروة النظام لما كان نظامها نظاماً أحسناً، والتفاوت في المعيشة وارتفاع البعض وانخفاض بعض آخر في المستوى المعيشي، ليس معياراً للفخر، بل لغرض اقامة النظام الأحسن.

ان تسخير الأفراد لبعضهم البعض، هو تسخير متقابل، حتى يكون كل شخص مسخر لآخر بنحو التسخير المتقابل لا التسخير من طرف واحد. **﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾**[1] والتعبير عن أفراد المجتمع بكلمة بعض يدل على مساواتهم امام القانون الالهي، لأن البعض تختلف عن الجزء وتسمى أجزاء الشيء الواحد غير المتفاوتة بالابعاض. والفرد في المجتمع، ليس جزء منه، بل بعضه. فالمجتمع ليس مركبا من أجزاء، بل هو بمثابة كتلة لها ابعاض متساوية، ولا يفرق بعض عن بعض آخر. **﴿ليتخذ بعضهم بعضا﴾**، فاذا مرض الحمال الذي يحمل الحمل العادي، ودخل المستشفى، يسرع اليه الطبيب ويقوم بمعالجته، وهذا هو تسخير متقابل وليس من جانب واحد وهذا الاختلاف المعقول يهدف الى التسخير المتعادل والمتقابل. لا ان يسخر شخص، شخصاً آخر **﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾**[2]، لأن تراكم الثروة المادية يعني تكديس جماد فوق جماد، وهذه هي قاعدة عامة ان تقسيم الأرزاق الظاهرية، بيد الله الحكيم، فكيف بتقسيم الأرزاق المعنوية، والتي تعتبر النبوة من ابرزها، ثم يتطرق الى قلة قيمة الطبيعة والمادة أنتم الذين ترون المادة شيئاً عظيماً وتحسبون الثري عظيماً اعلموا انه لولا الخوف

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٣٢).

(٢) سورة الزخرف، الآية (٣٢).

من صيرورتكم جميعاً كفارا لكنا أعطينا الكفار من الثروة إلى درجة يجعلون سقوف بيوتهم من فضة يقول تعالى: **﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾**(١)، أي لكنا أعطينا الكفار من الذهب والفضة ما نجعلهم يتعلقون بها، والذهب والفضة ليستا الا حجرا ملوناً، وكذلك الكافر، ليس هو الا حجراً، والقرآن يعتبر قلب الكافر حجراً **﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾**(٢)، والانسان ينزل أحياناً في قوس النزول الى حد الحيوان، وتارة الى حد النبات، وتارة أسفل من النبات، فيسقط الى مستوى الحجر، وأحياناً يكون أكثر تصلباً من الحجر، لأن بعض الأحجار **﴿لما يشقق فيخرج منه الماء﴾**(٣) وبعضها **﴿لما يهبط من خشية الله﴾**(٤)، أما الكافرين الذين **﴿وسواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون﴾**(٥)، فلهم قلوب أشد من الحجارة، فنلهي قلوبهم التي هي كالحجر، بالحجر الأصفر والأبيض.

حين طلب شخص شيئاً من الامام علي عليه السلام، فأمر الامام مسؤول أموره المالية قائلاً: (أعطه ألفاً)، فقال أمير المؤمنين ألف مثقال ذهب أم ألف مثقال فضة، فقال: «كلاهما عندي حجر أعطه انفعهما بحاله». وهذا البيان يكفي لكون الانسان المحب للذهب والفضة في مستوى الحجر.

في ظهيرة أحد الأيام المحرقة أمسك أحد أصحاب الامام بردائه وقال له انصحني، فذكر له الامام بأنه يكفيه صحبته للامام سنين طويلة، وحضوره

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٣٣).

(٢) سورة البقرة، الآية (٧٤).

(٣) سورة البقرة، الآية (٧٤).

(٤) سورة البقرة، الآية(٧٤).

(٥) سورة يس، الآية (١٠).

في مجالس الكلام، وفي المساجد وفي المجالس، فقال للامام انه لا يترك المسك برداء الامام ما لم يقل له مسألة، فقال له الامام هذه الجملة وفك رداءه من يده: (أنت مع من أحببت ولك ما اكتسبت).

ان الانسان الذي يمضي عمره في ارتداء اللباس والأكل، هو في مستوى نبات، انه لم يصل الى مستوى حيوان، فضلاً عن الانسان، انه نبات جيد وطري، يتغذي جيداً وينمو، يرتدي الثوب الجيد ويهندم نفسه، كان قول الامام: (أنت مع من أحببت). ان ما ورد في التعبيرات الدينية من ان «لو ان رجلا أحب حجرا لحشره الله عز وجل معه»[1]، يحشر في مستوى حجر، هو لأنه لا يوجد في حرم قلب هذا الشخص، شيئاً غير الحجر. والقلب الوله بهذا الحجر، هو في حد الجماد، والفضة حجر أبيض، والقلب الوله بالفضة، هو في مرتبة الجماد.

كن دقيقاً في اختيار الصديق، ولك ما اكتسبت، يقول القرآن: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[2].

وقال الامام الصادق عليه السلام بأنهم يعبدون الله حبا: «لا نعبده الا حبا وهذا مقام مكنون»[3] ﴿لا يمسه الا المطهرون﴾ فهذا مقام مستور ينبغي اما بذل السعي لازالة هذا الستر او زواله بنسيم من لطف الله، اما بقدم العقل او بيد القلب، اما بقدم الهمة أو ببنان المحبة ليصل الانسان الى المقام المكنون وكل الأئمة المعصومين كانوا يمتلكون هذا المقام لأنه لازم لمقام العصمة والامامة فكل منهم كلامه هو: «لا نعبده الا حبا هل الدين الا الحب»، ان

---

(١) عيون أخبار الرضا، ج١ ص ٣٠٠.
(٢) سورة البقرة، الآية (١٦٥).
(٣) تفسير الميزان، ج١ ص ٣٥.

كمال الدين هو في الحب، و«هذا مقام مكنون لا يمسه الا المطهرون»، وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، مطهرون، طبقاً لآية سورة الأحزاب: **﴿انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾**[1]، ويد المطهر تمس المقام المكنون، فبعض الناس يحبون الحجر، وبعض الناس يحبون خالق الكون. وهنا قال الله لا قيمة للمادة والطبيعة: **﴿ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾**، ولكن **﴿وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾**[2].

وبناء على ما تقدم، فان استدلال المشركين القائلين، بأن النبوة لو كانت حقاً، فيجب ان يكون الملك نبياً أو يكون الثري نبياً لا يخرج عن الافراط والتفريط كانت هناك جماعة تستدل أن النبوة لو كانت حقاً، لكان يجب ان يكون النبي ملكاً، او ان يأتي مع النبي ملك يؤيده **﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾**[3]، لماذا لا يتعاون معه ملك حتى نراه، فجاء الجواب **﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾**[4]، ولو ان الملك أصبح نبياً، فانه يجب ان يصبح في كساء بشر حتى يقوم بالاحتجاج معكم، ويعيش معكم، ويكون أسوة لكم، ويسير في الطريق الذي تقتدون به، والملك لا يمكنه ان يكون حجة الله عليكم، ولو تقرر جعل الملك مأموراً بالوحي، فانه يجب ان يصبح في كساء بشر. **﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما**

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٣).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٣٥).
(٣) سورة الانعام، الآية (٨).
(٤) سورة الانعام، الآية (٨).

يلبسون﴾[1] . هذه الطائفة من المشركين هم من الافراطيين تقابلها تلك الطائفة المفرطة التي كانت تقول، بأن النبوة اذا هي حق، فيجب ان يكون النبي من أثرياء مكة او الطائف.

وعلى هذا فقد ذكر القرآن وجمع في آيات متنوعة أدلة محققيهم، هذه، وهي قولهم بأنه لولا مشيئة الله، لما عبدوا الأوثان، او قولهم بأن الملك يجب ان يؤمر بابلاغ الوحي، أو ان الثري يجب ان يؤمر بابلاغ الوحي، وقول أهل التقليد: **﴿انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون﴾**[2] ، وقال: **﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾**[3] ، فالذي لا يعلم ان النبي يجب ان يكون حجة الله، يجب ان يكون أسوة، يجب ان يكون انساناً لا يعصي، حتى يمكن الاقتداء به، مبلغ علمه قليل، لأن الملك اذا لم يعص، لا تتم حجة الله، والملك لا يمكنه ان يكون أسوة، والملك لا يمكن رؤيته بهذه العيون، وسوف يأتي اليوم الذي ترون الملائكة. **﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾**[4] ، ذلك اليوم، يوم عناء للكفار، ذلك اليوم ليس يوم نشاط وبشرى، يأتي يوم ترون الملائكة، ولكن لا ترونهم ما لم تعبروا الطبيعة، وما لم تجدوا العين البرزخية، لا ترون الملك، وفي ذلك اليوم يقول الملائكة للكفار **﴿حجراً محجورا﴾**[5] ، أي ان كل بشرى بالجنة ونشاط حرام وممنوع عليكم، وبناء على هذا فكما ان كلام أهل التفريط من الوثنيين ثرثرة فكذلك كلام أهل الافراط منهم باطل،

---

(١) سورة الانعام، الآية (٩).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٢٢).
(٣) سورة النجم، الآية (٣٠).
(٤) سورة الفرقان، الآية (٢٢).
(٥) سورة الفرقان، الآية (٢٢).

ومع ان كل الملائكة لديهم رسالة إلهية. ﴿**الحمدلله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً**﴾[1]، فهذا الجمع المحلى بألف ولام يدل على ان جميع الملائكة رسل، الا ان رسالتهم ليست بمعنى النبوة لأهل الأرض، ليس هناك ملك الا ويكون رسولا لله، ولكن ليس بالشكل الذي يأتي فيه بالوحي ويتصل مباشرة مع البشر، فهذا كلام الافراطيين وذاك كلام التفريطيين الذين يقولون: ﴿**لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾[2]، والمقلدون يقولون: ﴿**انا وجدنا آباءنا**﴾، وقد قالوا لجماعة من أسفل طبقات أهل الشرك بأن يقولوا للأنبياء بأن وحيهم أسطورة ورجعية قديمة وتكرار للماضي.

والخلاصة، لقد اتضح ادعاء أهل التحقيق، وقول أهل التقليد منهم، وكذلك كلام الغوغائيين الذين كانوا يقولون: ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[3]، وكانت هناك جماعة تتسلم منهم أوامر الغوغائية. وبناء على هذا، فقد بيّنت في هذه السور السبع، الأصول الثلاثة بالاستدلال، بيّنت ذلك بالعقل وبالوحي وذكرت لمنكري أصول الدين بأن كلامهم لا يستند الى العقل ولا الى النقل.

نرجو الله تعالى ان يوفق الجميع لفهم معارف القرآن الكريم، وان يجعل قلوب الجميع، أوعية للمعارف الالهية. غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة فاطر، الآية (١).

(٢) سورة الزخرف، الآية (٣١).

(٣) سورة فصلت، الآية (٢٦).

الدرس الثاني عشر

العقل منشأ احترام الوحي الالهي

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

لكل سورة من سور القرآن الكريم مضمون خاص، لا يوجد بكل خصائصه في سائر سور القرآن الكريم، ولبعض السور، أحياناً مضمون مشترك، يؤدي الى انسجام اكثر بين تلك السور. هناك عدة سور في القرآن الكريم، تدعى الحواميم السبع، وقد ذكر في بداية كل منها، حرفين مقطعين هما ﴿حم﴾، ولما كانت الحروف المقطعة رمز لمحتوى السورة، فان هذه السور السبع، لها مضمون مشترك علاوة على المضمون الخاص بكل منها. وتؤدي هذه السور السبع في الخطوط العامة معنى واحداً، ولهذا تشاهد في بداية هذه السور السبع حروف مقطعة مشتركة. ومن هنا عرفت بالحواميم السبع، والمضمون المشترك لها، هو بيان الوحي وأهمية الوحي ومبدأ تحقق الوحي ومسير الوحي، وما جاء به الوحي، فمثلاً بالنسبة للقرآن الكريم، من

ناحية انه وحي إلهي، تطرح مسألة من أين يبدأ، وماذا يحمل معه أي ما الذي يأتي به؟ وبما ان الجزء المهم لما جاء به الوحي، هي الأصول الثلاثة، التوحيد والنبوة والمعاد، فقد بحثت هذه السور السبع حول هذه الأصول الثلاثة بشكل مفصل، وقد اتضح بعض مباحث هذه السور خلال الدروس الآنفة.

كانت خلاصة تلك المسائل، هي ان الانسان اذا أراد ان يؤمن بعقيدة، فعليه ان يستند اما الى برهان عقلي او الى دليل نقلي معتبر. والكلام الذي لا يراه البرهان العقلي صحيحاً، ولا يعتبره الوحي السماوي، صحيحاً كلام باطل وفارغ ويجب ان لا يقبله الانسان، أي ان طريقة حياة الانسان، سواء في الكلام والسلوك او في الاعتقاد والاخلاق وأمثالها، يجب ان تكون بالاستناد الى عقل قطعي او نقل معتبر وتتألف شخصية الانسان من ثلاثة ابعاد، العقيدة، الأخلاق والسلوك. ويجب ان يرتكز في هذه الأبعاد الثلاثة، على العقل القطعي، او على الوحي الالهي، والقرآن يبين برهان التوحيد، في هذه السور بشكل مفصل، اما الآخرون الذين كانوا يعبدون غير الله، ويعتبرون عبادة غير الله، حقاً فكانوا يستدلون بالقول بأن طريقتنا لو لم تكن حقاً، وكانت باطلاً، لمنع الله ذلك الباطل، ولما لم يمنع الله هذه الطرق، فعليه ان طريقتنا حق، كما ان طريقة آباءنا لو لم تكن حقاً، لمنعها الله، وبما انه لم يمنعها، فطريقة آباءنا كانت حقاً، وبهذا القياس الاستثنائي، كانوا يظهرون ان عملهم كان حقاً وان طريقة آبائهم كانت صحيحة، وهذا الاستدلال موجود في سورة الزخرف، وهناك ما يشبهه في سورة الانعام وسورة النحل. وقد تقدم بيانه. في هذا الاستدلال، لم يفرّقوا بين الارادة التكوينية والارادة التشريعية واللتين تعودان الى ارادة التكوين وارادة

التشريع، فالارادة التكوينية لله، لا تقبل الخلل، فاذا أراد الله شيئاً بالارادة التكوينية، تحقق مراده، ولكن في الارادة التشريعية وهي ارادة التشريع، يريد الله ان يختار الانسان أحد هذين الطريقين باختياره، طريق الصواب وطريق غير الصواب، في الارادة التشريعية يحفظ اختيار الانسان، أي ان طريق طاعته وعصيانه، مفتوحان ومتعلق الارادة التكوينية هو فعل الله نفسه اما متعلق الارادة التشريعية فهو الانسان المختار فالله لا يريد تكوينا تحقق أحد هذين الطريقين على نحو التعيين وانما بالارادة التشريعية فجعل الانسان مختاراً ليفكر في هذين الطريقين ويختار أحدهما بحرية ﴿**انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً**﴾[1] . وقد ذكر القرآن ذلك القياس الاستثنائي الذي كان منشأ ذلك الخلط بين التكوين والتشريع، وبيّن ان هذا الاستدلال لا يرتكز على العقل ولا على الوحي، اذ لا العقل السليم يرى تلك الفكرة على حق، ولا يوجد في الكتب السماوية ما يشير الى ان هذا الكلام صحيح، اي ان الكلام اما ان يستند الى العقل او الى النقل المعتبر، حيث روي عن الامام الكاظم عليه السلام قوله: «ان لله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة».

كان استدلال المشركين الذي ورد في سورة الزخرف هو: ﴿**وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم**﴾[2] هذا القياس الاستثنائي الذي ورد في سور الانعام والنحل والزخرف، كان المشركون يذكرونه أحياناً للتدليل على صحة عبادتهم الملوثة بالشرك، وأحياناً لابطال النبوة والوحي، يقولون لو كان الوحي والنبوة حقاً، ولو كان التحليل والتحريم خاصاً بالوحي السماوي، لما حرمنا بعض الأشياء ﴿**ولا حرمنا من شيء**﴾[3] ، وبما اننا وكذلك آباءنا

(١) سورة الانسان، الآية (٣).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٢٠).
(٣) سورة الانعام، الآية (١٤٨).

حرّمنا ونحرّم بعض الأشياء، فيتضح ان ليس هناك وحي ونبوة حتى يكون التحليل والتحريم من قبله. وقد كان قول القرآن قبال هذه الفكرة ﴿**ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون**﴾[1] . انهم يتكلمون على أساس تخمين لا على أساس علم ﴿**أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون**﴾[2] ، ذلك الكلام، ليس له منشأ عقلي قطعي، ولا يستند الى الوحي السماوي، وقد تقدم هذا البحث في الدرس السابق، بشكل مفصل.

ان القرآن، يبحث ويستدل مع الطائفة التي وقفت امام الوحي وأصبحت في مواجهة الأنبياء ورفضت كلامهم، ويخوفها من عواقبها المشؤومة، ويحلل المصدر الذي نجم عنه هذا اللون من التفكير. وقد بيّن في مسألة الاستدلال، ان هذا الاستدلال لا يقبله العقل، ولا يؤيده الوحي السماوي أي ليس لديه حجة ظاهرة ولا حجة باطنة، واما عن مصدر هذا النمط من الاستدلال، وما هي جذوره، فقد ذكر القرآن الكريم: ﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون**﴾[3] ، مما يدل على أن الترف والاسراف والتعلق بالطبيعة، هو مصدر هذا النوع من التفكير المنحرف، فالمترفون هم الذين يتكلمون باللغو امام الوحي الالهي، والثري المتعلق بالطبيعة هو الذي يعترض على الوحي ويقول: ﴿**انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون**﴾، والنبي ﷺ يقول لهؤلاء المترفين ﴿**قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم**﴾[4] ، والأدب القرآني يقتضي ان يعبّر بكلمة أهدى،

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٢٠).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٢١).
(٣) سورة الزخرف، الآية (٢٣).
(٤) سورة الزخرف، الآية (٢٤).

لم يقل انا حق وأنتم باطل، وانما دعاهم الى التفكير ورؤية أيهما أفضل؟، أي من الأفضل هل الكلام الذي تؤيده حجتين، أي الوحي وهو حجة ظاهرة، والعقل، وهو حجة باطنة أفضل ام الكلام الذي تضعِفه كلتا الحجتين؟ ﴿**قال او لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم**﴾، وفي موضع آخر، حين يبين أدب الرسالة، يقول: ﴿**وانا أو اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين**﴾[1] لم يقل اني على هدى، قال ﴿**وانا او اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين**﴾. ابحثوا لترون هل نحن على ضلال ام أنتم؟ لم يقل صراحة اني على هدى وأنتم في ضلال. وبعد ذلك، حيث أقيمت الحجة البالغة على هداية وحقانية الوحي، قال: ﴿**اني على بينة من ربي**﴾[2].

والخلاصة، ان المترفين كانوا يقولون مقابل الوحي والنبي هكذا: ﴿**قالوا انا بما أرسلتم به كافرون**﴾[3] وبناء على هذا، فقد اتضح حتى الآن، ان الكلام الذي يعتبره القرآن صحيحاً، هو الذي يكون مطابقاً اما للحجة الباطنية، وهي العقل، او للحجة الظاهرية، وهي الوحي، والقول الذي يكون مخالفاً لهذه الحجة، يعتبره القرآن باطلاً، ولا يراه لائقاً للانسان المفكر، ويعتبر ان أساس هذا النوع من التفكير المنحرف، هو الاتراف والاسراف، والتعلق بالطبيعة وحب الدنيا وأمثال ذلك. ثم حذر وذكر بأن هؤلاء الذين وقفوا بوجه الوحي، نتيجة الاتراف والاسراف وحب الطبيعة، وطرحوا ادعاء لا يؤيده الوحي ولا يقبله العقل، لن يتركوا، حيث ينتقم منهم اما في الدنيا، او في الآخرة، أو في كلا الموطنين ﴿**فانتقمنا منهم**﴾[4] لأنهم

---

(١) سورة سبأ، الآية (٢٤).

(٢) سورة الانعام، الآية (٥٧).

(٣) سورة الزخرف، الآية (٢٤).

(٤) سورة الزخرف، الآية (٢٥).

كفروا بأفضل وأثمن نِعَم الله، وقالوا: ﴿انا بما أرسلتم به كافرون﴾، ونتيجة كفران الحق والنعمة، ليست الا انتقام الله. ﴿انا من المجرمين منتقمون﴾[1]. وكما مر في بحث الانتقام، فان الانتقام أربعة أقسام، والانتقام الالهي هو من النوع الرابع، فهو ليس من باب التشفي ولا من باب اقامة النظام الذي هو انتقام اعتباري، ولا الانتقام الذي يقوم به الطبيب من المريض غير الملتزم بالاحتماء بل انتقام الولي الرؤوف من المولى عليه المشاكس وقد مر بحث الأقسام الأربعة للانتقام في بيان الآية ﴿انا من المجرمين منتقمون﴾.

﴿فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾[2]، بيّن ان هؤلاء الذين ليس لديهم قول حق، اذا أرادوا الاعتماد على ثروتهم وقوتهم المادية ورفضوا الوحي الالهي، فانهم يهلكون، حيث هلك قبلهم من كان أكثر منهم قوة وثروة. وان ارادوا الاستناد الى الدسائس السياسية والخطط والمكر، فان مكر الله أقوى منهم، وقد أعلن الله سبحانه سد كلا الطريقين، فلا طريق الاعتماد على الثروة، مفتوح، ولا طريق الاستناد الى السياسة والخطط، ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين﴾[3]. وقد تقدم في المباحث السابقة، ان هناك طائفة، هلكت سابقاً، لا تصل قدرة المترفين الحاليين، عشر قدرتهم ﴿وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾[4]، واذا كان المكر والمخططات السياسية وأمثالها آداتهم، فقد قال تعالى في أواخر سورة الزخرف، ﴿ام أبرموا أمراً فانّا

---

(١) سورة السجدة، الآية (٢٢).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٢٥).
(٣) سورة الزخرف، الآية (٨).
(٤) سورة سبأ، الآية (٤٥).

مبرمون﴾[1] ، انهم يمكرون ويحتالون ويعتمدون على سياساتهم القوية هذه، لكننا نحن الذين نطرح الخطط القوية، نحن الذين نقوم بأمور سياسية مبرمة وقوية، لأننا بكل شيء أعلم وأحكم لا أولئك ذوي العقول الفارغة، فالضعف العقلي هو منطلقاتهم السياسية، ضعيفة وجوفاء، ومخططات ذوي العقول الجوفاء، هي بلا مضمون كذلك والأمر الذي بلا محتوى لا يكون مبرماً وقوياً. ان أمر الله صمد قوي، وليس أمراً انسانياً أجوفاً فارغ الروح نتيجة خلو المضمون، ولذا تكون خططه (ذي العقل الأجوف) السياسية خفيفة وليست قوية ومتقنة.

﴿أم أبرموا أمراً فانا مبرمون﴾، أي نحن الذين تكون أمورنا قوية، نظير الآية الكريمة التي تقول: ﴿أم يريدون كيداً﴾[2] ، فالذين مكروا ﴿هم المكيدون﴾[3] . انهم يصبحون تحت حكم المكر والخطة الالهية، يصبحون تحت سلطة الحيل الالهية، ويقال للحيلة، حيلة لأنها لا تسمح للانسان ببلوغ الهدف وتحول بين الانسان وهدفه، ولا يستطيع الآخرون ان يحولوا دون وصول الأنبياء الى هدفهم، ودون وصول المجتمعات البشرية الى هدفها. اما الله، فيقدر ان يحول ولا يسمح للمترفين، بالوصول الى هدفهم المشؤوم، اي انه يكون حائلاً، ويجعلهم يائسين من الوصول الى هدفهم الباطل، وقد قال حول القيامة ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾[4] .

قال تعالى: ﴿أم أبرموا أمراً فانا مبرمون﴾. ان السر في ضعف أمر هؤلاء، هو أنهم خفيفون، والانسان غير المؤمن، خفيف العقل. وهؤلاء

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٧٩).
(٢) سورة الطور، الآية (٤٢).
(٣) سورة الطور، الآية (٤٢).
(٤) سورة سبأ، الآية (٥٤).

ذوو العقول الجوفاء، مرتكزهم السياسي هو الخفة العقلية، ومخططات أهل العقول الجوفاء هؤلاء، خالية من المحتوى، أيضاً، والأمر الذي بلا محتوى، ليس مبرماً وقوياً الأمر الفارغ، ليس قوياً. الأمر الصمد هو القوي، وليس الأمر الأجوف.

ان الانسان الذي تكون نفسه خالية، نتيجة فراغ العقل، تكون مخططاته السياسية خفيفة، كذلك، وغير قوية ومتقنة، واذا كانت نفس الانسان خالية وخفيفة، فان فكره السياسي وخطواته وكلامه وقلمه وأثره، تكون خفيفة أيضاً، والشيء الخفيف لا يبقى في نظام الحق الوزين، لأن نظام الخلق، هو نظام الحق، والحق وزين ثقيل، فحين يذكر الله القرآن، يقول ﴿**انا سنلقي عليك قولاً ثقيلا**﴾[(١)] . كلام الحق هذا ثقيل، لأنه يحمل مضموناً. هذا الكلام ثقيل لأنه متأصل، هذا الكلام غني المضمون وهادف، لأنه كلام الصمد. وكل ما لا يطابق العقل والوحي، فهو خفيف، وكل من لا يتبع العقل والوحي، فهو فارغ العقل والمخططات السياسية للانسان فارغ العقل، تكون فارغة والمخططات الفارغة ضعيفة والأمر غير القوي لا يكون ثابتاً.

وقد حدد في سورة الزخرف، طريق نفوذ هذا التفكير المنحرف بين الناس، فذكر انه ناجم عن اتراف واسراف الأثرياء وتعلقهم بالطبيعة والدنيا، ثم يسري الى الجماهير المستضعفة، فأساس كل فساد حب الطبيعة والمادة والتي هي تحت تصرف المترفين والأثرياء، فيخدعون الناس المستضعفين والمحرومين، في انه يجب الاهتمام بالطبيعة والثروة، وانه يجب طاعة الشخص الذي لديه ثروة، ثم يحكمونهم لذا يبين في هذه السورة قضية

---

(١) سورة المزمل، الآية (٥).

فرعون مصر، وقد كان استدلال فرعون في قبال وحي الحق، هو: ﴿**ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي**﴾[١]، أليس لي ملك مصر، أليست الثروة أصل كل ألوان الكمال والشخصية، والثري فرد أصيل؟ أليس يجب على الانسان ان يتبع الأصل ويكون تابعاً للأصيل؟ اذن يجب ان تتبعوني، وتكونوا تابعين لي، وقد رسخ هذه الفكرة الخام في الجماهير المحرومة ﴿**أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون**﴾[٢]، ألستم واعين؟ ﴿**أم انا خيرٌ من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين**﴾[٣]، وهذه هي (أم منقطعة)، أي أنني أفضل من الذي ليس لديه ثروة وسلطنة ولا يقدر على الكلام ولا يستطيع ان يبين غرضه بشكل جيد. وهي اهانة ليست في محلها، موجهة الى المقام الشامخ لموسى الكليم، الذي يتكلم بالكلام الحسن وتكلمه أيضاً بشكل حسن، لأن ما كان في لسان موسى الكليم، قد ارتفع بصورة جيدة، بالطلب من الله سبحانه، حيث قال الله: ﴿**قد أوتيت سؤلك يا موسى**﴾[٤] وحين بعث موسى الكليم، بالرسالة، حصل على امكانية الكلام بشكل فصيح.

كان استدلال فرعون هو: ﴿**فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب**﴾[٥]، أي لماذا ليس لديه أسورة من ذهب، وليس في يده خاتم ذهبي؟ ان الذي يجب ان يحكم، هو الذي لديه خاتم ذهبي في اصبعه وسوار ذهبي في يده، وبما انه ليس لديه، فيجب ان يكون الحاكم شخصاً مزينا بالذهب، وهو فاقد

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٥١).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٥١).
(٣) سورة الزخرف، الآية (٥٢).
(٤) سورة طه، الآية (٣٦).
(٥) سورة الزخرف، الآية (٥٣).

لذلك، فانا الحاكم، حيث انني مزيّن بالذهب. انها فكرة ساذجة ان يرى زينة الانسان في الذهب، انه فكر فارغ. **﴿او جاء معه الملائكة مقترنين﴾**[1].

وقد تقدم هذا البحث سابقاً. كانت ذريعة الافراطيين هي ان الملك يجب ان يكون رسولا، او ان الرسول يجب ان يؤيده ملك، فهذا قول الافراطيون، وذلك [الآخر] هو قول أهل التفريط. يقول القرآن: **﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾**[2]، وهذا هو تحليل الحكومات الطاغوتية ومصدر ذلك الفكر هو الاسراف والاتراف، وشكل نفوذه في الطبقة المحرومة هو التبليغ الباطل. فهذا التبليغ الباطل، رسخ ذلك التفكير المنحرف في جماهير الناس، وجعلهم فارغي العقول، والجماهير فارغة العقول تتبع الطاغوت وحسب.

أما الوحي السماوي، فهو كتاب ثقيل، له مكان في قلوب الأنبياء، يعمل على ترسيخ وتقوية قلوبهم. وكلام الأنبياء هو الوحي الثقيل، الذي ينفذ بين الجماهير المحرومة عن طريق التبليغ الصحيح، ويثري عقولها. والجماهير ذات العقول الناضجة والثرية من حيث المضمون، لا تطيع أمراً غير الوحي الالهي. هذا هو طريق الأنبياء الذي ينتهي الى هدف أصيل وثري المضمون، وذلك هو طريق الطواغيت الذين ينتهي الى السقوط الحتمي. ان الطواغيت يسعون الى استخفاف الناس، وأخذ الطاعة منهم، ويسعى الأنبياء الى جعل الناس علماء، وادخالهم الطريق، وايصالهم الى الهدف. **﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾**، وتدل كلمة **﴿فأطاعوه﴾** بـ(فاء التفريع)، على ان طاعة الجماهير المحرومة لطاغوت الزمان هي بسبب خفة عقولهم [ومتفرعة عليها]. ان اعتبار الأنبياء تحصيل العلم واجباً، وجعل الحرمة

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٥٣).

(٢) سورة الزخرف، الآية (٥٤).

والمقام المنيع للعالِم، والقول بأن احترام العالِم هو احترام لرسول الله ﷺ، واهانة العالِم، هي اهانة لرسول الله ﷺ، وذكرهم ان ملائكة السماء تستغفر للشخص الذي يجلس في مكان يطرح فيه علم ويتعلم فيه، وان عمره في ذلك المجلس، هو عمر مبارك، كل هذا هو من أجل ان يجعلوا الناس علماء وذوي وزن لأن الناس أهل العقول الثرية، لا يطيعون الطاغوت صاحب العقل الأجوف، بل يطيعون الصمد المملوء الباطن وصاحب جميع الكمالات. ان الانسان الناضج يأخذ الكلام من الصمد ويتبع الصمد، والانسان فارغ العقل، تابع للصنم والطاغوت فارغ العقل.

أحياناً من الممكن ان تظل الجماهير المحرومة جوفاء العقل، بسبب أجواء مفتعلة من قبل جماعة فاسدة، تؤثر شيئاً فشيئاً في مسؤولي المجتمع، لذا قال الله في ختام سورة الروم، لرسوله: ﴿**ولا يستخفنك الذين لا يوقنون**﴾[1]، لأن الانسان خفيف العقل لا يوصل الى الحق، والانسان الذي يريد الايصال الى الحق، يجب ان يكون انساناً ثري المحتوى وثقيلاً. ان هذه المجموعة التي تقوم بدسائس سياسية. تظن ان خالق العالم، لا يعرف ما في نفوسهم ولا يعلم بنجوى جلساتهم السرية، في حين ان الظاهر والباطن واضح كله عند الله.

ان كل المخططات والمؤامرات والدسائس، ناجمة عن نسيان القيامة، ويكفي في أهمية المعاد انه من أصول الدين مثل المبدأ والوحي. والحواميم السبع تؤكد كثيراً على المعاد، وقد ذكر ان جميع هذه المخططات هي نتيجة أنهم نسوا المعاد، وتوهموا ان الله لا يعلم بأسرارهم الباطنية ونتائج اجتماعاتهم السرية، ونسيان الموت والقيامة هو الذي يفضي الى هذه

---

(١) سورة الروم، الآية (٦٠).

الدسائس السياسية ﴿**ام يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم**﴾[1] . ان الله يسمع، حتى السر الضعيف الذي يطرحه الانسان مع نفسه كحديث نفس، والملائكة تسمع أيضاً ذلك. والله يحول بين الانسان ونفسه، وقد بيّن القرآن الكريم مراتب قرب الله من الانسان في عدة مراحل، يقول في المرحلة الأولى: ﴿**واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان**﴾[2] ، ثم يقول في المرحلة الثانية، بأنه تعالى أقرب اليه من الآخرين، في قضية المحتضر، يقول: ﴿**ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون**﴾[3] . وفي المرحلة الثالثة يقول: ﴿**ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد**﴾[4] . والمرحلة الرابعة التي ليس هناك فرض أكثر من هذا، يقول: ﴿**واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه**﴾[5] . وقد بيّن الأستاذ العلامة الطباطبائي ـ رضوان الله تعالى عليه ـ هذه المراحل الأربعة، في تفسير الميزان القيم، حيث ورد بيان مراتب قرب الله الى العبد، بأربعة مراحل، في القرآن، ولا توجد مرحلة بعد المرحلة الرابعة تلك.

ان الله أقرب الينا منا، لأن وجوده اللامحدود قد شمل ذاتنا، وليس ثمة شيء، ليس لله به احاطه قيومية، ولا يكون داخلاً فيه لا بالممازجة. وهذا، هو ظهور فعل الحق وليس ظهور الذات، حسب التعبير الرفيع لصدر المتألهين، وقد ورد في شرح أصول الكافي، ان هذا هو ظهور فعل الحق (داخل في الأشياء لا بالممازجة)، وهنا قال بأنهم تصوروا ﴿**انا لا نسمع**

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٨٠).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٦)
(٣) سورة الواقعة، الآية (٨٥).
(٤) سورة ق، الآية (١٦).
(٥) سورة الأنفال، الآية (٢٤).

سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾[1] . والنتيجة هي ان سبب احترام وحي الله، هو العقل وسبب عدم الاهتمام بالوحي الالهي، هو الاسراف والاتراف وحب الطبيعة والدنيا، حيث يمكن من هناك ان ينفذ في الجماهير المحرومة، وان الأنبياء ثقيلون وباطنهم غني وكلماتهم ثقيلة أيضاً، وعن هذا الطريق، يعملون على انضاج الأمم واثراء باطنها.

نأمل ان تعمل معارف القرآن الكريم على انضاج قلوب الجميع واثرائها، وان تكون هذه القلوب التي هي اوعية العلوم، وعاء لعلوم ومعارف القرآن الكريم وسنة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، وان تختتم أعمارنا جميعاً بالخير والسعادة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٨٠).

الدرس الثالث عشر

الاعتماد على الأسباب والعلل المادية، ارضية الضلال

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

بالرغم من أن لكل سورة من سور القرآن الكريم مضمون خاص، الا ان لبعض سوره مضمون مشترك، أي ان لكل سورة خصائص معينة، وفي نفس الوقت هناك مضمون مشترك لعدة سور، والسور التي لها محتوى مشترك، تشرع بمسألة معينة وتختتم بمسألة محددة نظير السور السبع التي ذكر في بدايتها الحرفين المقطعين ﴿حم﴾، لأن الحروف المقطعة هي رمز الى محتوى السور، كما ان من الممكن ان تكون اشارة الى الحروف التي استعملت في تلك السور. ومضمون هذه السور السبع متشابه لأن محتواها المشترك، هو بيان الوحي وأهمية الوحي وما نزل به الوحي. وبما ان أهم مسألة يبينها الوحي هي أصول الدين الثلاثة، أي التوحيد والنبوة والمعاد، وقد ورد بيان أهمية الوحي ومضمون الوحي في هذه السور السبع، لذلك فان

ثمة انسجام خاص بين هذه السور السبع، وقد تقدمت كثير من مسائلها في مباحث سابقة. ومن مضامين هذه السور السبع، هي انه ليس ثمة شيء يقف امام وحي الله، لأن سنة الله تقوم على احياء البشر عن طريق الوحي. والطائفة التي تتخذ موقفاً في مواجهة الوحي، وتتعامل معه باستكبار، تقوم بذلك نتيجة الاتراف والاسراف والتعلق بالطبيعة والدنيا، حيث ان (حب الدنيا رأس كل خطيئة). ان الذين وقفوا في مقابل الوحي يعتمدون على عدة أشياء، فاما يعتمدون على العلل والأسباب الظاهرية التي يتمكنون منها، او هم يستندون الى الانساب والروابط القومية والعرقية، او يستندون الى الارتباطات الاجتماعية والصداقة الاعتبارية، فيسيئون الاستفادة من العلل والأسباب التي لديهم، وكذلك يستفيدون بشكل غير صحيح من الارتباط القومي والعرقي والنسبي او الفئوي، والعلاقات الودية مع الآخرين، فيقفون بوجه الوحي ويتصرفون تجاهه باستكبار، اعتمادا على هذا اللون من الأمور الاعتبارية او الأسباب الطبيعية.

ان القرآن، يعتبر هذه الأمور، سبباً لعدم القبول بالوحي، ثم يشير الى انه سيأتي يوم لا يكون لهذه العلل والأسباب اي دور. بل تظهر في ذلك اليوم الآثار المشؤومة للاستفادة السيئة منها، فليست هي في متناول اليد، في يوم القيامة هذا اولا، ثانيا، لا يطرح هناك الارتباط القومي والعرقي أساساً، ثالثاً، لا يكون لمواثيق الصداقة أي دور، وانما تظهر آثارها الضارة في يوم القيامة، ولو يعلم الانسان العاقل، انه ليس هناك دوام لهذه الأسباب والعلل الظاهرية، ويفهم ان الانساب القومية والعرقية ليس لها قاعدة وأساس، ولو يعلم ان مواثيق الصداقة لا تستمر الى الأبد، لما وقف في مواجهة الوحي ولما اتخذ موقفاً ضده بل لسلم له وقبله.

وقد أشير الى الأمور المذكورة، في سورة الزخرف، التي بحثنا فيها في دروس سابقة، فقد ذكر اعتمادهم على الصداقة، في حين ان ﴿الاخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو﴾[1] ، الصداقة اذا لم تكن في اطار التقوى، فهي عداوة في الحقيقة، ويظهر باطن هذه الصداقات وهو العداوة في يوم القيامة، الذي هو يوم ظهور الحق، لأنه لا توجد فضيلة وسداد في صداقة الأفراد غير المتقين، بل كل صديق يطلب من الآخر باطلاً، من أجل تحقيق هدفه، فيقوم الآخر بالاستجابة لطلب صديقه الباطل عن طريق التعاون على الاثم، ولما كان طلب الناس غير المتقين، هو عداوة في الحقيقة، فان تنفيذ رغباتهم هذه، هي عداوة في الحقيقة أيضاً، لأن ما يطلبه الأفراد غير المتقين يعني الانحراف، وتلبية طلباتهم غير المشروعة، يكون نفس ذلك الانحراف أيضاً. إذن صداقة الأشخاص غير المتقين، حقيقتها عداوة ويجب ان تظهر الحقيقة في يوم القيامة الذي هو يوم ظهور الحق ﴿ذلك اليوم الحق﴾[2] ، لذا يقول في هذه السورة الكريمة: ﴿الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين﴾، فاذا لم يكن محور الصداقة هو التقوى فهي عداوة في الحقيقة، وليست محبة، وبما ان القيامة هو يوم ظهور الحق، وبما ان باطن صداقة الأفراد غير المتقين، هو عداوة، فان هذا الباطن يظهر في يوم القيامة ويصبح هؤلاء الأشخاص أعداء لبعضهم البعض، لذا فان كل من يدخل النار، يقوم بلعن الآخر ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾[3] ، اما الأفراد المتقون وبما ان محبتهم في الدنيا حق فتظهر هذه الحقيقة في يوم القيامة، ويشفع بعضهم للآخر أحياناً، لذلك يقول المجرمون يوم القيامة: ﴿يا ليتني اتخذت مع

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٦٧).
(٢) سورة النبأ، الآية (٣٩).
(٣) سورة الأعراف، الآية (٣٨).

الرسول سبيلا﴾[1] ، انه سيد القافلة، فالأنبياء سادة القافلة في طريق السير الى الله، وسيدهم كلهم في القافلة، خاتم الأنبياء ﷺ، **﴿يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾**[2] . ان صداقة غير المتقين، حقيقتها عداوة، والعداوة هي باطن العلاقات والمعاهدات غير الصائبة، وهذه البواطن تظهر في يوم القيامة. وأما بالنسبة للعلل والأسباب الظاهرية، فيبين ان هذا المعنى يظهر جيداً يوم القيامة للأشخاص الذين كانوا متبعين للطواغيت والفاسقين. **﴿اذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا﴾**[3] فتظهر تبعية وارتباط الأفراد، الذين اتبعوا غير المعصوم بصورة عداوة، يوم القيامة، ويقول الأفراد التابعون: **﴿وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا﴾**، **﴿ورأوا العذاب﴾** يشاهدون العذاب الذي هو نتيجة هذه الأعمال الفاسدة، وتتقطع تلك الأسباب والعلل الصورية والظاهرية التي كانت لديهم في الدنيا، والتي كانوا يسيئون الاستفادة منها أي تتقطع علاقة المسبب والأسباب الدنيوية، وهذا لا يعني ان عالم القيامة، ليس عالم الأسباب والعلل، فعالم الوجود، هو عالم العلية والمعلولية ولا يتحقق شيء من دون علة، سواء في الدنيا او في البرزخ او في المعاد، ورابطة العلية والمعلولية في نظام الوجود لا تتقطع.

ان عدم وجود العلل والأسباب في القيامة، هو بمعنى ان تلك الأسباب والعلل الصورية والظاهرية التي كانت لدى الأصدقاء يفقدونها يوم القيامة، والطرق التي كانوا يستطيعون من خلال قطعها الوصول الى أهدافهم المشؤومة، لا يقدرون عليها في الآخرة، والأسباب التي كانت لديهم والتي

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٢٧).

(٢) سورة الفرقان، الآية (٢٨).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٦٦).

كانوا يفسدون بواسطتها، لا تكون لديهم هناك ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾[1]، والا فان أصل العلية والنظام العلي محفوظ في يوم القيامة.

وكل عمل يحصل في القيامة، يستند الى علله الخاصة ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾[2]، مما يدل على ان ما كان يعتبره الفاسقون ارتباطاً، كان في الحقيقة انقطاعاً فيفهمون ان الارتباط الحقيقي هو بين الخلق والله فقط، ولا يكون هناك ارتباط صحيح بين غير الله والخلق أبداً، ان الانسان اذا انقطع عن الله، لا يمكنه الارتباط بأي شيء وعلى أي شيء يعتمد، فهو في الحقيقة من دون معتمد، والارتباط بالمفسد انما هو انقطاع في الحقيقة، وهذا الانقطاع يظهر في يوم القيامة الذي هو يوم ظهور الحق، ان على الانسان ان يرتكز الى أساس أصيل، هو الله وحسب ﴿فماذا بعد الحق الا الضلال﴾[3]، لذا كان رسول الله ﷺ يقول للمفسدين: ﴿فأين تذهبون﴾[4]؟ على أية قوة تعتمدون؟ ولمن تلجأون؟. فالشخص الذي لا يرتبط بالله، يكون ارتباطه بأي شيء، انقطاع ﴿كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾، فالعلل والأسباب الظاهرية التي كانت لدى المتعلقين بالدنيا، والتي كانت تساعدهم في قيامهم بالأعمال غير الصحيحة، لا تكون لديهم في الآخرة، تنقطع جميع الصداقات والارتباطات، يأتي يوم لا تؤثر فيه النسب. حين ينفخ في الصور، ينهض الذين يحيون بنفخ الصور، وفي ما يتعلق بالأحياء بذكر الحبيب، قد لا تكون هناك حاجة الى نفخ الصور هذا،

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٦).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٦٧).

(٣) سورة يونس، الآية (٣٢).

(٤) سورة التكوير، الآية (٢٦).

وقد استثنى القرآن بعض الأفراد بعنوان ﴿من شاء الله﴾ في تلك النفخة الأولى بموت الجميع، والشخص الذي كان حياً بذكر الحبيب، لا يحتاج الى نفخة ثانية في تلك اللحظة التي ينفخ فيها في الصور وينتفي دور الانساب الاعتبارية، ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾[1]، لأن الكل يخرجون من التراب دفعة واحدة، حيث لا يولد ولد من أب، ولأنه لا يوجد هناك توليد وتوالد، فانه لا تكون هناك أنساب وأرحام كذلك ﴿ولا يتساءلون﴾[2] وبما انه ليست لديهم نسبة، لأن الكل ينهض من التراب، فانه لا يكون لديهم ارتباط عرقي، وما يدعى اليوم بالعشيرة تحل محله غداً الفضيلة، والجماعة التي تعيش في الدنيا معاً سوف ينفصل أفرادها عن بعضهم الآخر غداً، ﴿وفصيلته التي تؤويه﴾[3]، وتتحول العشيرة في الدنيا التي يعيش أفرادها معاً الى فصيلة يوم القيامة يقول الشاعر الفارسي (ما ترجمته):

كم من أمير هنا سيكون أسيراً هناك وكم من أسير هنا سيكون أميراً هناك.

وكم من فارس هنا سيكون راجلاً هناك وكم من راجل هنا سيكون راكباً هناك.

فالعشيرة اليوم تكون فصيلة غدا، والصداقة اليوم تكون عداوة غدا، والوصل اليوم هو فصل غدا، والارتباط الطبيعي والدنيوي هو انقطاع معنوي واخروي. اذن ليس للنسبة الطبيعية والدنيوية دور في يوم القيامة، وليس للصداقة والارتباطات الاعتبارية والعقود الاعتبارية دور في ذلك الموطن، كما ان الارتباطات القومية والقبلية والعرقية والجغرافية، لا أثر لها هناك، والأسباب والعلل التكوينية وحدود طبيعة الدنيا، ليس لها ظهور في القيامة،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (١٠١).

(٢) سورة المؤمنون، الآية (١٠١).

(٣) سورة المعارج، الآية (١٣).

بل يظهر في ذلك العالم، باطن تلك الأمور. ان الانسان المنقطع عن الله في الدنيا، يعتمد على هذه الأمور ولكن على أي أمر سيعتمد يوم القيامة؟ فالأسباب منقطعة وكذلك الأنساب والارتباطات مع الأصدقاء فاذا ليس هناك سبب ولا نسب ولا صداقة، فعلى أي شيء يعتمد الانسان؟ ان عليه ان يعلم اليوم ان الانسان في يوم القيامة يكون هو وعقائده فقط، هو واخلاقه هو واعماله فقط، ويجلس الى مائدة عقيدته وخلقه وعمله وحسب الى الأبد، ويجب ان يفكر الانسان بيومه هذا، لذا فقد بيّن الله سبحانه، في هذه الحواميم السبع، ان هؤلاء انما وقفوا بوجه الوحي السماوي وتعاملوا معه باستكبار، لأنهم نسوا يوم القيامة.

وكما طرح في البحث السابق، كان فرعون يعتمد على ثروته وسلطنته ويقول بأن موسى الكليم محروم من الثروة والسلطنة. وقد رفض القرآن هذا السخف العقلي، وأوضح برهان الأنبياء ضمن شرح قضية النبوة، للقضاء على الذين كانوا يتعاملون باستكبار امام الوحي الالهي ولا يقبلون به، حيث انه كما بيّنا سابقاً، ان القرآن يصدق الموضوع الذي يكون مطابقاً للوحي السماوي او مطابقاً للعقل، لذا عندما ينقل ادعاء المشركين يقول: **﴿ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون * أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾**[1] ، فلا العقل يؤيد قولهم ولا الوحي السابق وكتب الأنبياء السابقين يراه صحيحاً وفي امتداد نفس هذا الموضوع، قال تعالى في سورة الزخرف:

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك﴾[2] ، أي اسأل الأنبياء السابقين، هل

---

(١) سورة الزخرف، الآيتين (٢٠ و٢١).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٤٥).

يصدقون ادعاء هذه الفئة؟ هل يؤيدون عبادة الأوثان ام لا؟ **﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾**، ولو تسأل الأنبياء السابقين، فانهم لا يصدقون مزاعم هؤلاء **﴿وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾** (1).

ان هذه القاعدة هي قاعدة حية ولا تختص بالوثنيين في الحجاز الشخص العابد للهوى عابد للوثن، والانسان الذي يعمل طبق ميله، ليس موحداً، والذي يقول انني أعمل كل ما أحب ليس موحدا **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾** (2). ان هذا الأمر لا يؤيده العقل ولا الوحي وهل هناك من معبود يعبد غير الله الرحمن والذي جميع الرحمة منه؟ هل هناك من وحي يؤيد هذا الأمر؟ ان قوله لرسوله ﷺ **﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾**، سواء في ما يتعلق بالمعراج، أي اسألهم في المعراج، أو في ما يتعلق بالكتب السماوية غير المحرفة، أو الرجوع الى علماء الشعوب الرسميين والالهيين، او سماع، اخبارهم المتواترة، انما هو من أجل ان يثبت ان المسألة المقبولة، هي التي يؤيدها العقل الوحي. على أي حال، فقد قال **﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾**، وهل يستطيع الانسان ان ينظم برنامج حياته، برغبته، ويطيع قانوناً غير قانون الله؟ هل يمكن للانسان الاعتماد على فكر لا يطابق برنامج الله؟ انه ادعاء لا يثبته العقل ولا النقل المعتبر، فقوله في سورة الزخرف **﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾** وكذلك قوله **﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾**، يعني ان مدّعي عبادة الأوثان، ليس لديهم برهان

---

(1) سورة الزخرف، الآية (٤٥).

(2) سورة الجاثية، الآية (٢٣).

عقلي، وليس لديهم دليل نقلي وأما انه لا دليل عقلي لديهم فلأن العقل يقول ان المعبود، هو الذي يكون مدبراً للكون. وعلى الانسان ان يعبد المبدأ المدبر والمالك والمربي له، ومالك الانسان ومدبره ومربيه هو خالقه لأن التدبير شكل من أشكال الخلق، فلا يمكن ان يكون احد ربا، الا الخالق، لأن الربوبية تعود الى الخلق، بالتحليل، أي انها اما تلازم الخلق او هي عينه، لأن الرب يعني المبدأ الذي يوجد علاقات المخلوقات معاً في خيط التكوين، وايجاد العلاقة هو نوع من أنواع الخلق، فربط شيء بشيء، هو نوع من الخلق، لأن تدبير الأشياء لا يكون ممكناً من دون ايجاد ارتباط وجودي، لذا فالتدبير لا ينفصل عن الخلق، ويستدل القرآن مشيرا الى ان القبول بأن لا خالق للكون والانسان سوى الله، يوجب القبول بأن لا رب للكون والانسان، سوى الله، لأن الربوبية لو تم تحليلها، فانها تعود الى الخلق، واذا كان من الصعب على الانسان ان يفهم معنى كيف ان ايجاد الربط بين الأشياء وخلق الكون الرابط هو عين الخلق، فان عليه على الأقل ان يقبل ان الذي يقدر ان يكون رباً ومدبراً انما هو الذي يكون خالقاً، وذلك عن طريق التلازم بين الربوبية والخلق.

ان الذي يستطيع ايصال الانسان والكون الى الهدف انما هو الذي يكون خالق الهدف وخالق الطريق وخالق المتحرك، فالخالق هو الذي يعلم ويقدر ويوصل، لذا فالربوبية هي للخالق فقط، وأنتم الذين تؤيدون ان خالق الكون هو الله يجب ان تؤمنوا بأن رب الكون هو الله كذلك. وبما انه هو الرب فهو المعبود أيضاً **﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾**[1]. وهذا الاستدلال العقلي ورد في عدة آيات من سورة الزخرف، اذن، البرهان

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٨٤).

العقلي قائم على التوحيد الربوبي.

وقد أقيم البرهان العقلي على خلاف طريقة الوثنيين، سواء الذين يعبدون وثنا صورياً، أو أولئك الذين يحملون مائة وثن في قلوبهم **﴿واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انني براء مما تعبدون * الا الذي فطرني فانه سيهدين﴾**[1]، وقد جعل الله، هذه الهداية بوصفها كلمة باقية في نسل ابراهيم الخليل عليه السلام **﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾**[2] أي لقد جعل الله كلمة التوحيد وطلب الهداية وتولي الفاطر والتبري من الطاغي هذه كلمة باقية في نسل ابراهيم الخليل عليه السلام.

مما يدل على ان نسل ابراهيم الخليل عليه السلام يتمتع بالتوحيد الى يوم القيامة، وهذا النسل لا ينقرض من ناحية التوحيد، لا ينقرض من ناحية تولّي الله، لا ينقرض من ناحية التبرّي من الآلهة الكاذبة، لا ينقرض من ناحية طلب الهداية من الفاطر. أحياناً يخطو الانسان خطوة كبيرة الى درجة يحافظ على نسله حياً الى يوم القيامة، وأحياناً يخطو الانسان خطوة منحرفة الى درجة يؤدي الى اغواء وضلال اتباعه دائماً. والقرآن وصف البعض بذلك الوصف، ووصف البعض الآخر بهذا الوصف، وللقرآن بيانان خالدان بشأن فئة من الاسرائيليين الذين اتبعوا السامري وتركوا نهج الوحي، وأصيبوا بانحراف عبادة العجل وسائر الوثنية، وكذلك بشأن الذين تركوا عيسى المسيح، وخضعوا للانحراف. قال في سورة المائدة بشأن اليهود: **﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة﴾**[3]، فهم لا يتحدون ولا ينسجمون

---

(١) سورة الزخرف، الآيتين (٢٦ و٢٧).
(٢) سورة الزخرف، الآية (٢٨).
(٣) سورة المائدة، الآية (٦٤).

أبداً، ولا يتذوقون لذة الصداقة ولا يتخلصون أبداً من مرارة العداوة لبعضهم البعض. واذا لم يكن المقصود من يوم القيامة في هذه الآية الكريمة يوم ظهور حضرة بقية الله عليه السلام، فانه يتضح انه يوجد في زمان ظهور ولي العصر عليه السلام عدد من الاسرائيليين واليهود، ليسوا تابعين للتعليمات الحقيقية لموسى الكليم سلام الله عليه، وهم مصابون بالبغضاء والعداوة، لكنهم مقهورون تحت الحكومة الاسلامية ﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة**﴾[1] ولا يسلمون في ذلك اليوم، بل «يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون»[2]، وقال بشأن النصارى، في نفس تلك السورة: ﴿**فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة**﴾[3]، فبالنسبة لليهود، القاء للعداوة والبغضاء، وبالنسبة للنصارى اغراء للعداوة والبغضاء، والالقاء أسوأ من الاغراء.

ان هؤلاء الأشخاص قد ساروا بخطوة أدت الى اصابة تابعيهم بالاختلاف دائماً. اما ابراهيم الخليل عليه السلام، فقد خطى خطوة توحيدية كبيرة أدت الى تمتع تابعيه الحقيقيين بكلمة التوحيد والهداية وتولي فاطر السماوات والتبري من الطاغوت، الى يوم القيامة، وكل مؤمن مرتبط بابراهيم الخليل عليه السلام، يعد من نسله، سواء كان نسله من الصوري ام لا ﴿**ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي**﴾[4]، مع ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أولى بابراهيم عليه السلام، لكنه ليس تابعاً لابراهيم، والقرآن الكريم لا يعتبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تابعاً للأنبياء السابقين، لا يقول له كن

---

(١) سورة البقرة، الآية (٦١).
(٢) بالاقتباس عن الآية(٢٩) من سورة التوبة.
(٣) سورة المائدة، الآية (١٤).
(٤) سورة آل عمران، الآية (٦٨).

تابعاً للأنبياء السابقين او لابراهيم الخليل بل يقول بان الله هداهم، وأنت اقتد بهدايتهم ﴿فبهداهم اقتده﴾[1]، وليس بهم أنفسهم. أطع الفيض الذي شملهم، لم يقل «بهم اقتده». وعلى حد تعبير الأستاذ العلامة الطباطبائي - رضوان الله عليه - ان بيان القرآن الكريم هو انه يأمر رسول الله ﷺ ان يطيع ويتبع الهداية الشاملة ﴿فبهداهم اقتده﴾ وليس «بهم اقتده».

والخلاصة هي ان ابراهيم الخليل عليه السلام يقول: ﴿انني براء مما تعبدون * الا الذي فطرني فانه سيهدين﴾، هذا هو برهان عقلي، على ان الذي يجب ان يكون رباً ومعبوداً، هو فاطر الانسان والكون، وكما مر في البحث السابق، ان سبب الانحراف عن هذا الطريق، هو حب الدنيا، حيث قال: ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين * ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون﴾[2].

أحياناً يضيّق الله تعالى عليهم، لعلهم يرجعون، يبين الله انه يضيق عليهم بعض الشيء لعلهم يرجعون عن الطغيان والفساد. ويجدون الطريق الصحيح، لكنهم لا يرجعون للأسف، يبتليهم لعلهم يرجعون لكنهم لا يعودون في حين ان هذه كانت أفضل فرصة وأفضل امتحان لهم. يقول تعالى بأنه ضيق عليهم ﴿لعلهم يتضرعون﴾[3]، وهذا المضمون ورد في سورة الانعام، وفي سورة الزخرف، محل البحث الآن. يبين انهم حين رأوا الضغط، قالوا بأنهم سيأتون الى الطريق القويم اذا رفع الضغط، وهو كلام يقولونه في الدنيا وفي الآخرة. فهم في الآخرة أيضاً لا يعتقدون بالله، الحق

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٩٠).
(٢) سورة الزخرف، الآيتين (٢٩و٣٠).
(٣) سورة الأنعام، الآية (٤٢).

يظهر للكافر في الآخرة، لكنه لا يستطيع الايمان بالحق، لأنه ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾[1] . ان الايمان فعل اختياري، والارادة تفصل بين النفس والايمان، وإرادة كسب الايمان لا تتحقق في الآخرة، «اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل»[2] ، حسرة الكافر هو ان الحق يظهر له يوم القيامة، الا انه لا يتمكن من الايمان به، لذا يقول لملائكة جهنم يوم القيامة: ﴿يا مالك ليقضِ علينا ربك﴾[3] .

انهم يتخيلون ان هناك موت ولأنهم كانوا يتخيلون ان الموت بمعنى الزوال لانهم لم يكونوا في الدنيا معتقدين بالقيامة، وكانوا يتخيلون ان الموت يعني الزوال فنفس هذا الخيال الباطل يظهر في القيامة ويتمنون لو أنهم ماتوا، بينما ليس في القيامة موت، ولا الموت يعني الفناء والزوال.

والنتيجة، ان ما يؤدي الى وقوف الانسان مقابل الوحي الالهي، هو الاعتماد على الأسباب والعلل الظاهرية، الاعتماد على الأنساب الاعتماد على الأصدقاء، وقد حلّل القرآن كل الأقسام الثلاثة والأبعاد الثلاثة، وبيّن عدم ثباتها وذكر بأنها لا تفيد يوم القيامة.

نرجو الله، ان تؤثر معارف القرآن الكريم، في قلوب جميع المسلمين في العالم. وان لا نقبل محبوباً غير الله، ولا نحب غير الله، ولا تكون في قلوبنا محبة غير محبة الله، حتى تكون قلوبنا سليمة وان نتمتع في ذلك اليوم الذي لا يفيد أي قلب ﴿الا من اتى الله بقلب سليم﴾، بالفيض الخاص. نرجو

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٦).

(٢) نهج البلاغة للفيض، الخطبة ٤٢ .

(٣) سورة الزخرف، الآية (٧٧).

ببركة القرآن وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ، ان يختم اعمارنا جميعاً بالخير والسعادة، ان شاء الله .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الـدرس الرابع عشر

الوحي سنة الهية ازلية

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين .

القرآن الكريم لا يشاهد في كل آياته غير الانسجام في بيان المعارف الالهية ، الا ان بعض السور نزلت بشأن مسألة خاصة ، ووحدة ذلك المضمون بينها تظهر هذه السور المعينة بشكل اكثر انسجاماً نظير الحواميم السبع في القرآن، التي تبدأ كل منها بـ﴿حم﴾، لها كلها مضمون مشترك، والحروف المقطعة فيها أيضاً تشير الى مضمون السورة. وتشرع هذه السور السبع التي لها مضمون مشترك برمز خاص هو ﴿حم﴾ وقد طرحت بعض هذه السور ومضمونها المشترك، سابقاً. واحدى هذه السور التي سيبدأ بحثها ان شاء الله ، هي سورة الشورى ، التي تبدأ بـ﴿حم * عسق﴾.

والحروف المقطعة التي هي بداية بعض السور ، مختلفة ، بعضها يتألف من حرف واحد مثل ﴿ن﴾ و﴿ق﴾ و﴿ص﴾ . بعضها من حرفين، او

ثلاثة حروف، او أربعة حروف او خمسة حروف كسورة الشورى، وقد ذكرنا في مباحث سابقة ان الحروف المقطعة تشير الى مضمون السور. هناك رمز بين الله تعالى، والمخاطب وهو الرسول الأكرم ﷺ. والمتكلم ومخاطبه يعلمان كيف ان هذه الحروف المقطعة هي رمز. اما أصل الرمزية فيمكن فهمه عن طريق ان السور التي تبدأ بحرف مقطع اذا كان لها مضمون مشترك تكون حروفها المقطعة متساوية واذا كانت هناك سورة تجمع مضامين عدة سور، فانه يذكر في بدايتها مجموع الحروف المقطعة لتلك السور المتعددة، مثل ﴿ألم﴾ و ﴿ص﴾، فالسورة التي تشرع بـ﴿الم﴾، لها مضمون، والسورة التي تبدأ بـ﴿ص﴾، لها مضمون، وبما ان مجموع مضمون هاتين السورتين قد جمع في سورة الأعراف، لذا بدأت سورة الأعراف بـ﴿المص﴾، وهي مجموع الحروف المقطعة لتلك السورتين، واحتمال ان الحروف المقطعة هي اشارة الى الحروف التي استعملت اكثر من الحروف الأخرى، في تلك السورة او السور، احتمال مقبول، تؤيده شواهد كثيرة لكنه لا يمكن ان يكون لوحده رمزاً للحروف المقطعة.

وقد سبقت الاشارة الى ان القسم المهم لمضامين هذه السور السبع، هو بيان أصل الوحي وأهمية الوحي والخطوط العامة التي جاء بها الوحي للبشرية. في سورة الشورى بيّن القرآن الكريم، الوحي، بوصفه سنة إلهية أزلية، وذكره بوصفه أمراً مهماً وثقيلاً لا يتحمل تلقّيه اي كائن غير الانسان الكامل كما انه يقسم الوحي الى ثلاثة أنواع، ويشرح ما جاء به، هذه هي خلاصة المسائل التي تم بيانها في سورة الشورى. جاء في أول هذه السورة بعد بسم الله الرحمن الرحيم، **﴿حم * عسق * كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز**

الحكيم﴾[1] . هذه سيرة وسنة إلهية، فالله لا يدع البشر من دون وحي، لأن البشر سائر في طريق الأبد، والعقل الذي وهب للبشر، لا يرى طريق الأبد بكل ابعاده وخصائصه، فلا يلتفت لكثير من زوايا هذا المسير، وفي الجزء الذي يلتفت اليه قد يرتكب خطأ بعض الأحيان وان كان يفهم بشكل صحيح، أحياناً، وبناء على هذا، فان العقل لا يكفي لقيادة الانسان، ولا بد من تحديد طريق من قبل الوحي الالهي، لتأمين سعادته، وهو طريق، لا يتيه السائر فيه أبداً ويصل الى الهدف بالتأكيد.

لذا فان الله، يذكر الوحي السماوي، كسنّة أزلية، ولا يترك البشرية من دون وحي أبداً **﴿كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك﴾**، اما بعد الرسول الأكرم ﷺ، فينقطع الوحي التشريعي، لأنه تم بيان ما يستلزم سعادة البشر، وذلك في وحي خاتم الأنبياء ﷺ، الذي هو جامع لكل الأديان. وقد ذكر سر خاتمية دين الرسول الأكرم ﷺ، في هذه السورة، ثم يعدّ بعض أسماء الله الحسنى. الله العزيز الحكيم. وكلمة العزة والحكمة او العزة والعلم ذكرتا في ابتداء هذه السور السبع مما يدل على أن الوحي ناشىء من مبدأ العزة والحكمة والعلم ومسير الوحي، هو مسير العزة والحكمة، والسائرون في طريق الوحي. سيكونون أعزاء وحكيمين، لأن المؤمن يسير في طريق الوحي، والوحي نزل من مبدأ العزة والحكمة، والطريق الذي يقطعه الوحي، طريق عزيز وحكيم، والانسان الذي يتبع الوحي، يصل الى العزة والحكمة، **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**[2] ، وقد ذكر تعالى، بأنه يعطي المؤمنين الحكمة، وقد علّم الله، الحكمة للمؤمنين، بواسطة الرسول

---

(١) سورة الشورى، الآيات (١الى٣).

(٢) سورة المنافقون، الآية (٨).

الأكرم ﷺ، لأنه بعد ان بيّن حوالي عشرين فضيلة من الفضائل الانسانية، من التوحيد وسائر الملكات في سورة الاسراء، قال: **﴿ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة﴾**[1].

ثم ذكر ثلاثة أسماء أخرى، بعد هذين الاسمين. **﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾**[2] فالله مالك وملك، وبما ان مالك السموات والأرض، هو الله، فان ملك وحاكم السموات والأرض هو الله أيضاً، اذن يجب ان تصل الانسانية الى الكمال عن طريق الوحي، لأن الملك والمالكية تستلزم ان يحافظ على ملكه وملكه، ويهديه الى الكمال الوجودي **﴿وهو العلي العظيم﴾**[3]. الله عال، ويدعو الانسان الى العلو، الله عظيم ويهدي البشر الى العظمة. ان الطريق الذي يعلّم البشر درس العلو والعظمة، هو الوحي الالهي، لأن الوحي صادر عن الله العلي العظيم، والذي يصدر عن العلي العظيم يبين للسائرين فيه، طريق العلو والعظمة. ان الانسان السائر في طريق العلو والعظمة، يبلغ العلو والعظمة، نقرأ في المناجاة الشعبانية، حيث كان الأئمة عليهم السلام، يناجون الله: «إلهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل الى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك»[4]. ان الانسان اذا حصل على نور قوي، فانه يضع الستائر النورانية المتوسطة جانباً وينظر ما خلفها ويصل الى معدن العظمة. والانسان الذي يصبح هكذا، هو عظيم، وقد أيّد الله، عظمة ذلك الانسان، وقال: **﴿وانك لعلى خلق**

---

(١) سورة الاسراء، الآية (٣٩).

(٢) سورة الشورى، الآية (٤).

(٣) سورة الشورى، الآية (٤).

(٤) مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية.

عظيم﴾[١]. فرسول الله ﷺ يمتلك الأخلاق العظيمة وقد طلب منا جميعاً ان نسلك هذا الطريق لنصل لمعدن العظمة ونمتلك الأخلاق العظيمة بل لنصير عظماء ذلك ان الوحي صدر من العلي العظيم ليهدينا الى العلي العظيم **﴿وهو العلي العظيم﴾**.

ان حقيقة الوحي ناشئة من المقام العلي العظيم، لذا فهي مقرونة بعلو وعظمة خاصة، لا تستطيع السماوات والأرض، تحملها لأنه وان كانت السماء والأرض أشد من الانسان خلقاً **﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾**[٢]، ولكن الروح التي تستقبل الوحي الالهي غير موجودة في السماوات، او ان روح السماوات ليس لديها تلك القدرة والعظمة لتحمل الوحي، كما هي روح الانسان الكامل، رغم ان الأرواح السماوية تتحمل الدرجات النازلة من الوحي، الا ان جرم السماوات وأرواح الملائكة المدبرة للسماوات لا تستطيع تحمل حقيقة الوحي، التي تظهر بصورة قرآن، لذا قال: **﴿تكاد السموات يتفطرن من فوقهن﴾**[٣]، لأن السماء لو أرادت استقبال هذا الوحي النازل من الأعلى، فانها تندمر، لأن السماء ليس فيها ذلك التجرد التام لتتمكن من هضم الوحي المجرد التام.

تجلٍ واحد للجبل يؤدي أحياناً الى تدميره **﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موس صعقاً﴾**[٤]، اذا سطع تجلي الحق على جبل، يجعله دكاً، لأن الجبل وان كان ثقيلاً من حيث الجرم، لكنه لا يستطيع تحمل المعنى العقلي المجرد. **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً**

(١) سورة القلم، الآية (٤).
(٢) سورة النازعات، الآية (٢٧).
(٣) سورة الشورى، الآية (٥).
(٤) سورة الأعراف، الآية (١٤٣).

منصدعاً من خشية الله﴾[1] ، يذكر كنموذج ان حقيقة القرآن لو نزلت على جبل لتلاشى لأن الجبل وان كان بامكانه ان يحتضن المعدن في باطنه، ويستطيع تحمل البرد الشديد للجليد، في صدره، ويتمكن تحمل السيل الهادر في أحضانه، لكنه لا يستطيع تحمل الوحي، ومكان الوحي ليس في الجبال أبداً، لأن الوحي أثقل كثيراً من ان يتحمله جبل، **﴿انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾**[2] ، وبناء على هذا لا تتمكن السماوات ابداً، تحمل عبء الوحي. **﴿تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾**[3] . انهم يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، وليس لكل أهل الأرض، بشهادة الآية **﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾**[4] أي أنهم يطلبون المغفرة لخصوص المؤمنين وليس لكل أهل الأرض، لأن من بين الذين يعيشون في الأرض يوجد مؤمنون ويوجد كافرون أيضاً، ومعنى أنهم يطلبون المغفرة من الله هي ان الله قرر للناس شريعة وديناً يغفر لهم نتيجة العمل به، وذلك لكي تكون الآية منسجمة مع سياق الآيات التي تتحدث حول الوحي.

﴿ألا ان الله هو الغفور الرحيم﴾ . ان رحمة الله، التي هي الصبغة الالهية، يحصل عليها بعد نفض الغبار، بالشكل الذي يشمل ذات الانسان نفسه، فينغسل الانسان وترفع البقع عنه ثم يتصف بالصبغة الالهية. لذا ذكر المغفرة قبل الرحمة. المغفرة اولا ثم الرحمة، واذا أراد الانسان ان لا يعتمد على الله ولا يكون تحت ولاية الله، فانه لا يقدر على الوصول الى الهدف،

---

(١) سورة الحشر، الآية (٢١).
(٢) سورة المزمل، الآية (٥).
(٣) سورة الشورى، الآية (٥).
(٤) سورة غافر، الآية (٧).

بأي طريق، لأنه لا هو يستطيع الوصول الى الهدف، ولا هناك أحد آخر بامكانه قيادته الى الهدف، لأن نظام الوجود هو تحت ولاية الله. والانسان هو تحت ولاية الله، أيضاً، فالله هو الذي يجب ان يقود الانسان.

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾[1]. ان الذين اتخذوا غير الله رباً، لا يبلغون الهدف أبداً، لأنه ليس ما سوى الله الا مجموعة آلهة باطلة، ولذا عبّر عن تلك الالهة المجازية والباطلة بلفظ الجمع، لأن ليس لغير الله ضابط معين، وولايتها متفرقة فكل منهم يعتمد على اسم وعلاقة. ﴿الله حفيظ عليهم﴾[2].

انك لست وكيلهم، أنت رسول تتلقى الوحي وتبلغه اليهم، اما الرقيب والمحافظ لهم، فهو الله، انهم غير خارجين عن دائرة حفظ الله، والله مطلع على أعمالهم، وسوف يستدعيهم الى محكمة العدل والانتقام، وينالون عقابهم، انك رسول فقط ولست بوكيل. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾[3]. وهذا الوحي الذي أرسله الله، هو من أجل أن يطلع الناس على القيامة ولا يتصورون أنفسهم، خالدين وأبديين، ولكي يعلموا ان جميع أعمالهم حية، والارتباط الوحيد الموجود في الآخرة هو الذي يكون بينهم وبين اعمالهم، أصل أعمالهم حية، وليس لديهم ارتباط بغيرها. وقد تلقى الرسول الأكرم ﷺ، هذه الأمور عن طريق الوحي، وأبلغها الى الناس، وهي ان القيامة هي اليوم الذي يحضر فيه جميع الناس، وان كل شخص مسؤول تجاه اعماله. وأهمية الوحي هي لكونه يخوّف الناس من يوم القيامة.

---

(١) سورة الشورى، الآية (٦).

(٢) سورة الشورى، الآية (٦).

(٣) سورة الشورى، الآية (٦).

﴿**وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر ام القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع**﴾[1] ، أي رغم ان القرآن شامل للعالم، الا ان الرسول الأكرم ﷺ ، كان مأموراً بالدرجة الأولى، بابلاغ الوحي الى أهل الحجاز، ثم اتسعت دائرة رسالته ودعوته وأصبحت عالمية. وكانت عالمية الرسالة مطروحة في أوائل الرسالة أيضاً، فقد طرحت مسألة شمولية القرآن للعالم في تلك السور التي هي من العتايق، والتي نزلت في أوائل بعثة الرسول الأكرم ﷺ ، الا انه قال في هذا الجزء بأن هذا الكتاب نزل بصورة عربية حتى يطلع أهل الحجاز على هذا الوحي ويخافوا من القيامة، لكي يخوّف أهل مكة واطرافها من يوم القيامة الذي لا ريب في وقوعه. ﴿**وتنذر يوم الجمع**﴾ الذي ﴿**لا ريب فيه**﴾[2] ومعنى ﴿**لا ريب فيه**﴾ قد تقدم في مباحث سابقة، فالقيامة ليست متعلقاً للشك كما أنها ليست ظرفاً للشك فلا يوجد أي شك بشأن القيامة ﴿**فريق في الجنة وفريق في السعير**﴾[3] .

﴿**ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة**﴾[4] ، ولكن الأمر ليس كذلك وانما الوحي لأجل انضاج القابليات، فاذا لم ينزل المطر، تكون الأرض يابسة وبائرة، وحين ينزل المطر، يخضر ما هو في باطن التراب. بعضها يثمر ثمراً لذيذاً وحلواً، وبعضها ثمراً مراً، وبعضها ثمراً بلا طعم، وبعضها لا يثمر أصلاً والوحي كالمطر ينزل على أرضية حياة الانسان، فينمو ما هو موجود في باطن كل انسان، ويظهر. ﴿**والله أنبتكم من الأرض نباتاً**﴾[5] ، بعضهم

---

(١) سورة الشورى، الآية (٧).
(٢) سورة الشورى، الآية (٧).
(٣) سورة الشورى، الآية (٧).
(٤) سورة الشورى، الآية (٨).
(٥) سورة نوح، الآية (١٧).

يصبح شجرة طيبة ﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾، وبعض بالعكس كشجرة غير ظاهرة على وجه الأرض لم تنبت من عمق الأرض، لذا ليس لهم قرار، وتكون ثمرتهم مرة. ﴿ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾[1].

ان للقرآن بيانان، أحدهما هو ان الانسانية أمة واحدة. فالبشرية ليست أكثر من أمة واحدة، وليس لها أكثر من امام، وهي دعوة الاسلام الانسانية، الشاملة للعالم، والآخر هو ان البشر أمتان وليست أمة واحدة، أمة في جهنم وأمة في الجنة، وحصيلة هذين البيانين الواردين في القرآن الكريم، واللذين طرحا كلاهما في سورة الشورى، هي ان الطريق الذي يعرضه القرآن، هو صيرورة الناس أمة واحدة، ودعوة الى الفطرة والتوحيد، ودعوة الى العلم والعدل والتوحيد في العبادة، وهي تشمل كل البشر وتجعل الانسانية في مسيرها امة واحدة، ان يؤمنوا بإله واحد ودين واحد، ويعملون به، الا ان الناس، سيكونون في مقابل أطروحة الأمة الواحدة التي يؤكد عليها القرآن ويدعو البشر اليها، فئتين، فئة تؤمن بذلك، وفئة تنكره، وفي النتيجة لا يكونون امة واحدة بل يصبحون فئتين منقسمتين، ولكل فئة امام خاص بها ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾[2]، من هنا فان الناس ليسوا امة واحدة ليكونوا جميعاً من أهل الجنة أو أهل النار، لكنهم متساوون من حيث الدعوة والهداية والابلاغ.

ان الله دعاهم الى سلوك الطريق المستقيم. ﴿ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة﴾، اي ان الناس من حيث التكوين، أمتان، لكنهم من حيث التشريع

---

(١) سورة الشورى، الآية (٨).

(٢) سورة الاسراء، الآية (٧١).

امة واحدة. **﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾**، وبما ان الناس فئتان، فان الله يجعل الفئة التي يريد، داخل حدود رحمته، والفئة التي لا يريد لا يدخلها جنة الرحمة، ولما كان القرآن نور، والنور ليس فيه أي ابهام، فقد بيّن مشيئة وارادة الله، هكذا، وهذا الطلب ليس على أساس مشيئة عبثية وبلا سبب، لأنه بقرينة المقابلة حيث يقول: **﴿والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾**، يتضح ان الذي يجعله الله في رحمته، هو الانسان العادل، فالله سبحانه انما يجعل الأشخاص اللائقين في منطقة رحمته، وعلة انه لا يشمل البعض برحمته، هي انهم قبلوا الظلم **﴿والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾**، اذن أولئك الذين وليهم الله انما يدخلهم الله في رحمته لأنهم عادلون ولائقون، لذا قال: **﴿فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾**[1] ولكنه قال **﴿وما يضل به الا الفاسقين﴾**[2]، وهذا المضمون ورد في عدة مواضع من القرآن، وهو ان الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، لكن مشيئة الله طبقاً للأصل الذي ذكر في سورة البقرة، ليست عبثاً فالشخص الذي خطى نحو الهداية وتحرك عدة خطوات، أهل لتلقي الهداية الثانية والجديدة من قبل الله. **﴿وان تطيعوه تهتدوا﴾**[3] **﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾**[4]، وآيات أخرى، تبين جيداً الفئة التي تتعرض الى الاضلال العقابي لله، والفئة التي تتمتع بالهداية الثوابية لله سبحانه.

جاء في سورة البقرة **﴿وما يضل به الا الفاسقين﴾**، ان الله لديه اضلال عقابي، وليس لديه اضلال ابتدائي، فالله لا يضل أحداً ابتداءً أبداً. اما اذا

---

(١) سورة فاطر، الآية (٨).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٦).

(٣) سورة النور، الآية (٥٤).

(٤) سورة التغابن، الآية (١١).

عصى الظالم بشكل متعمد، سلوك الطريق المستقيم، وأغلق طريق السعادة، عمداً على نفسه، عند ذلك لا يكون مشمولاً برعاية الله، فيتركه لطف الله، والترك يعني السقوط، لأنه ليس هناك حافظ غير الله، ويتبين من قوله: ﴿**ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير**﴾، ان الذين يدخلون رحمة الله، هم الأفراد العادلون واللائقون فقط. فالشخص الظالم، لا هو تحت ولاية الله، ولا هناك أحد يستطيع مساعدته، فلا هو يأخذ مساعدة من الولاية، مباشرة، ولا تصله مساعدة من نصير أي لا يتولى مسؤوليته أحد، ولا هو قادر على ادارة مقدار من شؤونه، وتتميم ذلك بالاستعانة بأحد، لأن كل ما في عالم الوجود، جنود لله، فلا يقوم اي موجود بعمل الا بأمر الله، فاذا تخلى الله عن الظالم، لا يتولاه أحد ولا يعينه.

﴿**ام اتخذوا من دونه أولياء**﴾[1]. ان الذين يتولون غير الله، يعتمدون على أنفسهم ويعتمدون على وسائلهم وخططهم او على قوي آخر، ﴿**فالله هو الولي**﴾[2]، أي فليعلموا ان الولاية منحصرة بالله، ولا يوجد في العالم وليّان، اما قوله في آية الكرسي، او أجزاء أخرى من القرآن: ﴿**والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت**﴾[3]، فليس بمعنى وجود وليّين في العالم، هما الطاغوت والله، فالطاغوت نفسه، هو من المأمورين القهريين لله، والشيطان هو أيضاً تحت ولاية الله. الشيطان مثل كلب مدرّب، مأمور من المأمورين الالهيين. فاذا أصبح شخص ظالماً وعصى عن الطريق المستقيم وقام بالظلم، فان الله يسلط عليه طاغوتاً او شيطانا او عوامل وعلل قهرية أخرى، بما يشبه كلب مدرّب. فيجعل الله الكافر تحت ولاية الطاغوت كانتقام ﴿**انا**

(١) سورة الشورى، الآية (٩).

(٢) سورة الشورى، الآية (٩).

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٥٧).

من **المجرمين منتقمون﴾**[1] . اذا أراد الله الانتقام من الكافر، يسلط عليه في الدنيا، طاغياً، وقد ذكر الامام الباقر عليه السلام في ذيل الآية الكريمة **﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾**[2] ، أن دأب الله هو انه إذا اراد الانتقام من ظالم، يسلط عليه ظالما آخراً، فيجعل ظالماً ولياً على ظالم آخر. يجعل قوياً ولياً على قوي ظالم آخر «الولي والمولى عليه كلاهما في النار». وبناء على هذا ليس هناك وليين بالذات، في نظام الوجود. الطاغوت هم من جنود الله، المسلطين على الأفراد الظالمين **﴿ام اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى﴾**، فاذا كانت الحياة واحياء الموتى، هو بيد الله سبحانه، واذا كانت القدرة اللامتناهية لدى الله، فالولاية أيضاً هي لله فقط. وليس للانسان طريق غير القبول بكتاب ولاية الله، واذا كانت لديه حاجة في المسائل التكوينية، فان مرجع رفع كل الحوائج، هو الله. والله حلّال المشكلات في المسائل التدوينية والقوانين والأحكام.

﴿واما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله﴾[3] ، فاذا كان المختلف فيه تشريعاً، فالله يجب ان ينظمه واذا كان تكوينا، فالله هو المدبر أيضاً لأن الولاية الكلية، هي لله. **﴿ذلكم الله ربي﴾**[4] ان الله الذي خلق نظام العالم، الله الذي بيده الحياة والممات، الله الذي لا حدّ لقدرته، هو ربي ومالكي، وانا أعتمد عليه في التكوين وفي التشريع، كذلك، **﴿عليه توكلت﴾**[5] في التكوين، و«واليه أنيب في التشريع»، ان كانت لدي حاجة، اعتمد على الله،

---

(١) سورة السجدة، الآية (٢٢).
(٢) سورة الانعام، الآية (١٢٩).
(٣) سورة الشورى، الآية (١٠).
(٤) سورة الشورى، الآية (١٠).
(٥) سورة الشورى، الآية (١٠).

واذا كانت لدي مشكلة، فاني ادعوه واذا اردت طلب العفو فاني أطلبه من الله.

لأنه ﴿فاطر السموات والأرض﴾(١)، انه ليس خالق فقط، بل هو فاطر، لم يخلق من الذرات والموجودات السابقة مخلوقات فحسب، بل هو مبدع أصل المخلوقات السابقة. ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾(٢). ان النظام الموجود في الكون قائم على أساس العلية، لذا فكل موجود سابق، حامل لمخلوقات لاحقة، ومفتاح هذا النظام ورمز عليّة وسببيّة هذا النظام هي بيد الله سبحانه. انه يعلم ماذا تقع من حادثة في المستقبل، والشيء الذي يظهر من المخزن الغيبي في النظام الموجود، مفتاحه بيد الله.

﴿له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾(٣). مع ان هذا القبض والبسط، امتحان، الا انه يعلم ما هي مصلحة الأفراد. انه يقسم الرزق بلطفه. قال تعالى في سورة الشورى: ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾(٤)، ويتبين من قوله: ﴿الله لطيف بعباده﴾ ثم قوله: ﴿يرزق من يشاء﴾، طبقاً لما ذكره الأستاذ العلامة الطباطبائي - رضوان الله عليه - ان الله يوزع الرزق بشكل لطيف، فتقسّم مسألة الرزق بصورة ظريفة جداً، سواء الرزق الظاهري والرزق الباطني، كذلك فهما يوزعان بدقة وظرافة. ان الله اللطيف الرازق، يوزع الرزق على أساس اللطف. كثير من الأشخاص يتصورون انهم يكونون سعداء لو كان وضعهم

(١) سورة الشورى، الآية (١١).
(٢) سورة الشورى، الآية، (١١).
(٣) سورة الشورى، الآية (١٢).
(٤) سورة الشورى، الآية (١٩).

المالي جيداً، فامتحنهم الله، بتوسيع رزقهم، فسقطوا، قال تعالى في آية أخرى: **﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾**[1] ، ان قليل من الأفراد لا تستقطبهم الدنيا ولا تخدعهم بكل ابعادها، ويفهمون ان الدنيا هي كزهرة لا تصبح ثمرة أبداً، وزخارف الدنيا تسقط قبل ان تنتقل من مرحلة الزهرة الى مرحلة الثمر. وقد وصف القرآن، مظاهر الدنيا الجميلة، كزهرة، **﴿ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾**[2] فالدنيا زهرة لا تتحول الى ثمرة ابدا وقبل ان تتحول الى ثمرة تكون قد انتقلت الى شخص آخر.

الدنيا باردة ولا تدفأ ابداً **﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾**.

وهنا قال أيضاً: **﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شيء عليم﴾**، انه يعلم ماذا يعطي لكل شخص، انه يعلم محل البسط ومحل القبض، لأنه **﴿بكل شيء عليم﴾**، لذا يوزع هذا الرزق على نحو اللطف، وأفضل رزق، هو الرزق الكريم، ومعارف القرآن كريمة.

نرجو التوفيق بالتعرف على معارف القرآن الكريم، التي هي استمرار لنهج الأنبياء، وهي أفضل الأرزاق، وان تصبح قلوب الجميع وعاء للمعارف الالهية وان لا يفصل بيننا وبين القرآن والعترة في الدنيا والآخرة.

غفر الله لنا ولكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة الشورى، الآية (٢٧).

(٢) سورة طه، الآية (١٣١).

الدرس الخامس عشر

الوحي وسيلة لظهور باطن الناس

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

الجزء المهم من السور التي تبدأ بـ﴿حم﴾، هو بشأن أهمية الوحي وخطوطه العامة، وقد طرح ذلك في البحوث السابقة، اي ما هو المبدأ الذي نزل منه الوحي؟ وما هي الشروط التي يجب توفرها في الذي يتلقى الوحي، اي الانسان الكامل؟ وكيف هو مسير الوحي، الذي يصل سالكوه، الى الهدف المعين والخاص، بالتأكيد؟ وقد وصلنا في تتمة البحث السابق الى ان القرآن يقول في بعض الحالات بأن الله لم يشأ ان يكون الناس امة واحدة، وفي آية أخرى، يذكر بأن الله جعل الناس أمة واحدة، فما هو المقصود من ان الله لم يشأ ان يكون الناس امة واحدة؟ وما هو المقصود من أنه جعلهم امة واحدة واعتبرهم أمة واحدة؟.

في سورة الشورى، وهي احدى الحواميم السبع، بيّن ان الوحي لو لم

ينزل من قبل الله سبحانه ولو لم ينظّم دين، لكان جميع الناس متساوين، ولما شخّص السعيد والشقي، **﴿ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة﴾**[1] ، ولكن الوحي هو بمثابة نسيم يهب، فتظهر رائحة كل شخص بهبوب ذلك النسيم، كالمطر الذي ينزل فتنمو البذور، سواء كان ثمرها مراً ام حلواً. ولذا لم يرد الله ان يكون الناس امة واحدة، وقد أنزل الوحي، وهو ماء الحياة، حتى يظهر ما في باطن الناس. اذن هو انما لم يجعل الناس امة واحدة، لهذه الناحية. وقد قال في سورة الشورى: **﴿ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾**[2] . ان الظالم ليس تحت ولاية أحد، ورحمة الله الممتازة [الخاصة] انما تشمل الشخص العادل، كما ذكر ان الله **﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾**، اذن يتضح بقرينة المقابلة، ان الذي يشمله الله برحمته هو الانسان العادل واللائق. بناء على هذا لم يشأ الله ان لا ينزل أصل الوحي، ويكون الناس أمواتاً مثل البذور في داخل التراب، لا تنمو ولا يمتاز الصالح من الفاسد، بل ان الله شاء ان يميزهم عن بعضهم الآخر **﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾**[3] ، وكما ان الثمر الخبيث يمتاز عن الطيب، بالمطر كذلك يمتاز الانسان السعيد عن الشقي، بالوحي.

جاء في القرآن بأن الله قد جعل الناس امة واحدة وان دعوة الأنبياء هي من أجل ان يكون الناس امة واحدة، وما قاله في سورة المؤمنون **﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم﴾**[4] ، يشير

(١) سورة الشورى، الآية (٨).
(٢) سورة الشورى، الآية (٨).
(٣) سورة الأنفال، الآية (٣٧).
(٤) سورة المؤمنون، الآية (٥١).

الى هذا الجزء، وهو ان أصل النبوة من أجل ان تقطع البشرية طريقاً واحداً وتصل الى هدف واحد. وقد جاء الأنبياء بدعوة واحدة، لأن المتلقين لتلك الدعوة، وهم الناس لهم حقيقة واحدة وفطرة واحدة. ان الذي يتلقى الوحي، ومركز التعليم والتربية، هي انسانية الناس، وانسانية الناس حقيقة واحدة، ومرسل الوحي وهو الله، هو رب الجميع، ورسول الوحي الذي يرافق النبوة والرسالة، هو نور واحد، يأتي بدعوة واحدة لانسانية جميع الناس المتساوية، ومن هنا دعا الله البشر الى وحدة الأمة، وهدف دعوة الانسجام والشمولية للاسلام هذه هو ان يتحد الناس وليس ثمة عامل في وحدة الانسانية، الا الدين السماوي، الذي يرتبط بالله من جهة، ويرتكز على الفطرة من جهة أخرى. وفطرة الكل هي واحدة، ورب الجميع، واحد أيضاً، وهذا المسير الذي هو مسير الوحي، واحد كذلك، لذا خاطب الله سبحانه الأنبياء الذين هم العاملون للوحدة: **﴿وان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾**[1] أي أن جميع الناس امة واحدة، ولهم امام واحد. وذلك الطريق والمسار المترامي يسمى بالامام، واذا وصل السائر الى ذلك الطريق، فانه يصل الى الهدف يقيناً.

والقرآن وسائر الكتب السماوية انما تدعو البشرية الى الوحدة العامة للبشر، لذا قال تعالى في سورة الشورى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب﴾**[2] ، والمراد انه ما انزله الله من القوانين بواسطة أنبيائه

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (٥٢).

(٢) سورة الشورى، الآية (١٣).

للأمم السالفة قد أنزلناه لكم بعينها أيضاً وهو هذا الدين الصحيح الالهي الذي يسمى بالاسلام والذي قد نزل بواسطة خاتم الأنبياء ﷺ والذي هو أكمل الأديان وأكثرها جامعية لأن كل ما قلناه للأنبياء المتقدمين قد ذكرناه لخاتم الأنبياء ﷺ .

ان هذا الخطاب موجه الى المسلمين اي ان كل ما ارسلناه لهؤلاء الأنبياء الخمسة اولي العزم، جعلناه لكم بصورة دين، أي ان القرآن ودينكم، جامع لكل ما نزل على هؤلاء الأنبياء، وفي الحقيقة ان القرآن الذي هو آخر كتاب سماوي، جامع ومكمل لكل تلك الكتب السابقة، وكل ما نزل على الأنبياء السابقين موجود في الاسلام، وديننا في الحقيقة هو زبدة تلك الأديان، واذا كان مظهر تربية الناس، انسانية الناس، وليس العرق والخصائص الفردية وهذا أصل، واذا كانت انسانية الناس في كل العالم، حقيقة وفطرة واحدة، ولا دور للاعراق والخصائص الاقليمية والتاريخية في انسانية الناس وهذا أصل ثان واذا كان الله الواحد هو رب الجميع، وهذا أصل ثالث واذا كانت أصول التربية والتعليم، موضوع واحد عند الله، وهي حق ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾[1] وهذا أصل رابع بناء على ذلك، من غير الممكن ان تتعارض الأديان التي جاء بها الأنبياء للبشر . بل كلها دين واحد، لا فرق بينها في الأصول العامة، وهناك فرق موسمي بينها في الفروع البسيطة، لكن بعضها كامل، وبعضها اكمل وتسير كلها في طريق واحد وتبين نفس الطريق.

ان أصول الدين لا تقبل النسخ، بل الجزئيات التي كانت في الأديان السابقة، تنسخ بواسطة الدين اللاحق. والنسخ لا يعني اعلان بطلان القانون

(١) سورة آل عمران، الآية (١٩).

وفساد الحكم السابق، بل معنى النسخ هو ان عمر ذلك الأمر قد انتهى. فقد كان الأمر الالهي في ذلك الزمان بذلك النحو وهذا لا يعني ان تلك التعاليم كانت في غير محلها، والآن قد التفتنا لذلك ولذا نسخناها، ذلك لأن مبدأ صدور ذلك الأمر، هو الله، والله لا يقول الا الحق **﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾**[1].

اذن ما قاله سابقاً كان حقاً، وهدى الى الطريق الصحيح، ولكن من حيث المصلحة، كانت وظيفة الناس سابقاً بهذا النحو وعمر تلك الوظيفة قد انتهى نتيجة تغيير تلك المصلحة.

ان روح النسخ في الأحكام الجزئية للأديان الالهية، يعود الى التخصيص الزماني، اي يتضح ان ظاهر ذلك الدليل الشرعي الذي كان له استمرار زمني، لم يكن مرادا على اطلاقه او عمومه، بل كان يجب ان يحصل في تلك الفترة الخاصة فحسب ان معنى النسخ ليس هو ان التعليم السابق كان باطلاً، ثم حصل ادراك لبطلانه ومن ثم تم نسخه، لأن الله الذي يقول الحق، لا يأمر بباطل ابداً. **﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾**[2]، وبناء على هذا، فالنسخ لا يعني بطلان الحكم السابق. العقل يقول ان دين البشرية ليس اكثر من واحد، والنقل الصريح يدل على ذلك أيضاً **﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾** ان ما أرسله الله لهدايتنا هو ما بيّنه للناس السابقين بواسطة الأنبياء اولي العزم. لذا قال في سورة المؤمنون: **﴿وان هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاتقون﴾**. اذن اتضح ماذا يعني قول الله تعالى في بعض المواضع من القرآن، انه لم يشأ ان يكون البشر امة واحدة، وقوله في موضع آخر انه شاء

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤).

(٢) سورة النساء، الآية (٨٧).

ان يكون الناس امة واحدة؟ ثم ذكر انه بالرغم من انه دعا البشر الى وحدة انسانية عالمية، وبالرغم من ان لكل نبي دعوة هي بمستوى نوع الانسانية، الا انه لم يعمل برسالتهم العالمية، وقد تم اكمال دعوتهم العامة والدائمية، بواسطة خاتم الأنبياء ﷺ التي قد سطعت وعمت في أفق الانسانية، ولكن على الدوام كانت هناك فئة تقف بوجه هذه الدعوة، وتتعاطى معها بالنفاق، وقد انفصلت عن الصفوف المنظمة للمسلمين. وهذا العمل جرى بتخطيط ودس وقد تبين الحق لهذه الفئة، ولكنها قامت بالتفرقة بعد العلم والمعرفة، وقد ذكر في سورة الشورى هذه انه دعا جميع الناس الى الوحدة العالمية، اي ان ما أرسله بواسطة نوح عليه السلام، كان دعوة الى التوحيد، والكون امة واحدة، وما أرسله الى ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، كان الدعوة الى التوحيد وايجاد الأمة الواحدة. وهذه المسألة تصدق على خاتم الأنبياء ﷺ كذلك جميعهم قالوا هذا الكلام: ﴿**ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾. اذا كان الدين فانكم جميعا ستكونون متحدين ومتساوين اما اذا كانت الخصائص العرقية، الاقليمية، الزمانية والوطنية هي المطروحة، فان كل منكم سيذهب وراء رأيه ويسعى لهدف خاص مما يوقعكم في الشقاق والتمزق والدين الالهي هو العامل الوحيد الذي يستطيع توحيد الانسانية.

فطرة الكل واحدة ورب الكل واحد، والعامل الذي ينضج هذه الفطرة، اي الوحي، واحد للكل هذا هو طريق الكون امة واحدة عن طريق الوحي والدين وقد ذكر الله سبحانه انه قال لجميع المجتمعات البشرية: ﴿**ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾، وقد كبر على المشركين الدعوة الى التوحيد ودعوة الاتحاد والأمر بالأمة الواحدة، فالمشرك الفاسد غير الموحّد، الذي لا يخضع الا الى الهوى والأوثان، يريد الاختلاف والانفصال.

﴿**كبر على المشركين ما تدعوهم اليه**﴾. ان المشرك المطيع للهوى والطاغوت، لا يحب الله والتوحيد الالهي، ابدا، ولأن ظهره قد انحنى من عبء الفساد فهو لا يستطيع ان يحمل عبء امانة التوحيد.

ان ما قيل من ان الحق مر، ليس بالنسبة للانسان السليم والعادل، فسماع كلام الحق واداؤه ليس مراً على الانسان المتقي، وانما هو مر على الانسان الذي تكون ذائقة روحه مريضة، ان الذين ﴿**في قلوبهم مرض**﴾، يشعرون بمرارة الكلام الحق، فالشخص المريض والمصاب بحمى يشعر بمرارة الطعام اللذيذ الذي يتناوله وذائقة الانسان المريض تشعر بالمرارة حتى عند تناول قطعة السكر، فالعيب هو في ذائقة المريض لا في طعم السكر. الحق ليس مراً، بل الانسان الفاسد مريض فيشعر بالمرارة عند سماع الحق. ان عبء التوحيد، غير ثقيل، الا ان الشخص المشرك والمذنب قد انحنى تحت وطأة الذنب ولذا لا يستطيع حمل الأمانة السماوية ﴿**الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب**﴾، قال تعالى: ﴿**يدخل من يشاء في رحمته**﴾، وفي مقابل ذلك قال: ﴿**والظالمون ما لهم من ولي**﴾، مما يدل على ان الشخص الذي يريد الله ادخاله في رحمته الخاصة، هو في مقابل الظالم. فالله لا يدخل كل شخص في رحمته جزافاً، وهنا عندما يقول ﴿**يجتبي اليه من يشاء**﴾ يتبين انه في مقابل المشركين. فالله يختار الموحدين ﴿**ويهدي اليه من ينيب**﴾، الله يمتع الشخص الذي أناب وأعلن رجوعه الى الله وقال: ﴿**عليه توكلت واليه أنيب**﴾[1]، بهدايته الخاصة.

وهذه الأمة الواحدة، من منظار القرآن، دليل على عالمية الرسالة

---

(١) سورة الشورى، الآية (١٠).

الاسلامية، حيث يدعو الله، الناس الى طريق واحد، والفئة التي واجهت عن عمد، دعوة التوحيد أحرقت نفسها، وهيأت عامل احتراق الآخرين فهي قد انحرفت كما مهّدت لانحراف وشك الأجيال القادمة. **﴿وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم﴾**[1] ان اختلاف أهل الرأي قبل العلم بمسألة ما اختلاف مقدس، اما اختلافهم بعد العلم، فهو اختلاف مذموم، ولو ان جميع الناس كانوا يفكرون بصورة واحدة لما نما العلم ابداً، فاختلاف الآراء هو من أجل ان ينمو العلم ويبلغ الانسان درجات علمية أفضل. نظير كفتي الميزان، وحسب تعبير الأستاذ العلامة الطباطبائي.

ان اختلاف أصحاب النظر قبل اتضاح المسألة، اختلاف مقدس، مثل كفتي الميزان المختلفتين وذلك حتى يقام العدل والقسط، اي ما لم يكن الوزن معادلاً للموزون، سواء كان الموزون أقل او كان الوزن اكثر، فان كفتي الميزان لا تكونان متعادلتين، ولا يتحد هذا الطرف الخفيف مع ذلك الطرف الثقيل ابداً. ان الشخص الذي يحمل الميزان يفهم من اختلاف الكفتين ان الوزن والموزون غير متعادلين، ومن أجل ان يتوازنا، ينبغي اما زيادة الموزون او تقليل الوزن حتى يتساويا ويحصل القسط والعدل، فاذا حصل هذا تقام العدالة، وما لم تقام العدالة يظل هذا الاختلاف المقدس. وما لم يتبين أصل الموضوع، لاثنين من العلماء من أصحاب النظر، فانهما يظلان مختلفين في النظر، وهذا اختلاف مقدس، اما بعد تبين أصل المسألة، فان كل انواع الاختلاف تصبح مذمومة، والقرآن يعتبر الاختلاف بعد العلم، مذموماً ويقول: **﴿وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً**

(١) سورة الشورى، الآية (١٤).

بينهم﴾[1] .

انهم رغم فهمهم ان كلام الله هو دعوة الى التوحيد، عملوا على تهيئة ارضية الاختلاف والتشتت، بغياً وظلماً **﴿ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضي بينهم﴾**[2] . هؤلاء الذين يتشبثون بالاختلاف، يحرقون انفسهم، ويوفرون وسيلة احتراق الآخرين، نظير احتراق الفحم الذي يحترق هو، ويشعل الحطب، لذا قال القرآن: **﴿وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾**[3] ، الطبقة الأولى التي كانت عاملاً في الاختلاف، فهمت الحق لكنها سببت ايجاد الاختلاف ظلماً، والجيل اللاحق ورث مجموعة كلام محرف وتحيّر في تشخيص الحق من الباطل، لذا استولى عليهم الشك، انهم **﴿وقود النار﴾**، والوقود يحترق ويحرق الغير، وهناك فئة حطب **﴿واما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾**[4] اولئك الذين هم منشأ هذه الأمور وقود النار، وقد بيّن القرآن وقود جهنم أيضاً، فقال: **﴿واولئك هم وقود النار * كدأب آل فرعون﴾**[5] .

ان الفئة التي قامت بالاختلاف بعد ان فهمت اهمية التوحيد ومنفعة الاتحاد وعالمية الاسلام، هي وقود النار. وقد ذكر في سورة المؤمنون أنه تعالى دعا الناس الى الأمة الواحدة فكل العالم وبني الانسان موظفون بالتفكير بنمط واحد والخضوع للحق، والاعتقاد بالقيامة، والرضوخ لحكومة واحدة، اي الحكومة الاسلامية، لكن الأجانب فرّقوا هذه الحقيقة.

---

(١) سورة الشورى، الآية (١٤).
(٢) سورة الشورى، الآية (١٤).
(٣) سورة الشورى، الآية (١٤).
(٤) سورة الجن، الآية (١٥).
(٥) سورة آل عمران، الآيتين (١٠و١١).

وأسسوا أحزاباً ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾[١]، أصبحوا مجموعات مجموعات وكل مجموعة فرحة بحزبها ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾[٢].

﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾[٣]، اكتفوا اما بعلومهم المادية، او اذا كانت لديهم علوم السابقين المحرفة، فرحوا بها. يقول القرآن: ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾[٤].

في سورة المؤمنون يشير الى ان مظاهر عالم الطبيعة ليست عامل نشاط ونجاح، وفي سورة الشورى، قال الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿فلذلك فادع واستقم﴾[٥] ﴿ولا تتبع أهواءَهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾[٦]، آمنت بجميع الكتب التي ارسلها الله، لأنها كلها لها مضمون مشترك، واذا كانت ثمة اختلافات فهي في الشرائع وجزئيات الأحكام، وهي حق في محلها، ومعنى النسخ هو انتهاء زمان الحكم، وليس اعلان بطلان اصل الحكم. ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾[٧]، انني جئت حتى أتعامل مع الانسانية بشكل عادل، والاختلافات العرقية والاقليمية والاقتصادية وسائر الاختلافات لا تؤدي الى التميز، انني موحد من حيث الاعتقاد، وعادل من حيث العمل، مؤمن في الحكمة النظرية، وعادل في الحكمة العملية. ﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم﴾.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (٥٣).
(٢) سورة المؤمنون، الآية (٥٣).
(٣) سورة غافر، الآية (٨٣).
(٤) سورة المؤمنون، الآية (٥٤).
(٥) سورة الشورى، الآية (١٥)
(٦) سورة الشورى، الآية (١٥)
(٧) سورة الشورى، الآية (١٥)

والدين هو الذي يجعل الناس امة واحدة، الدين هو الذي يحكم بين البشرية بصورة واحدة، ويعتبرها متساوية امام القانون الالهي. والوحي هو العامل الوحيد في تشكيل الأمة العالمية الواحدة. ثم بيّن دليل الوحدة وهو ﴿الله ربنا وربكم﴾ (١).

لماذا البشر امة واحدة ولماذا عرض الأنبياء طريقاً واحداً؟ لماذا الاسلام والصراط المستقيم واحد؟ لماذا السائرون في طريق الوحي، متحدون؟ لأن الله سبحانه هو ربنا وربكم ﴿الله ربنا وربكم﴾. اذن المبدأ الفاعلي لتربية جميع الناس واحد. ومعيار القيمة هو العمل الصالح، سواء عندنا ام عندكم، وكل انسان مسؤول في مقابل اعماله، سواء نحن أو أنتم ﴿لنا اعمالنا ولكم اعمالكم﴾ (٢).

هنا ثمة أمور، يؤثر الالتفات اليها في اتضاح الأمة الواحدة. أولها ان عمل كل شخص حي ولا يزول، الثاني بما ان العمل حي وليس في النظام العلي والمعلولي في العالم موجود معطل، فهذا العمل يؤثر في شيء ويتأثر بشيء آخر، ويرتبط بمحل. الثالث، هو ان العمل لا يرتبط بأي مكان غير العامل، فكل انسان مسؤول عن عمله، والعمل لا يترك العامل، فهناك ارتباط بين العامل والعمل لا تقطعه اية حادثة، وليس هناك اي سبب أيضاً لامتياز انسان عن آخر. فاذا كان رب الجميع واحداً، واذا كان الطريق واحداً للجميع واذا كان كل انسان مسؤولاً مقابل اعماله، إذن لا يوجد أي سبب للامتياز والتفاخر، وليس لأي انسان حجة على آخر، ويجب ان لا تكون هناك خصومة ﴿الله يجمع بيننا واليه

(١) سورة الشورى، الآية (١٥)
(٢) سورة الشورى، الآية (١٥)

المصير﴾[1] ، الله يجمع الجميع وصيرورة الجميع اليه ليس فقط الذهاب والسير اليه، وانما الصيرورة هي اليه كذلك، ولو أردنا نيل ذلك الكمال، فان صيرورتنا هي الى الكمال اللامحدود وهو الحق. وهذا لا يعني ان كل موجود يصل في قوس الصعود، الى أعلى درجة من الرجوع، بل ان رجوع الجميع الى الله سبحانه، في قوس الصعود، لكن درجات رجوعهم ليست واحـدة، لأن آخـر درجـة رجـوع، هـي للنبـي ﷺ ﴿وان الـى ربـك المنتهى﴾[2] ، ثم يرجع الآخرون الى الله سبحانه، كل منهم بمقدار سعته الوجودية، مثلما ان الجميع في قوس النزول، صدروا عن الله سبحانه، الا ان درجاتهم متنوعة، وأول صادر للوجود العقلي هو خاتم الأنبياء ﷺ «اول ما خلق الله نوري»[3] ، وصدر الآخرين في المراحل اللاحقة، فكما ان الكل صدر عن الله، لكن درجات الصدور تختلف، كذلك يعود الجميع الى الله سبحانه، في قوس الصعود والرجوع والمعاد، بيد ان درجات الرجوع تختلف.

ثـم قـال: ﴿والـذين يحاجـون في الله من بعـد ما استجيب لـه حجتهـم داحضة عند ربهم﴾[4] .

ما هي الحجة التي لديهم في مقابل النور الالهي؟ اذا كانت الانسانية تريد الحق، واذا كان الحق لا يقوله الا الله، والله سبحانه لا يقول الا الحق ﴿والله يقـول الحق وهـو يهـدي السبيـل﴾ فهو يستلزم الخضوع في محضر الوحي وعدم الوقوف بوجهه، ولما كان الوحي قد جاء من اجل اقامة العدل

(١) سورة الشورى، الآية (١٥)
(٢) سورة النجم، الآية (٤٢).
(٣) بحار الأنوار، ج٢٥ ص ٢٢.
(٤) سورة الشورى، الآية (١٦).

والقسط، فما هي حجة الأجنبي في مقابله؟ ﴿حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾، انهم يستحقون الغضب الالهي. لقد أراد الله سبحانه ان يكونوا في مسير الحق، واتضحت لهم الحقيقة، الا ان تحمل الوحدة صعب عليهم، انهم يريدون التفرقة ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم اليه﴾، ولا بد من أن يتعرضوا الى جزاء أعمالهم ﴿وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ لأن ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾[1].

﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾، وبما ان أهم ما جاء به الوحي، هو التوحيد والمعاد لذا قال: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾[2]. يجب ان ينتظر الانسان كل لحظة ظهور القيامة. والشخص الذي ليس لديه ايمان، لا يعرف عظمة ذلك اليوم. لذا يقول مستعجلاً متى تقوم القيامة؟.

أما الشخص المؤمن فهو يعلم ان القيامة يوم عظيم، ويخاف منها. ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾[3]. يتخيل ان القيامة فترة من فترات الدنيا، وحكمها حكم الدنيا، بينما سبق بيان ان العلل والأسباب الطبيعية، تقطع يوم القيامة، وكذلك تقطع الأنساب والرحامة والمعاهدات. ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾[4] و﴿فلا انساب بينهم﴾[5] و﴿الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين﴾[6].

ان النظام في ذلك العالم، هو أيضاً نظام عليّ ومعلولي، لكنه ليس

---

(١) سورة الشورى، الآية (١٦).
(٢) سورة الشورى، الآية (١٧).
(٣) سورة الشورى، الآية (١٨).
(٤) سورة البقرة، الآية (١٦٦).
(٥) سورة المؤمنون، الآية (١٠١).
(٦) سورة الزخرف، الآية (٦٧).

تحت تصرف الانسان، نظام ذلك العالم ليس كالدنيا حيث تكون الأسباب والأدوات الصورية تحت تصرف الانسان، وبامكان الانسان القيام بأي عمل بأية وسيلة.

نأمل ان تكون قلوبنا وعاء لمعارف الكتاب وسنة المعصومين عليهم السلام ونسأل ان يختم عواقب أمور الجميع بالخير.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس السادس عشر

سورة الشورى والوحي

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

المسائل التي طرحت حتى الآن، كانت تبييناً لمضمون السور التي كانت تبدأ بـ﴿حم﴾ وقد أشرنا سابقاً الى ان القرآن الكريم كله منسجم، الا ان لكل سورة مضمون خاص بها، ولبعض السور مضمون مشترك، والسور التي لها مضمون مشترك تتشابه بدايتها ونهايتها. وفي القرآن سبع سور تبدأ بـ ﴿حم﴾، وتسمى بـ(الحواميم) السبع. ومضمون هذه السور السبع متشابه ومشترك لأن هذه الحروف المقطعة هي رمز، يبين محتوى السور، وكذلك الحروف التي تشكل كلمات تلك السورة. لذا تتشابه وتشترك حروفها المقطعة. ان المضمون المشترك لهذه السور السبع هو تبيين الخطوط العامة للوحي. أصل الوحي والتوحيد والمعاد. ورغم انه هناك اشارة الى فروع معارف الدين في هذه السور السبع وقد ذكر شيء عنها لكن القسم المهم

للمضمون المشترك لهذه السور السبع هو شرح الخطوط العامة للوحي.

وقد ذكر في بعض هذه السور، الوحي وأقسامه وما جاء به وضرورته، ما هو الوحي؟ وما هي أقسامه؟ وماذا جاء به؟ لماذا يعتبر نزول الوحي ضرورياً؟ هل يوجد وحي أساساً ام لا ولماذا؟ وحسب اصطلاح أهل المنطق مسائل معرفة الوحي مثل ما هو الوحي؟ هل هو الوحي؟ أي هل الوحي موجود؟ لم الوحي؟. لقد ورد بيان الأصول الثلاثة للاستدلال في تشريع، الوحي، في بعض سور الحواميم بشكل جيد. وفي سورة الشورى، التي تبتدىء بـ﴿حم﴾، كانت تتناول الوحي في بدايتها وصلبها ونهايتها جاء في بداية هذه السورة **﴿حم * عسق * كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم[1]﴾**. هذا التعبير يبين استمرار الوحي، وان منشأ الوحي هو الله الذي ينظم الوحي بعزة وحكمة. هذان الاسمان من أسماء الله الحسنى، لهما دور في نزول الوحي، فالوحي ينزل من مبدأ العزة والحكمة فزاد طريق الوحي هو تلك العزة والحكمة والقلب الذي يأخذ الوحي يصبح عزيزاً وحكيماً. والانسان التابع للوحي يتمتع بالعزة والحكمة بمقدار تبعيته للوحي. وفي خلال السورة ورد **﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾**[2].

ان المشركين يخافون من اتحاد الناس في التدين واتفاقهم في التوحيد **﴿كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من**

---

(١) سورة الشورى، الآيات (١و٢و٣).
(٢) سورة الشورى، الآية (١٣).

ينيب﴾[1] ، وفي آخر هذه السورة ورد: **﴿وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء انه عليّ حكيم﴾**[2] .

في هذه الآية قسّم الوحي وبيّن ان الوحي هو من سنخ الكلام الالهي. وبين أقسام الوحي ودليل ضرورته **﴿وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً﴾**. ان سماع الكلام الالهي ممكن للبشر عن عدة طرق اولها عن طريق الوحي وتلقي الكلام الالهي من دون واسطة، وهناك قسمان آخران للوحي، يفصّلان في الأثناء ان الله رفيع وعال الى درجة ان احداً لا يستطيع سماع كلامه، الا عن أحد هذه الطرق الثلاثة. لقد قسّم كلام الله بالنسبة الى البشر الى ثلاثة أقسام.

فذكر ان الكلام الالهي اما ان يكون من دون واسطة او مع الواسطة، وتلك الواسطة اما هي عامل الوحي او مجرى الوحي. اما فاعل الوحي القريب او مظهر الوحي.

ان المباحث المطروحة هنا هي:

اولاً: ماذا يعني كلام الله؟.

ثانياً: ماذا يعني الكلام بلا واسطة؟.

ثالثاً: ماذا يعني الكلام مع الواسطة بأن تكون الواسطة مظهراً وليس مصدراً؟ وماذا يعني الكلام مع الواسطة فتكون الواسطة مصدراً وليست مظهراً ومجرى محض؟ وبعد اتمام هذه المسائل نتناول دليل ضرورة أصل الوحي.

---

(١) سورة الشورى، الآية (١٣).

(٢) سورة الشورى، الآية (٥١).

الكلام هو الشيء الذي يظهر الباطن والغيب، ونحن نسمي ألفاظنا كلمة لأنها تظهر ما هو في داخلنا ومن الأسرار الباطنية، فكل ما يجعل السر الباطني علنياً والغيب مشهوداً والمستور ظاهراً، يكون كلمة، لذا فكل العالم هو كلمات إلهية، بعض هذه الكلمات تبيّن الغيب جيداً، وبعضها لا تتمكن من اظهار الغيب. ان اعتبار الأنبياء كلمات الهية، واعتبار القرآن الكريم لعيسى المسيح عليه السلام. كلمة، وما ورد في جوامعنا الروائية من قول الأئمة عليهم السلام: «نحن الكلمات التامات»، هو لأنهم يظهرون الغيب وأسرار العالم الكامنة، بمقدار الامكان، قال الإمام علي عليه السلام: «ما لله آية أكبر مني»[1]، ليست هناك كلمة أكبر من الامام وأبلغ من النبي صلى الله عليه وآله وسلم واذا كان القرآن يعتبر كل العالم كلمات الله سبحانه ويقول: ﴿**لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي**﴾[2]. فسرّه ان كل فيض هو بدوره كلمة تظهر الغيب، ولما كان الغيب غير محدود، فالكلمات الالهية غير محدودة. الكلمات هي في ذات العالم. العالم بلحاظ معين لوح وبلحاظ آخر قلم وبلحاظ ثالث كتاب وبلحاظ رابع كلام. وذلك اللوح والقلم والمكتوب، كلمة وكتاب معاً. انها كتب اذا لوحظت بلحاظ الثبات، وهي كلام اذا لوحظت من زاوية التدريج. والعالم كله كتاب الله تعالى. وبناء على هذا فالكلمة لها هذا المعنى الواسع، واطلاق الكلمة على عالم التكوين بهذا التحليل، صحيح والكلام الالهي ليس صوتاً يؤدى بالحنجرة ويسمع بالأذن الظاهرة.

جاء في بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام «انما قوله فعله. بصوت

---

(١) بحار الأنوار، ج٣٦ الباب ٢٥.
(٢) سورة الكهف، الآية (١٠٩).

يسمع ولا بنداء يقرع»، فاذا كان معنى الكلمة بهذه السعة، فان للتكليم والتكلم معنى واسع أيضاً. ان الحقيقة التي تنزل هي كلمة إلهية واذا تنزلت واستقرت في كساء اللفظ واللغة، تكون كلمة، كذلك مثلما انها كانت كلمة قبل ان تأتي الى هذا العالم، اذن اتضح معنى الكلمة والكلام والتكليم والتكلم، بهذه الرؤية العميقة.

ان الوحي هو كلمة أيضاً، لأنه يظهر الغيب وهو فعل الله، وقد قسمت هذه الآية، الكلام الى ثلاثة اقسام. ﴿**ما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً**﴾، فيتبين ان الوحي من دون واسطة هو كلام الله. ﴿**او من وراء حجاب**﴾ مما يدل على ان الله حين يتكلم من وراء حجاب، فذلك وحي وكلام الله أيضاً، ﴿**او يرسل رسولا**﴾ وذلك الرسول يوحي ويبلغ كل ما يريده الله، وهو بدوره وحي وكلام الله، كذلك اذن فالله يتحدث مع الانسان بثلاثة طرق.

ومن تقسيم كلام الله، يتبين ان في القسم الأول، لا توجد واسطة بين المتكلم والمخاطب، أي ليس ﴿**من وراء حجاب**﴾. ان بعض الأنبياء يسمعون كلام الله في بعض الحالات من دون واسطة حيث لا يكون للواسطة سهم في هذا الحال، اذ يتلقون الكلام من الله مباشرة، وهذا يسمى بالوحي أيضاً ﴿**او من وراء حجاب**﴾ او ان يتكلم الله من خلف حجاب او يرسل رسولاً يتلقى كلام الله ويبلغه.

فالقسم الأول، هو الكلام بلا واسطة والقسم الثاني هو الكلام من وراء حجاب، اي الكلام الذي يظهر من مكان وذلك المكان هو مظهر الكلام، وليس مصدره، فاذا كان موسى الكليم عليه السلام قد سمع قول ﴿**اني انا**

الله﴾[1] ، من حجاب الشجرة، فان القائل لم يكن الشجرة، بل الله هو الذي تكلم مع موسى عليه السلام من وراء وخارج الشجرة التي هي حجاب، فالمكلم الحقيقي هو الله، والسامع هو موسى الكليم، وتلك الشجرة هي مظهر الكلام فقط. فالشجرة ليست رسولا ولا متكلماً.

الشجرة لم تقل **﴿اني انا الله﴾** وانما الكلام الالهي ظهر في مرآة الشجرة، وأرض ظهور الوحي كانت الجانب الأيمن للوادي **﴿من شاطىء الوادي الأيمن﴾** أي من الشاطىء الأيمن للوادي فكلمة ايمن وصف للشاطىء، بمعنى الجانب، وليست هي وصفاً للوادي، قائل الكلام، ليست الشجرة بل الشجرة، هي مظهر كلام الله فقط.

يقول الشاعر الفارسي (ما ترجمته): «ليس هناك موسى لكي يسمع «انا الحق» والا فهذا الترنم ليس موجوداً في الشجر» فالشجر هو مظهر كلام الله، وسائر الموجودات هي أيضاً مظهر كلام الله، ولا يؤذن لأحد أبداً غير الله، بأن يقول (انا الحق)، وهذه الكلمة من أي شيء سمعت، فقائلها هو الله سبحانه، والموجود القائل هو مظهر هذا القول، وليس مصدره وضمير (انا) لا يعود اليه، بل يعود الى القائل وهو الله، لأن الله فقط يمكنه ان يقول (انا الحق)، اما الشجر فلم يقل، وغير الشجر لا يمكنه ان يقول أيضاً وليس مراد من قال شعراً ما ترجمته: «اذا كان جائزاً قول «انا الحق» من شجرة فلم لا يكون جائزاً صدوره من الشخص السعيد».

تجويز ذلك للانسان وانما مراده انه كما يجوز للشجرة ان تكون مظهراً لا مصدراً فكذلك سيكون ذلك جائزاً للانسان الواصل لمقام قرب النوافل

(١) سورة القصص، الآية (٣٠).

الذي قد صار الله له بمنزلة عينه واذنه ولسانه. وبالطبع فان حفظ اللسان وما شابه ذلك لازم في شرائط حفظ التكليف وحال الصحو فلا يجوز لأحد ان يفتح فمه ويقول انا الحق لأن ذلك يعني السقوط عن الانسانية والتوحيد **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق﴾**[1] اما ان يكون كالشجرة مظهراً فشيء آخر حيث يكون المتكلم هو الله، اما القسم الثالث **﴿او يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء﴾** فأحياناً يتكلم الله مع الانسان، بارسال رسول فتارة يرسل جبرئيل الأمين، وجبرئيل حامل كلام الله وهو يوحي باذن الله، فأصل ايصال الوحي بواسطة حبرئيل هو باذن إلهي، كما ان ما يوصله هو بمشيئة إلهية، **﴿فيوحي باذنه ما يشاء﴾**، وبناء على هذا، اتضح كلام الله، واتضحت أقسامه، أيضاً فبعضه بلا واسطة وبعضه مع الواسطة، وتلك الواسطة هي مظهر فقط، وليست بمصدر وبعضه مع الواسطة، وتلك الواسطة هي مصدر قريب، والمصدر النهائي هو الله. القسم الثاني يحتاج الى توضيح، وهو كيف ان الوحي وهو حقيقة مجردة، يظهر في محل في قوس النزول، ولا يكون ذلك المظهر في طول العلل، بل يكون مظهراً فقط وهو بحث قد يكون خارج مستوى كلامنا الحالي، لأن الوحي وهو من الأمور العلمية والمجردة، لا ينزل أبداً من حجاب غير نوري وانما يمر من الحجاب النوري فقط، وهو لا ينحصر في المظهر فحسب، بل هو مظهر بالنسبة الى المافوق ومصدر بالنسبة الى المادون، واما كيفية ظهور الوحي من وراء الشجرة فيجب ان يبين في بحثه المناسب.

وعلى أي حال، تم توضيح كلام الله وأقسام الوحي. اما في القسم

---

(١) سورة الحج، الآية (٣١).

الأول، حيث ليس هناك اي حجاب وواسطة بين المتكلم والمستمع، فهو لا يعني ان الفيض يظهر من المصدر الأول، ويصل الى عالم الطبيعة من دون قطع مجاري متوسطة لأنه ليس للطفرة طريق في قوس النزول، ولا في قوس الصعود، فلا يمكن ان يصل الفيض من مصدره الأصلي من دون السير في المجرى الوسطي، الى المستوى النازل لعالم الوجود وهو الدنيا، ولا يمكن في قوس الصعود، ان يصبح موجود طبيعي، عند الله من دون طي درجات ومراتب متوسطة. ان القول بعدم وجود واسطة في الأمر، يعني ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقطع هذه المراحل مثلاً، ويدرك المصدر الأصيل، ويأخذ الوحي من هناك ويأتي به معه وهذه المجاري الوسط، يقطعها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في داخله. فالوحي لا يصدر من المصدر الأول وينزل الى عالم اللفظ ويتجلى، من دون ان تعرف بذلك المجاري والعلل الوسطية، بل ان الروح المطهرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قطعت كل هذه العلل الوسطية. ورد في جوامعنا الروائية، مثل كتاب التوحيد لابن بابويه القمي ـ رحمه الله ـ ان زرارة سأل الامام الصادق عليه السلام عن الحالة الخاصة التي كانت تعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حين تلقي الوحي، «تلك الغشية التي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

احياناً يفقد عقل الانسان نورانيته، وهذا على قسمين، احدهما يظلل نور العقل، مثل تظلل القمر، نتيجة ظلام الشهوة والغضب، فالشهوة هي ظل على وجه العقل. الغضب بقعة سوداء على بصر العقل، وعقل الانسان صاحب الشهوة أو الغاضب، ليس فيه نور، لأن ظل الشهوة او الغضب قد ظلل على قمر العقل، والقسم الثاني هو ان يصبح العقل تحت ضوء الوحي، مثل نور القمر في النهار، حيث ليس للقمر نور في ذلك الوقت، لأنه تحت

أشعة الشمس، ونور القمر لا يشاهد في النهار، ليس بسبب ان القمر مظلم، بل بسبب انه تحت أشعة الشمس. ونور الوحي قوي الى درجه انه يجعل عقل الانسان تحت اشعته، وعند ذلك لا يشاهد نور العقل. وفي هذا الحال يحول العقل، التدبير الى نيّر أشد اشراقاً، لأن مرحلة ادراك الوحي، وهي عقل بالفعل وعقل مستفاد هي أعلى من العقول العادية، فالوحي والعقل هما في مرحلة طولية مع بعضهما البعض الوحي أكمل من العقل، والعقل ليس له نور في مقابل الوحي.

سأل زرارة الامام السادس عليه السلام عن السبب في ان بعض حالات رسول الله صلى الله عليه وآله تكون كحالة مدهوش؟ قال: «ذاك اذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك اذا تجلى الله له».

في ذلك الحال لا يكون حجاب وواسطة بين رسول الله صلى الله عليه وآله، والله، بل يتلقى الوحي من الله العزيز الحكيم، بلا واسطة، هناك حيث يتجلى الله من دون واسطة كما ان رسول الله يصاب بالدهشة، ليس بسبب ان لله حالات متنوعة، تارة يتجلى بهذا الشكل وتارة بشكل آخر (اذ ليس عند ربك صباح ولا مساء)، ليس هناك تغيير بل ان التفاوت دائماً هنا، أحياناً يكون البشر في حال بحيث يتلقى الفيض من الله بلا واسطة واحياناً مع الواسطة، وهذا لا يعني انه لا تكون موجودة أصلاً في تلك الأحيان، بل يمكن بهذا المعنى، وهو انه لا يحصل التفات الى الوسائط، لأن الطفرة غير صحيحة في كل المراحل، والوسائط لا تنتفي من العالم ابداً، لأنها كلها وسائط فيض باذن الله. حين ذكر الامام الصادق عليه السلام المسألة الآنفة في جوابه لزرارة، أصابت الامام حالة خشوع، او أمر بالخشوع «أقبل يتخشع»[1]، اذن يتكلم الله مع

---

(١) توحيد الصدوق، ص ١١٥.

الانسان من دون واسطة، احياناً فهو احياناً يقبض روح الانسان الكامل من دون واسطة. ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾[١]. يقبض الله الروح من دون واسطة ملك الموت، عندما يكون المحتضر قد وصل الى درجة تجاوز فيها الوسائط لذا لا يرى الوسائط، والانسان الكامل هو الذي يسمح له ان يقول: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل». هذا الكلام لا يصدر عن الآخرين، وهكذا في الرزق أيضاً، حيث يتلقى الانسان الكامل، الرزق من الله من دون واسطة، احيانا. فرغم ان هناك ملائكة معينون مسؤولون عن توزيع الأرزاق، لكن الانسان يضع احيانا هذه الوسائط جانبا لأنه قطع هذه الوسائط فيتلقى الرزق من الله، مباشرة، وهذه الحالات المختلفة هي للانسان الكامل، والا فبالنسبة الى الله سبحانه الحالات متساوية.

والخلاصة ان كلام الله على ثلاثة أقسام، وتفاوت هذه الأقسام، هو بالنسبة الى المستمع، وليس المتكلم. ومنشأ هذا التقسيم وتفاوت المراتب هو ان الله تعالى في الحد الأعلى للعلو والحكمة، ﴿انه علي حكيم﴾. الله سبحانه متعالي. ولا يمكن لأي شخص ان يسمع كلام الله. انه حكيم يعلم كيف يتكلم مع البشر، مع البعض بلا واسطة ومع البعض بواسطة. وهذه الوسائط تكون مظهر الكلام او مصدره، ثم قال في الآية اللاحقة: ﴿وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا﴾[٢]. أي اننا تكلمنا معك ايها النبي ﷺ هكذا أي تحدثنا بثلاثة أشكال، تارة بلا واسطة، وتارة من وراء حجاب، وتارة بارسال رسول إلهي. ان ما يراه رسول الله ﷺ في الرؤيا هو ﴿من

(١) سورة الزمر، الآية (٤٢).
(٢) سورة الشورى، الآية (٥٢).

وراء حجاب﴾. وما يأتي به جبرئيل الأمين هو **﴿يرسل رسولا﴾**، وما يتلقاه **﴿انك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾**، هو بلا واسطة. ان ما تلقاه في المعراج كانت بعض مراتبه بلا واسطة. والمقام الذي قال عنه جبرئيل «لو دنوت أنملة لاحترقت»، مقام استماع الكلام بلا واسطة.

روي بشأن الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة، ان رسول الله ﷺ، قد تلقاهما في المعراج، بلا واسطة. ولما كان المعراج في مكة، فان نزول تينك الآيتين كان في مكة، ويحتمل ان تكونا نزلتا في المدينة، لأن بعض الآيات نزلت مرتين. على اي حال كان هناك اكثر من معراج واحد. فالله سبحانه يتكلم مع البشر بثلاثة اشكال، وقد تكلم مع الرسول الأكرم ﷺ بالأقسام الثلاثة كلها. فهذا الانسان الكامل، تلقى جميع اقسام الكلام الالهي. وهذه الأقسام مانعة الخلو وليست مانعة الجمع اي ان جمع الأقسام الثلاثة ممكن للانسان اذا أصبح الانسان صادراً أول مثل خاتم الأنبياء ﷺ، والصادر الأول يعرف ما يجري في نظام الوجود والخلق، لأن أوليته، ليست أولية اعتبارية. وبناء على هذا فان كل ما ينزل من الله سبحانه ويكون جزءاً من عالم الامكان، يعرف به الصادر الأول في مقام نورانيته، وان لم يعرف به من ناحية بعده الجسماني لا يمكن ان يوجد شيء في عالم الخلق، ولا يعلم به الصادر الأول، لأن الصادر الأول له وساطة واحاطة علمية بالنسبة لجميع الفيوضات اللاحقة.

واذا كان هناك شيء في عالم الامكان، فهو بعد الصادر الأول، والصادر الأول يعرف بها كلها ولو كانت مسألة القيامة، لكن الانسان الكامل قد لا يعرف بعض الأمور في المقام النازل.

وقد أشار الله تعالى، الى هذا القسم هنا، فذكر انه طرح الأقسام الثلاثة

على النبي ﷺ ورسول الله ﷺ، انسان كامل وجامع «اوتيت جوامع الكلم» وجامع لكل الحضرات، واذا كان يدرك كلام الله في المرحلة العالية بلا واسطة، ففي المرحلة الوسط والسفلي يدركه مع الواسطة. وليس صحيحاً انه يكون في المرحلة العالية احياناً ويكون غافلاً عن المجاري النازلة والوسط وانما «بما اننا نملك المئة فالتسعين ايضاً لدينا» فاذا كان في المقام الأعلى ينال بلا واسطة فانه في المقام الوسط والأسفل ينال أيضاً مع الواسطة غايته.

ان هذه الوسائط الخارجية هي مسير التكامل الوجودي للانسان الكامل، وهو في المقام النازل ليس لديه كمالات المقام العالي، لذا قال: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان﴾[1] اي قبل ان ينزل الوحي وتطلع عن طريق الوحي، لم تكن عارفاً بهذا الكتاب، ولم تكن ملتزماً بمعارفه بالتفصيل.

ومع ان رسول الله ﷺ، خلق بفطرة الايمان، وحسب قول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، بأن الملائكة الغيبيين كانت تؤيده بمكارم الأخلاق، من أول لحظة ولادته، لكن تفصيل هذه المعارف، قد بدأ بالوحي الالهي. وبناء على هذا فان ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان﴾ لا يعني انك قبل الوحي لم تكن عالماً أصلاً، بل المراد هو انك لم تكن عالماً بهذه المعارف بشكل تفصيلي قبل الوحي، ونؤجل تحرير هذه المسألة وشرح ضرورة الوحي الي البحث اللاحق بتوفيق الله، لأن محور الكلام الحالي هو البحث في معنى كلام الله، وان الوحي هو كلام الله، وكلام الله يقسم الى ثلاثة أقسام، وكل الأقسام الثلاثة كانت لدى رسول الله ﷺ. ومن المقرر

---

(١) سورة الشورى، الآية (٥٢).

أن تستفيد في بحث دليل ضرورة الوحي من الروايات.

نسأل الله بحق الأنبياء والأولياء العظام ان يرحم جميع معلمينا خاصة الأستاذ الكبير العلامة الطباطبائي الذي تعتبر كثير من هذه المسائل من بركة تفسير الميزان القيّم لذلك الحكيم المتأله، وان يستجيب هذه الأدعية في حق جميع المؤمنين.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس السابع عشر

الوحي واقسامه

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

ذكرنا سابقاً ان الخطوط العامة للوحي قد بحثت في السور القرآنية السبع المعروفة بالحواميم والتي ورد في بدايتها حرفا ﴿حم﴾. وفي سورة الشورى كان القسم الغالب من بحثها يتناول حقيقة الوحي وبيان أقسام الوحي وتوضيح ما جاء به الوحي وتبيين ضرورة الوحي للبشر وشرح ان الانسانية لا تصل الهدف من دون الوحي وان عقل الانسان لا يكفي لتأمين سعادته. وبداية السورة كلام في أصل الوحي وعظمته. وفي اواسطها تطرق للتشريع وما جاء به الوحي، وفي ختامها اشارة الى تقسيم كلام الله وان الوحي هو كلام ايضاً. قال تعالى في بداية السورة: ﴿**كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم**﴾[1]. وقال في اثناء السورة: ﴿**شرع لكم**

---

(١) سورة الشورى، الآية (٣).

من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا اليك﴾[1] . فالشريعة الاسلامية متأصلة وهي نفس الدين الذي أنزل على الأنبياء أولي العزم. وفي ختام السورة قال: **﴿وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء﴾**[2] . اي ان البشر لا يستطيع الاستفادة من كلام الله ابداً الا عن طريق احد هذه الطرق الثلاثة، اما بلا واسطة او من وراء حجاب مع الواسطة، او عن طريق ارسال رسول وهذا الرسول، يبلّغ كل ما يريده الله، باذن الله.

في هذا الجزء، ذكر الوحي بوصفه كلام الله، وقد سبق ان بيّنا معنى التكليم الالهي، من انه لا يعني التحدث عن طريق الحنجرة والصوت واللفظ ففعل الله هو كلام الله. العلم الذي يعطيه الله للعالم، هو كلام يقوله له. فقوله تعالى **﴿ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾**[3] ، اي انكم اذا كنتم متقين يجعل الله لكم نورانية تفرقون بذلك النور بين الحق والباطل، ذلك النور هو كلام الله. وقوله تعالى **﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾**[4] ، ذلك العلم هو كلام الله. وذلك التعليم هو تكليم إلهي. ان الانسان الذي تعلم في مدرسة الله، وسمع كلام الله، يرسخ كلام الله في نفسه شيئاً فشيئاً، واذا رسخ العلم وهو كلام الله في نفس العالِم، بالشكل الذي يصبح فيه من الراسخين في العلم، عند ذلك يصبح وجود هذا العالِم الذي اتحد وجوده مع علمه كلمة الله، واذا كان العلم كاملا، وكان رسوخ العلم في نفس ذلك العالِم في منتهى الكمال، وكان ذلك العالِم من الراسخين الكاملين في العلم كالأئمة

---

(١) سورة الشورى، الآية (١٣).
(٢) سورة الشورى، الآية (٥١).
(٣) سورة الأنفال، الآية (٢٩).
(٤) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).

المعصومين عليهم السلام، فانه يعتبر من الكلمات التامات لله سبحانه، لذا ورد في جوامعنا الروائية عن لسان الأئمة المعصومين عليهم السلام انهم قالوا: «نحن الكلمات التامات» كما نقول لهم حين نقف بين أيديهم متأدبين انتم الكلمات التامة لله. وكل انسان يتمتع بكلمات الله بمقدار سمعه.

في يوم القيامة يتكلم الله مع البعض ولا يتكلم مع بعض آخر، فالفئة التي لا تشملها رحمة الله، **﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾**(1). كل فيض خاص يعطيه الله للانسان هو كلمة الله، وقد بينا في الدرس السابق بالتفصيل ان جميع الموجودات في عالم الامكان هي كلمات الله، استشهاداً بالآية الكريمة **﴿لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر﴾**(2). ولكن هنا ورد الحديث حول كلام خاص، فذكر ان البشر لا يستطيع تلقي كلام الله، الا عن أحد طرق ثلاثة، وهي مانعة الخلو لكن جمعها ممكن، **﴿وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً﴾** اي بلا واسطة **﴿او من وراء حجاب﴾** وراء حجاب يعني خارج المحيط وليس من خلفه، وقوله تعالى **﴿والله من ورائهم محيط﴾**(3) يعني خارجهم ومحيط بهم، محيط بداخلهم وخارجهم، وليس انه محيط بخارجهم فقط، والا يصبح لازماً ان يكون خارجاً عن الأشياء بالمزايلة بل هو محيط بداخلهم وخارجهم، كما قال امير المؤمنين عليه السلام «غير كل شيء لا بمزايلة»(4) الحجاب هناك مظهر للوحي، لكنه ليس مصدراً له **﴿أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء﴾** وهذا هو القسم الثالث. الله تعالى يرسل أميناً ويودع كلامه الى ذلك الرسول الأمين، فيأتي ملك الوحي هذا، باذن الله

---

(1) سورة البقرة، الآية (174).

(2) سورة الكهف، الآية (109).

(3) سورة البروج، الآية (20).

(4) نهج البلاغة للفيض، الخطبة الأولى.

ويبلغ ما يريد الله، ولا يقول شيئاً من عنده. لا يضيف شيئاً للوحي، ولا يقلل من الوحي، ولا ينزل من دون اذن. لذا فهو ملك امين، وقد ذكر الله سبحانه ملك الوحي، بالأمانة وقال: ﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك﴾[1]. هذا الروح. ورسول الوحي هذا أمين في كل وجوده، فهو يبلغ ما يحمله بأمانة، ولا يأتي من دون اذن، ولا يعود من دون أمر ولا يزيد ولا ينقص في الوحي الذي يأتي به.

لذا فان ما بأيدينا من القرآن الكريم، هو نفس الشيء الذي أنزله الله، ليس فيه كلمة واحدة زائدة او ناقصة، لأن رسول الله ﷺ امين، وملك الوحي امين، فكل ما أنزله الله، جاء به رسول الوحي بأمانة وتلقاه مجرى الوحي وهو القلب المطهر للرسول الأكرم ﷺ بأمانة وليس هناك ترديد في حرم أمن القرآن، وما نتلوه الآن هو نفس ما أنزله الله، لذا قال لرسوله ﷺ: ﴿وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾[2] مما يدل على ان الله يتكلم مع الناس الآن أيضاً مهما كان السامع وبأي نحو تلقى كلام الله؟ ﴿فيوحي باذنه ما يشاء﴾. في القسم الثالث يوحي ملك الوحي باذن الله، ما يريد الله، ثم يستدل على هذا الادعاء ﴿انه عليٌّ حكيم﴾ وقد مر شكل الاستدلال في البحث السابق.

﴿وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا﴾[3]، هذا الوحي هو من أمر الله، وليس لأحد دور في هذا الأمر، وهو يتنزل من ذلك العالم لا أنه يتجافى. ان القلب الذي ليس لديه رقي وعلو، لا يصل الى ذلك العالم. ﴿ما

---

(١) سورة الشعراء، الآيتين (١٩٣ و١٩٤).
(٢) سورة التوبة، الآية (٦).
(٣) سورة الشورى، الآية (٥٢).

كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان﴾[1] . فما لم ينزل الفيض من المقام العالي، لا يعرف به المتلقي في المقام النازل، الا ان هذا لا يعني ان رسول الله ﷺ، لم يكن لديه قبل البعثة والرسالة اي اطلاع بالمعارف الالهية والتوحيدية، بل كان عارفاً بها بشكل اجمالي وهذه المعرفة اتسعت عن طريق الوحي، اما أصل التوحيد وأصل حقانية الله وضرورة عبادة الله وبطلان الشرك، كان قد تم بيانها لرسول الله ﷺ، وقد ذكرنا كيفية البيان في البحث المتقدم، وقد استشهدنا على ذلك بكلام عن أمير المؤمنين ـ عليه أفضل صلوات المصلين ـ في نهج البلاغة، حيث ذكر ان رسول الله ﷺ كان منذ زمان ولادته مصحوباً بالتأييدات الغيبية للملائكة، وكان يحمل التوحيد والفطرة التوحيدية الكاملة.

ان تعبير ﴿ما كنت تدري﴾ يختلف عن تعبير «ما تدري»، وكان الأستاذ العلامة الطباطبائي ـ رضوان الله تعالى عليه ـ يقول ان قول الله لرسوله ﷺ: ﴿ما كنت تدري﴾ يعني انك لم تكن تعلم شيئاً من عند نفسك لأن الانسان ليس عالماً من عند نفسه والله هو الذي يفيض فيض العلم. فهو بمعنى ان ما تعلمه هو عطية إلهية ووحي وإلهام الله، ولم تكن تعلمه من عند نفسك لا انك لم تكن تعلم بشكل كلي لم يقل «ما تعلم وما دريت وما علمت» بل قال: ﴿ما كنت تدري﴾ أي ان الذات العالم هي الله. الله هو الذات التي لديها علم واطلاع على حضوره. لم تكن انت الذات التي تعلم من نفسه وانما نحن ألقينا نور العلم في قلبك ﴿ولكن جعلناه نوراً﴾.

ولما كان الوحي نور فان القلب المطهر للنبي ﷺ يتنور حين ينزل هذا النور عليه وفي نفس النور، ليس هناك مكان للظلام، فالذنب والغفلة

---

(١) سورة الشورى، الآية (٥٢).

والسهو والنسيان وأمثالها هي إما ظلام او غموض واي من هذه ليس لها طريق الى حرم امن قلب رسول الله ﷺ ﴿ولكن جعلناه نوراً﴾، لأن الوحي نور، وهذا النور يجب أن يتنزل من عند ﴿نور السموات والأرض﴾، قال ﴿ولكن جعلناه نوراً﴾، اننا أفضنا هذا النور، لأن الخاصية الأصلية للنور، هي الهداية والقيادة، وهذا النور في أي مكان يسطع، تظهر الهداية والقيادة. لذا قال: ﴿نهدي به من نشاء﴾. وقال ﴿انا هديناه السبيل﴾[1]، وهذه هداية ابتدائية لجميع العالمين، واما ﴿نهدي به من نشاء﴾، فتلك هداية خاصة، تعود الى مشيئة الله الحكيمة، والهداية الخاصة مقرونة بالتوفيق. ان الهداية الخاصة هي تسهيل القيام بالفضائل وأعمال الخير، للانسان فيلتذ الانسان بالقيام بالفضائل وأعمال الخير فضلا عن عدم تألمه من مشقتها فهذه الهداية الخاصة تسهل للانسان المتقي القيام بالأعمال الحسنة، قال تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى﴾[2]. اي ان الفضائل تصدر عنه بيسر.

فاذا أراد القيام بالحرب مع الهوى في جبهة الجهاد الأكبر. فانه يحمل السلاح بسهولة وينتصر. واذا اراد ان يحارب في الخارج ويقوم بالجهاد الأصغر مع العدو الخارجي، فانه يذهب الى الجبهة بسهولة واذا اراد ان يكون عفيفاً امام الرذائل الاخلاقية فانه يتعفف بسهولة واذا اراد ان يكون من أهل الجود والسخاء، يتخلى عن البخل بسهولة ويمسك برداء الجود والسخاء، فالسخاوة والعفو والعفة والجهاد في سبيل الله سهلة عليه.

ان اعطاء الهداية الخاصة، هو بارادة الله، وهذه المشيئة قد نظمت

---

(١) سورة الانسان، الآية (٣).

(٢) سورة الليل، الآيات (٥و٦و٧).

على أساس الحكمة، فاذا سحق الانسان الهوى، واتجه الى الفضائل، فانه يشمل بهذه المشيئة ويحصل على الهدايات الالهية الخاصة. قال تعالى: ﴿يجتبي اليه من يشاء﴾. ان الله يجتبي الناس اللائقين، ثم يعطيهم هذا النور الخاص، والشخص الذي يتمتع بالهداية الخاصة، يشعر بالضوء الالهي في قلبه ومع الشعلة الالهية، لا يبقى مكان للغموض فعند ذلك يرى قبائح الذنب ويشاهد حسن الطاعة ويتجه بالطبع الى الفضائل. ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾.

هناك شكلان من النور في العالم، نور عام ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة﴾[1] وتلك الشجرة المباركة هي زيتونة ﴿لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾[2] لكن هذا نور خاص، غير النور العام. اين هو هذا النور الخاص؟ ﴿في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة﴾[3].

﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء﴾. ان الذين يتمتعون بالنور الخاص لا يشغلهم اي ظلام وغموض، ولما كان هذا النور الخاص، قد ظهر في القلب المطهر للرسول الأكرم ﷺ بواسطة الوحي الذي هو النور وكل ما يقوله الرسول ﷺ هو وحي بلا اضافة او نقصان، لذا ذكر ان عمل الله

---

(١) سورة النور، الآية (٣٥).

(٢) سورة النور، الآية (٣٥).

(٣) سورة النور، الآيتين (٣٦و٣٧).

يحصل بيدك فأنت أمين وحي الله نور ﴿نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ ثم قال: ﴿وانك لتهدي الى صراط مستقيم﴾ فقد نسب الهداية الى رسول الله ﷺ والى نفسه بما ان هداية الله هي بصورة نور، والنور هو الوحي الذي ظهر في قلب وسمع رسول الله ﷺ وقد نصب رسول الله ﷺ نور الهداية الخاص امام طريق الناس اذن هداية النبي ﷺ هي هداية الله، وليست شيئاً آخر.

وحول القول بأن النبي ﷺ، لا يضيف شيئاً الى الوحي ولا ينقص منه، قال تعالى في سورة النجم: ﴿والنجم اذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحي يوحى﴾[1]. وقال تعالى في سورة أخرى: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾[2]، أي انه يبلغ كل وحي وأمر يصله اذن كل ما يحصل عليه يقوله وكل ما يقوله وحي وهذا هو الرسول الأمين الذي ليس عنده افراط في الوحي ولا تفريط ولا زيادة ولا نقصان. فكل ما يقوله رسول الله ﷺ هو هداية إلهية.

وبناء على هذا، فان الله ينسب الهداية الى نفسه والى الرسول ﷺ أيضاً اي انه يهدي بلسان النبي الأشخاص الذين يريد هدايتهم لأنه يهدي الى الحق ﴿وانك لتهدي الى صراط مستقيم﴾، ولما كان رسول الله ﷺ في مجرى الصراط المستقيم، فان معارفه اخلاقه واعماله هي صراط مستقيم كذلك وهذا هو الصراط المستقيم الذي هو أدق من الشعرة وأحدّ من السيف. والانسان الذي يكون دقيقاً بهذا الشكل يشبه عمله هذا من يمشي على الشعرة الدقيقة وحافة السيف الحادة، بحيث لا ينحرف الى اتجاه اليمين

---

(١) سورة النجم، الآيات (١الى٤).
(٢) سورة التكوير، الآية (٢٤).

ولا يسقط في اتجاه اليسار ولا يعود الى الخلف ﴿يس * والقرآن الحكيم * انك لمن المرسلين * على صراط مستقيم﴾ (١) انت صراط مستقيم، وعلى الصراط المستقيم، كما ان عمل الله سبحانه على الصراط المستقيم ﴿ان ربي على صراط مستقيم﴾ (٢).

من ناحية أخرى، فان الشيطان ينشط بشأن الصراط المستقيم، فيوقع السائرين في هذا الطريق اما في الجهة اليمنى او الجهة اليسرى ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ (٣). ان الشيطان ليس على الصراط المستقيم، بل يجلس في بدايته او على حافته، حتى لا يدع السائر يجد ذلك الطريق، او لا يسمح للسائر مواصلة طريقه، بعد ان يعرفه ويسير فيه. ان الذين وقعوا من الصراط المستقيم وانحرفوا هم شياطين وليس للشيطان شأن مهم معهم، بل يحاول جر الآخرين من أهل الطريق، الى أولئك. اما رسول الله ﷺ، فيهدي الناس الى الصراط المستقيم. وهذا الطريق له نهاية معينة، ويوصل الانسان الى هناك، لأنه طريق الله ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ (٤) طريق خالق العالم والذي يدير العالم بذلك الطريق. وهذه المسائل قد ذكرت متتالية بصورة دليل ومدلول، وليس هناك أي اعوجاج في ذلك الطريق. لماذا صراط الله مستقيم؟ لأن الله خلق النظام وهو الذي يديره بشكل صحيح. والطريق الذي له هدف عال، طريق مستقيم، والطريق الذي ليس له نهاية، او اذا كانت له نهاية فهي مرتفع او وادي، فهو غير مستقيم، والطريق الذي تكون نهايته الحيرة وجهنم ليس مستقيماً، بل الطريق

---

(١) سورة يس، الآيات (١ الى ٤).

(٢) سورة هود، الآية (٥٦).

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٦).

(٤) سورة الشورى، الآية (٥٣).

المستقيم هو الطريق الذي كلما ازداد السائر فيه سيراً يجد الهدف بشكل أفضل، ويزداد معرفة به ويصبح اكثر تعلقاً بالهدف.

هذا هو طريق الذي خلق العالم، ولأنه خلق العالم فيجب ان يديره بشكل صحيح، وبما ان ادارة العالم تعني الهداية التكوينية لكل موجود الى الكمال وبما ان الهداية هي بقطع الطريق، اذن لكل موجود صراط مستقيم، وله كمال معين وبما ان الكمال هو للجميع فالطريق للجميع والانسان غير مستثنى من هذه القاعدة العامة، وبناء على هذا فللانسان هدف وكمال، وله طريق معين، والمبدأ الذي حدد طريق الجميع الى الكمال، قد حدد أيضاً الهدف والكمال والطريق الذي يوصل الانسان الى الكمال ﴿**صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض**﴾، وقد قال تعالى في طليعة هذه السورة: ﴿**له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم**﴾[1]. وفي ختام السورة قال تعالى: ﴿**الا الى الله تصير الأمور**﴾، والقرآن الكريم يبدأ المسائل المهمة، بكلمة ﴿**ألا**﴾، وهنا يحذر من ان صيرورة جميع الأمور الى الله هذه الصيرورة تتضمن سيرا وذهاباً، فليست هناك صيرورة من دون سير، وليس ثمة وصول من دون ذهاب وليست هناك مشاهدة من دون نظر، ولا شبع من دون تناول طعام، فاذا كانت الصيرورة والتحول مسألة عامة، فالسير اذن عام كذلك. ان الشيء المتوقف في مكانه، لا يمكن ان يصبح شيئاً آخرا من دون سير وجودي وتكامل والنقص لا يتبدل الى كمال من دون سير، وما لم تطوى المسافة بين القوة والفعل، لا تصبح القوة فعلاً أبداً، وهذا الطي هو حركة وسير وكل حركة يلزمها طريق، وطيّ الطريق لا يفيد من دون هاد، اذن بما ان الهدف والصيرورة ضرورية فان الطريق ضروري وبما ان الطريق

---

(١) سورة الشورى، الآية (٤).

ضروري، فالهادي ضروري كذلك.

هذا هو الاستدلال على ضرورة الوحي، عن طريق المعاد، حيث ذكرنا في البحث السابق ان القرآن، يعتبر الوحي كلام الله، وقد قسمه الى ثلاثة أقسام كما بيّن متلقي الوحي وحامليه، وأقام دليلاً على ضرورة الوحي. ودليل ضرورة الوحي في هذا الجزء من القرآن هو ضرورة المعاد، اي بما ان الانسان مثل سائر الكائنات، له صيرورة الى الله ورجوع إلهي، فالمعاد وصيرورة الانسان هي حق، والتحول الالهي هو هدف حياة الانسان وليس ثمة سد أو عقبة وأمثال ذلك بين الانسان والهدف وانما هناك طريق، لأنه اذا كان الانسان في احدى حافات الوادي، وهدفه في الحافة الأخرى للوادي، فلا الانسان يصل ذلك الهدف، ولا ذلك الهدف يعتبر هدفاً للانسان اذن هناك طريق بين الانسان وهدفه، ونظراً الى أنه لا يعرف الطريق، فانه يحتاج الى هادي والطريق الذي اذا قطعه الانسان يصل الهدف، هو الدين الالهي الذي يسمى بالشريعة فالدين الذي هو الصراط المستقيم هو الطريق الفاصلة بين الانسان وتحوله الى انسان إلهي. والانسان اذا سار في طريق الدين، يبلغ الهدف اذن وجود الطريق وهو الدين والوحي والقرآن ضروري ولما كان هذا الوحي غير ممكن من دون متلقي، فوجود النبي ﷺ الذي هو هادي الى هذا الطريق، والمتقدم فيه والمتلقي والموصل للوحي، ضروري.

ان الانسان لا يستطيع تشخيص هذا الطريق، بعقله بل يحتاج الى هادي ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾[1]، وهنا اقام الله تعالى برهاناً على ضرورة الوحي حدّه الوسط هو المعاد. ونظرا الى ان للانسان معاد وهدف، والهدف مستحيل من دون طريق، فان من المستحيل ان يصل الانسان الى هدفه من

---

(١) سورة النحل، الآية (٩).

دون طريق. وهادي هذا الطريق هو النبي ﷺ، لذا قال تعالى: ﴿الا الى الله تصير الأمور﴾، وقد اعتبر ضرورة المعاد، احدى أدلة ضرورة الوحي، ليس فقط في هذا الجزء بل في أقسام أخرى من القرآن الكريم، بناء على هذا فقد اعتبر الله تعالى، في مجموع هذه السور ان الوحي كلام الله، وقسّمه الى ثلاثة أقسام، وحي بلا واسطة، وكلام من وراء حجاب وكلام على شكل ارسال رسول، ولم يعتبر هذا مانعة جمع. وقد اعطى الأقسام الثلاثة للنبي ﷺ وسميت نهاية هذا الطريق المستقيم، صيرورة إلهية.

نرجو من خلال التعرف وادراك مضمون الكلام الالهي، ان يوفق الجميع للاستفادة من القرآن الكريم، وان تصبح قلوبنا وعاء للمعارف الالهية حيث «ان هذه القلوب أوعية فخيرها اوعاها»، وان يهدي ثواب هذا الكلام وسماعه بعد تقبله كأفضل هدية الى أرواح الأنبياء والأولياء، نسل الله ببركة انبيائه وأوليائه ان لا يفرّق بيننا وبين القرآن والعترة في الدنيا والآخرة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الثامن عشر

موقف منكري الرسالة من الوحي

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله، وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

بدأ البحث حول السور التي تفتتح بـ﴿حم﴾ في ان لبعض السور القرآنية مضموناً مشتركاً مع ان لكل سورة من سور القرآن الكريم محتوى خاصاً.

ولهذا تذكر في تلك السور نفس السلسلة من الأحرف المقطعة تفتتح سبع سور في القرآن الكريم بـ﴿حم﴾ وتسمى بـ«الحواميم السبعة»، والمضمون المشترك لهذه السور السبع توضيح الخطوط العامة للوحي؛ شرح أصل الوحي؛ ضرورة أصل الوحي؛ وبيان مبدأ الوحي وتوضيح انتهائه. فتطرح هذه السور السبع اشكالات منكري الوحي والنبوة، وكذلك الأجوبة القطعية لتلك الشبهات؛ كما تذكر أعذار المستكبرين وحججهم الواهية تجاه الوحي ورسالة الأنبياء عليهم السلام وكذلك أسلوب حلها ومعالجتها،

مما ورد قسم من هذه المواضيع في المباحث السابقة.

احدى المسائل التي تطرحها هذه السور السبع حول الوحي والنبوة هو ان بمنكري الرسالة تارة يطلقون على القرآن انه سحر، وتارة يقولون ان هذا الكتاب هو ملفقات شخص يعتبر نفسه رسول الله وينسب تلك التلفيقات الى الله تعالى، وتارة يقولون انه لا خير في أحاديث هذا الشخص من حيث القيمة وان الوحي والنبوة لم يأتِ بخير، فنسبته الى الله افتراء وكذب، كما ان مضمونه ومؤداه لا خير فيه. فلا وحي هناك ولا نبوة ولا ما يذكر باسم ما اتى به الوحي خير. في هذه السور يتم البحث في موضوعات أصل الوحي والنبوة، وكذلك في توضيح ان القرآن كلام الله، وان مضمونه خير.

ففي سورة الاحقاف «احدى الحواميم السبعة» نقرأ [قوله تعالى]: **﴿واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾**[1] فعندما تتلى آيات الله البينة على المشركين يقولون انه سحر وليس اعجازاً. فهذا الكلام النادر كلام سحري لا يعجز عن الاتيان بمثله السحرة الماهرون وان عجز عنه الأفراد العاديون، وبالتالي فهو سحر وليس معجزة.

وتارة يقولون انه ليس سحراً بل كلام عادي ينقله هذا الشخص كذباً وافتراءً على انه وحي ونبوة وينسبه كذباً ـ والعياذ بالله ـ الى الله تعالى: **﴿أم يقولون افتراه﴾**[2].

وحول قيمته قالوا ان مضمون هذا الكلام ليس خيراً، فـ**﴿لو كان خيراً ما سبقونا اليه﴾**[3]، أي ان هذا الايمان والاعتقاد بالنبوة والوحي ليس خيراً،

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (٧).
(٢) سورة الاحقاف، الآية (٨).
(٣) سورة الاحقاف، الآية (١١).

ولو كان خيراً وكمالاً لما سبقنا المؤمنون اليه، لأننا نحن السابقون في الخيرات.. والسباقون في الكمالات والسعادات؛ ولما لم يكن ما أتى به القرآن خيراً لم نرغب فيه ولم نقبل به. فلو كان فيه خير وكمال لقبلنا به قبل الآخرين ولآمنّا به. هذه هي الأحاديث المتناثرة لمنكري الوحي والنبوة، الذين يتحدثون في حقانية وصحة الوحي والنبوة تارة، وفي كمال وخيرية ما أتى به الوحي تارة أخرى.

في القسم الأول يأمر الله سبحانه رسوله ان يبطل احاديثهم بعدة براهين: ﴿**قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً**﴾ اي ان لم يكن - والعياذ بالله - هذا الحديث وحياً، وكنت قد افتريته ونسبته الى الله كذباً، لنالني غضب الله، وما كان لأحد منكم القدرة على نصرتي، ولما استطعتم انقاذي من غضب الله سبحانه. فأنا لا أنطق افتراء على الله أبداً، لأني أعلم ان لو نسب من هو في مقام الرسالة شيئاً الى الله افتراء عليه، فسيشمله السخط والغضب الالهي الذي لا يغتفر، ولن يستطيع احد ان ينجيه منه. فالله القهار لا يتجاوز عن كذب المدعين الكذابين أبداً، ولهذا فان افتريت عليه فسينالني منه غضب لا يكون بوسع أحدكم منعه مني ﴿**فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾[1].

فقد يقوم شخص عادي بنسبة شيء - كذبا - الى الله تعالى ويدعي النبوة، فمثل هذا وان كان يشمل بغضب الله وقهره ولكن ليس ذلك الغضب العاجل والمدمّر، والا لما ادعى شخص النبوة من المتنبئين. وتارة يريد الشخص الذي ثبتت رسالته وسلم بنبوته والايحاء اليه وقبلت رسالته ونبوته في المجتمع.. ان ينسب كذبة الى الله؛ في مثل هذه الحالة لن يسمح الله

(١) سورة الحاقة، الآية (٤٧).

لمثل هذا الانسان ابداً ان يقوم بشيء من ذلك؛ ومن هنا ورد ما ورد في القرآن الكريم بشأن رسول الله ﷺ من انه **﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين﴾**(١) ولن يستطيع احد ان يمنع سخطنا وقهرنا وذلك لأن من ثبتت نبوته لو أراد ان يكذب فان كذبه سيمضي عند الناس.

أما الأشخاص الذين عشعشت في رؤوسهم فكرة ادعاء النبوة مقابل انبياء الله، ونسبوا الأحاديث الكاذبة الى الله على انها وحي ونبوة، فانهم وان ذلّوا، ولكن ليس بتلك السرعة التي تقطع وتينهم ولا تمهلهم أبداً.

هناك فرق بين مدعٍ لم تثبت دعوىٰ نبوته وبين نبي ثبتت نبوته وأخذت مكانها بين الناس. فلو أراد نبي ان يكذب على الله اقترن افتراؤه بسقوطه القطعي، اما لو أراد متنبيء ان يكذب فسوف يذل تدريجياً. وهذا هو الفرق بين افتراء النبي وفرية المتنبي. ولهذا، فلو نسب قادة وزعماء فرقة ضالّة كالبهائية أشياء الى الله تعالى، فانهم وان افتضح أمرهم وذلوا، لكن الغضب الالهي العاجل غير المغتفر لم يأخذهم فوراً، ووتينهم لم يقطع، ويمينهم وقوتهم لم تؤخذ بسرعة بل أمهلوا عدة أيام من باب **﴿ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثماً ولهم عذاب مهين﴾**(٢) فقد أمهل هذا الفريق لأن هناك فرقاً بين فرية المتنبئين وافتراءات الأنبياء؛ ففي افتراء مدعي النبوة الكذابين هناك مجال للامهال، اما في فرية النبي فلا مجال للامهال ابداً. وافتراء المدعي حاله حال الذنوب الكبيرة التي يمهل فيها الله سبحانه كالمهل التي يمنحها الله للكفار الآخرين. ولذا قال

---

(١) سورة الحاقة، الآيات (٤٤و٤٥و٤٦).
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٧٨).

رسول الله ﷺ انه لو كان هذا الكتاب افتراء على الله فانه سيكون مشمولاً بغضب الله الذي لا يغتفر ولا يستطيع اي أحد منهم ان ينجيه منه ﴿**قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً**﴾، أي ليس بوسعكم ان تمنعوا عني غضب الله ولا ان تحولوا دون تنفيذ ارادته؛ فأمام ارادة الله لا يتهيأ لغير الله ان يعمل شيئاً ولا ان يقف امام المقتضي ويمنع الارادة الالهية عن حد الاقتضاء. اي لا أنكم قادرون على ايجاد المانع، ولا بوسعكم سلب المقتضي، بل ان ارادة الله تقترن بالتحقق فـ﴿**لله جنود السماوات والأرض**﴾. فاذا كان جميع موجودات العالم جنوداً لله، واذا كان جميع جنود الله مأمورين بتنفيذ الأوامر الالهية وتحقيق ارادته، فان الله تعالى لو أراد أمراً، لا يقف حائل دون اقتضائه ولا مانع دون وقوعه ولهذا قال ﴿**قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً**﴾.

فأنا لا أفتح فمي بالافتراء على الله أبداً، لأن هذا العمل مقترن بالغضب الالهي العاجل و﴿**هو أعلم بما تفيضون فيه**﴾ فالله أعلم بما تفيضون وتغوصون فيه من الباطل؛ فان الانسان المبطل يفيض في الطبيعة، اما الانسان المحق فيتحرر منها لأن الحق شامخ، ولهذا فالمحق في صعود ﴿**اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾[1]، اما المبطل فيغوص في الطبيعة. ان من يغوص في الأوحال يكون طريق الصعود والترقي في وجهه مغلقاً. والتعبير القرآني في حق المبطلين هو قوله تعالى ﴿**ذرهم في خوضهم يلعبون**﴾[2].

وفي الآية مورد البحث ـ أيضاً ـ قال عن الذين يتعاملون مع الوحي

---

(١) سورة فاطر، الآية (١٠).
(٢) سورة الأنعام، الآية (٩١).

باستكبار انهم يفيضون في الباطل؛ فيطلق على الانحدار من الأعلى الى الأسفل هبوطاً وهطولاً وفيضاً او افاضة. فتارة يهبط شيء من الأعالي ويصل الانسان. . ويظهر من عالم الغيب الى عالم الشهادة. . فهذا فيض ممدوح.

وتارة يتنزل من عالم الطبيعة والانسان الى عالم الحيوانية فهذا فيض مذموم. . فتارة يهطل المطر من أعلى وتارة يقع الانسان في البئر ـ الحالتان تشتركان في مفهوم الفيض والهطول والهبوط، الا ان لكل منهما حكماً خاصاً (معيناً) فهطول المطر من السماء يبعث على اخضرار المزارع والمراتع والبساتين. أما السقوط في قعر البئر فهو الهلاكة، ولهذا قال: يا أيها الذين تفيضون في الباطل: ﴿**هو أعلم بما تفيضون فيه**﴾.

اذن، كانت خلاصة الاحتجاج الأول انه قال لو أنني افتريت على الله لابتليت بغضبه وسخطه ابتلاء لستم بمخلصي ومنقذي منه، ولذا فلست أفتري أبداً.

أما الاستدلال الثاني فهو قوله: ﴿**كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم**﴾[1] اي ان الدعوى التي ترافقها شهادة الحق لن تكون باطلة أبداً، فان ادعيت النبوة فقد شهد على نبوتي أصدق الشاهدين عليها. . انا أقول انني رسول الله، والله سبحانه يقول انني رسوله ويشهد على صدق دعواي. انا أدعي النبوة والله يشهد ان دعواي حق. انا أقول انني رسول الله، والله يشهد اني رسوله.

اذا انضمت الشهادة الى الدعوى سمعت الدعوى، واذا اقترنت الدعوى بالبينة العادلة وجب قبولها، وهنا يقول الرسول: ﴿**كفى به شهيداً**

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (٨).

بيني وبينكم﴾ انا ادعي النبوة وأنتم تنكرونها.. انتم تقولون بعدم وجود وحي ونبوة، وانا أقول بوجودهما انا أقول وادعي انني نبي الله ورسوله، وأنتم تنكرون ذلك عليّ؛ فاذا كان الله سبحانه يشهد على صدق ادعائي فان دعواي مسموعة ويجب عليكم الرضوخ والقبول، فقد شهد الله اني رسوله، وشهد الله ان الوحي والنبوة حق و﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾. ان شهادة الله تتقرر بعدة طرق، وهي ليست بمعنى ان الله يعلم، لأن الشهادة التي بمعنى العلم ليست وثيقة على شرعية الادعاء. فلو علم الشاهد العادل ان الحق مع من، فان مجرد علمه واطلاعه هذا لا يحل المشكلة، وعلم العادل لا ينهي اشكال القضية والدعوى؛ بل ان الشهادة التي يؤديها ويدلي بها الشاهد هي التي تنهي وتحسم النزاع.

ان مقام اداء الشهادة هو الذي ينهي المشكلة، وليس مقام تحملها. اذن، فشهادة الله هنا ليست بمعنى ان الله تعالى يعلم انني رسول؛ فهذا ادعاء آخر يضاف الى الادعاء الأول؛ فان قال النبي انني رسول الله وادعى النبوة ثم قال بعد ذلك: والله يعلم انني رسوله، فهذا القول الثاني لا يعد بينة على الادعاء الأول، بل هو ادعاء ثانٍ بحاجة الى بينة أيضاً. فان قول رسول الله ان الله شاهد بمعنى انه عالم لا يحل الاشكال ولا يقنع المنكِر، لأن ذلك بدوره بحاجة الى بينة أخرى ويقوم الى جانب الادعاء الأول. اذن، فالمقصود من قوله: ﴿كفى به شهيداً﴾ هو ان الله شاهد ولا يحتاج الى شاهد ودليل آخر؛ اي ان الله شهد انني رسوله بمعنى انه ادى الشهادة وليس تحملها فقط. فهي ليست بمعنى ان الله يعلم فقط بل انه سبحانه شهد ـ في مقام الفعل ـ انني رسول. فهذه الشهادة اذن ناظرة لمقام الاداء لا مقام التحمل والعلم.

تنبيه: ان شهادة الله تتقرر عن طريقين:

الأول: بأن يقول باللفظ: انك نبي.

والثاني: ان يؤدي عملاً من شأنه ان يكون سنداً ووثيقة على نبوة الرسول ﷺ؛ ولهذا أنجز الله تعالى الفعلين معاً، فقال للرسول ﷺ باللفظ انه نبي وشهد بأنه خاتم الأنبياء ﷺ؛ كما شهد له - بالفعل - انه نبي. حول شهادة القرآن اللفظية هناك آيات كثيرة تصرح برسالة النبي الأكرم ﷺ؛ كقوله: **﴿يس * والقرآن الحكيم * انك لمن المرسلين﴾**[1] فهذه الكلمات هي كلمات الله، ومتكلم هذه الكلمات هو الله؛ فالله شهد بأن حامل هذه الكلمات نبي. كما قال - في سورة النساء - **﴿لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾**[2] ولعل هذه الشهادة (الثانية) شهادة عملية ازاء الشهادة اللفظية التي وردت في سورة "يس" والسور الأخرى كقوله: **﴿فاستمسك بالذي أوحي اليك﴾**[3]، وكذلك قوله في مخاطبته **﴿يا أيها النبي﴾** و**﴿أيها الرسول﴾** فهي شهادات لفظية على رسالته ﷺ.

اذن. شهد الله - لفظاً - ان الذي أتى بالقرآن رسول من قبله، لأن ألفاظ القرآن هي ألفاظ الله وكلماته؛ لكن هذه الشهادة لا تحسم النزاع، لأن منكري الوحي والنبوة يعتبرون مثل هذه الشهادات من قبيل اتحاد الشاهد والمدعي، ويقولون انك نفسك تدعي النبوة وتدعي بعد ذلك، ان الله أخبرك بأنك نبي ورسول من قبله. وعلى هذا فالشهادة اللفظية لوحدها لا تحل المشكلة، لأن الشهادة اللفظية بذاتها تعتمد على الشهادة الأخرى، أي

---

(١) سورة يس، الآيات (١و٢و٣).
(٢) سورة النساء، الآية (١٦٦).
(٣) سورة الزخرف، الآية (٤٣).

العملية.

فبالشهادة العملية.(او الفعلية) يثبت ـ اولا ـ ان القرآن هو كلام الله، وبعد ذلك يثبت بالشهادة القولية (او اللفظية) ان هناك آيات في القرآن الكريم من قبيل ﴿يا أيها النبي﴾ و﴿ايها الرسول﴾ و﴿انك لمن المرسلين﴾ أو ﴿فاستمسك بالذي أوحي اليك﴾ وغيرها مما يدلل صراحة على نبوّته ﷺ.

بناء على هذا، فأي استدلال على الشهادة اللفظية لا بد ان تسبقه الشهادة الفعلية؛ اي ان الله يشهد ـ في مقام الفعل ـ بأنه رسول، وبعد ان تثبت شهادته على أصل الوحي والنبوة وان القرآن كلامه عز وجل، بعد ذلك يستشهد بآيات القرآن ان الله سبحانه قدم شهادة لفظية على نبوته ورسالته ﷺ.

اما الشهادة التي أبرزها الرسول ﷺ عند ادعائه الوحي والنبوة وأقامها امام منكري الوحي والرسالة آنذاك فهو قوله وادعاؤه انه مرسل من قبل الله وان كان على المدعي اقامة البينة، فالقرآن بينته، لأنه كلام من بعثه. كلام من جاءهم به من عنده. فلسان حاله يقول: ان كنتم أهل معرفة بالكلام فهذا كلام الله معي، وان كنتم تفرقون بين السحر والمعجزة لعلمتم ان هذا معجزتي، وان كنتم تشكون في ذلك فاني أتحداكم وأدعوكم للمنازلة وان تأتوا بمثل هذا الكتاب؛ فلو اجتمع كل العلماء مع بعضهم فهم عاجزون عن الاتيان بمثل هذا الكتاب. فان لم تقدروا على الاتيان بمثل هذا الكتاب فاعلموا انه معجزة اذن، وانه كتاب الله وكلامه. بما ان كتاب الله بيدي فهذه المعجزة اذن وثيقة صدق على مقولتي، لأن المعجزة لا تظهر الا على يد نبي. فهذه هي الشهادة الفعلية والعملية لله سبحانه على نبوة النبي الأكرم

محمد ﷺ. فالله سبحانه ـ بارساله الملك وبانزاله القرآن عليه ـ شهد ـ في مقام الفعل انه نبي ومرسل من عنده. فارسال الوحي شهادة عملية على نبوته ﷺ وان كنتم تقولون ان هذا الكتاب سحر فاجمعوا سحرة العالم ليأتوا بمثله. وان كنتم تقولون ان هذا القرآن هو من قبيل العلوم الغريبة فادعوا أصحاب العلوم الغريبة اذن ليأتوا بمثل هذا القرآن وان كنتم تقولون انه من نسجي وحبكي فادعوا كل العلماء الآخرين لينسجوا على منواله ان استطاعوا، فان عجزتم عن كل هذه الأعمال ولم تستطيعوا ان تأتوا بمثله عن أي طريق، ذلك انه كلام الله الذي ليس كمثله شيء، فحق ان لا يكون مثل كلامه شيء، فلترضخوا ولتقبلوا اذن ان الله قد شهد ـ بالفعل ـ انني رسوله وأثبت ـ بالعمل ـ انني نبي ﴿وكفى به شهيداً بيني وبينكم﴾.

فان ثبت بهذا الاستدلال ان القرآن كلام الله، وشهد الله بالفعل على رسالة الرسول، فعند ذلك يتقرر الاستشهاد القولي والاستدلال بالشهادة القولية مضموناً. أي يمكن القول بما انه ثبت ان القرآن كلام الله، ووردت الشهادة اللفظية في القرآن على رسالة الرسول، فان الله تعالى قد شهد على نبوته قولاً وفعلاً. وتكون الشهادة القولية امتداداً للشهادة العملية كما اتضح. وبهذا التحليل يثبت ادعاء الوحي وينهار انكار منكري الوحي أيضاً لأن حجتهم تنهار وتبطل. وما ورد في سورة النساء من قوله ﴿لكن الله يشهد بما أنزل اليك﴾ يصدق على الشهادة العملية أيضاً؛ اي ان الله عمل ما لا يمكن لأي أحد انجازه. أرسل كتاباً ليس بمقدور أحد الاتيان بمثله، إذ لو كان الاتيان بمثله أمراً عادياً وممكناً لأتى به الآخرون. واذا كنت أنت الأميّ قد جئتهم بهذا الكتاب، اي لو كان القرآن ناشئاً من عالم الامكان ومترشحاً من عقل عالم عادي، فليجمع الآخرون العلماء أيضاً ويتظاهروا ويظاهر

بعضهم بعضاً ليأتوا ـ ان استطاعوا ـ بسورة من مثله. وبما انهم لا يستطيعون وليس بمقدورهم ذلك، فيتضح اذن ان هذا الكتاب هو كلام الله، اي ان ارسال القرآن فعل خارج من قبل الله سبحانه وشهادة فعلية منه ان محمد بن عبدالله ﷺ رسول **﴿لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه﴾**.

﴿وكفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ ليس فقط بمعنى ان الله شاهد بل ان منزلي الوحي والمبشرين به شهداء أيضاً. الذين يشهدون الوحي ويفهمونه ويفرقون بينه وبين العلوم الأخرى يشهدون بذلك أيضاً **﴿والملائكة يشهدون﴾**، فهم شاهدوا وحيه ونبوته. هؤلاء الملائكة ـ وكما يشهدون على وحدانية الحق ـ فهم شهود على رسالة النبي، يقول تعالى في سورة آل عمران: **﴿شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾**[1].

ان شهادة الله القولية هي في طول شهاداته الفعلية، اي بعد ان ثبت ان القرآن وحي وكلام الله نقول: ان في القرآن شهادات قولية على ان الله واحد **﴿لا شريك له﴾**. أما قبل هذه الشهادة القولية فهي الشهادة الفعلية، كما ان الشهادة الذاتية تأتي قبل الشهادة الفعلية؛ لأن الألوهية تشهد بالوحدانية ولا تقبل الثنوية. الحقيقة المحضة لا ثاني لها. وغيرته لا تبقي في العالم غيرا، اذن فمعنى **﴿شهد الله﴾** ليس من باب اتحاد المدعي والشاهد غير المسموع، بل من باب «طلوع الشمس دليل على الشمس» فما هو بيّن مشهود بالذات. اما شهادة الآخرين على عدم تعدد الآلهة فهي على أساس برهان «صِرف الشيء لا يتثنى ولا يتكرر» وبرهان «بسيط الحقيقة كل الأشياء» أي انه لا تتفق الألوهية مع الثنائية مطلقاً، فالملائكة شهداء وحدة الحق، وكذلك

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨).

الراسخون في العلم، وقد ذكرت كيفية شهادة الملائكة والراسخين في العلم في المباحث المتعلقة بالتوحيد.

اما المطروح هنا فهو قوله في سورة النساء من ان الملائكة تشهد برسالة النبي محمد ﷺ. الملك الذي يتنزل على قلبه يدلي بالشهادة العملية بنبوته: ﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك﴾[1]. فان لم يكن لدى الآخرين أعين يبصرون بها الملائكة عياناً أو قلوباً يدركونهم بها، فانهم لا يعرفون طريق تعيين الشاهد. يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام أثناء تغسيله الجسد المطهر لرسول الله ﷺ: «ما فارقت سمعي هينمة الملائكة»[2]. فذلك الذي يعرف الملك.. وذلك الملائكي الذي مشى في طريق الملائكة وعرفهم، مطلع على أصل شهادة الملائكة وكيفية ذلك. وكما ورد في سورة آل عمران حول توحيد الله من ان الملائكة وأولي العلم يشهدون، فقد جاء في آخر سورة الرعد أيضاً شهادة بعض أولي العلم برسالة الرسول ﷺ، فقال: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾[3].

انا أدعي النبوة والكفار ينكرونها، وفي محكمة الخصومات ما يبعث على البث في الأمر المشكوك فيه والمردد هو الاقرار او اليمين او البينة او علم القاضي.

فان ثبت الدليل القطعي خرج الموضوع المتنازع عليه من دائرة الشك والترديد بين النفي والاثبات وصار محكماً. فالقضاء هو الحكم القطعي

(١) سورة الشعراء، الآيتين (١٩٣، ١٩٤).
(٢) نهج البلاغة/ فيض خ١٨٨.
(٣) سورة الرعد، الآية (٤٣).

والمبرم، وانما سميت القضية قضية لأن العقل يحكم بثبوت المحمول للموضوع فيها. وهذا الحكم هو القضاء ولذا سموه قضية؛ اي ان نسبة المحمول الى الموضوع خرجت بعد الحكم من حالة الشك والترديد.

ففي محكمة التنازع والخصومة بين مدعي الوحي ومنكريه، يشهد الله سبحانه بنزول الوحي على الرسول الكريم ﷺ كما يشهد بذلك من عنده علم الكتاب. أي ان الله هو الشاهد بين المدعي وبين المنكرين، وقد شهد بذلك شهادة قولية وشهادة فعلية.

أما الشهادة الفعلية فهو انه اجرى كلامه على لساني وأعطاني كتابه بيدي. وان كنتم خبراء البيان وفصحاء الكلام فانظروا وتفكروا في هذه المعجزة، ولا تظهر المعجزة الا على يد نبي وتقترن بالتحدي، وتختلف عن الكرامة اختلافاً اعتبارياً كما تمتاز عن العلوم الغريبة امتيازاً أساسياً. اذن فالله شهد شهادة فعلية ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ شهد بذلك أيضاً، وذلك هو الفرد الممتاز من أولي العلم، ومن شهد بوحدانية الله ونبوة رسوله، وقد وردت روايات كثيرة في ان المقصود منه «مولى الموحدين وأمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام» ـ روحي وأرواح العالمين له الفداء ـ فهو أول من آمن برسول الله؛ وهذه السورة نزلت في مكة أيضاً. ولم يكن في مكة ـ آنذاك ـ انسان كامل عنده علم الكتاب ليشهد بنبوة رسول الله ﷺ الا علي بن أبي طالب عليه السلام الذي هو بمنزلة نفس النبي ﷺ فعلي عليه السلام يشهد برسالة الرسول، ورب عليّ يشهد. والملائكة يشهدون. وهؤلاء هم الذين شهدوا بوحدانية الله. وهم أنفسهم يشهدون برسالة النبي. وكل هذه الشهادات انما هي في طول شهادته عز وجل و﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾.

نسأل الله تعالى ببركة القرآن الكريم ان يجعلنا شاهدين على وحدانية

الله ونبوة رسوله ﷺ . وان نكون مع الشهداء والصديقين . وان يجعل قلوبنا جميعاً أوعية للمعارف الالهية الحقة .

وأن يختم امورنا بالخير والسعادة غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الدرس التاسع عشر

شهادة الله القولية والعملية على رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

في بيان المضمون المشترك لسور ﴿حم﴾ في القرآن الكريم، اتضح الى حد ما الوحي وضرورته وامتياز الوحي والنبوة عن العلم والعقل، والفرق بين المعجزة والسحر والشعوذة والعلوم الغريبة الأخرى. ووصلنا في البحث السابق الى هذه النتيجة وهي انه في هذه السور يثبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ادعاءه بالرسالة عن طريق شهادة الله عز وجل، فهو يقول انه رسول الله، ومنكروا الوحي ينكرون ادعاءه، ويستشهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان بينته العادلة هو الله تعالى: **﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾**(1).

في سورة الاحقاف، يقدم رسول الله، الله شاهداً: **﴿ام يقولون افتراه**

(1) سورة الرعد، الآية (٤٣).

قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾(1). وقد اتضح فيما مر معنى شهادة الله، وتقسيم شهادة الله الى شهادة قولية وأخرى فعلية، وان الله قد شهد لرسوله بالقول عندما قال: ﴿انك لمن المرسلين﴾(2) كما شهد له بالفعل؛ وكانت شهادته «عز وجل» الفعلية على رسالته ﷺ بإرساله الملائكة اليه وانزاله الكتاب عليه.

وقد أوضحنا أيضاً فيما مر ان الشهادة المطلوبة أثناء الاحتجاج هي الشهادة في مقام الفعل والاداء لا مقام التحمل والعلم فقط. واتضح أيضاً أن الشهادة قسمان؛ قولية وفعلية، وهما ليستا في عرض بعضهما بل في طول بعضهما؛ فلو ادعى الرسول ﷺ النبوة ثم قال بعد ذلك ان الله قال ﴿انك لمن المرسلين﴾ فهذه ليست ببينة بل هو ادعاء جديد بحاجة الى دليل آخر وانما تأتي الشهادة القولية لله عز وجل بنبوة الرسول ﷺ بعد شهادته العملية اي بعد ان ثبت ان القرآن وحي ومعجزة وكلام الله. آنذاك يمكن التمسك بآيات القرآن، والقول ان الله قال في القرآن ﴿انك لمن المرسلين﴾ وكذلك اتضح ان ليس الله وحده يشهد برسالة النبي ﷺ بل ﴿والملائكة يشهدون﴾ قال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا﴾(3).

كذلك تبين ان ليس الملائكة وحدهم يشهدون برسالته ﷺ بل وأولوا العلم وعارفوا الوحي وخبراء كلام الله كذلك، فأولئك يشهدون برسالة الرسول ﷺ أيضاً، كما ورد في آخر سورة الرعد: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾.

---

(1) سورة الاحقاف، الآية (8).

(2) سورة يس، الآية (3).

(3) سورة النساء، الآية (166).

فالله شاهد انني نبي، اي في مقام الادلاء بالشهادة لا خصوص مقام التحمل. فمعنى ان الله شاهد ليس انه يعلم فحسب، لأن هذا هو مجرد الاحاطة بالغيب الذي يزيد الادعاء مجهولية، بل ان المقصود من ان الله تعالى شاهد، هو شهادته في مقام الاداء انني رسول، لأن كلامه بيدي ويسمع من لساني فنداؤه يسمع من لدني، ويصل اليكم ويبلغكم من قبلي، وهذا الكتاب هو عين كلماته وقد شهد برسالتي من خلال ارساله، وهذا هو نفس مقام اداء الشهادة لا صرف تحمل الحادثة وأصل الموضوع.

﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ ذلك الانسان الكامل المطلع على جميع الكتاب، وبما انه يرى الوحي ويعرف الوحي، يشهد ـ أيضاً ـ برسالة الرسول ﷺ. فذلك الانسان الكامل هو القائل «لم أكن لأعبد ربا لم أره وانما لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان»[1]. ذلكم الانسان الكامل هو الامام علي بن ابي طالب ـ سلام الله عليه ـ الذي يرى الله سبحانه بالقلب والروح، ويرى كلامه بالروح ويدرك كتاب الله بالروح أيضاً، فهو الذي ﴿عنده علم الكتاب﴾. فأمير المؤمنين عليّ ـ عليه أفضل صلوات المصلين ـ يسمع ويرى. عليٌّ ـ روحي وأرواح العالمين له الفداء ـ يرىٰ قائل هذه الكلمات بالروح ويسمع أحاديثه بالقلب، ويدرك كتابه بالفؤاد. فلدىٰ عليّ ـ اذن ـ علم الكتاب، وهو الشاهد برسالة النبي محمد ﷺ. وطبقاً لبيان أستاذنا العلامة السيد الطباطبائي ـ قدس سره ـ فإن الذي ﴿عنده علم الكتاب﴾ هو أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ـ عليه أفضل صلوات المصلين.

---

(١) نهج البلاغة للفيض، خ ١٧٨.

تقول روايات الامامية ان هذا الانسان الكامل الذي ﴿عنده علم الكتاب﴾ هو الامام علي عليه السلام . هذا الانسان المتكامل الذي يرى المتكلم بالروح وعين القلب ويسمع كلامه باذن القلب، يشهد برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً والانسان الوحيد الذي كان له هذا المقام في مكة هو علي بن أبي طالب عليه السلام ، الذي كان كبقية الملائكة يشهد ساحة الرسالة وقمة وحدانية الله سبحانه.

فالله تعالى يعتبر الانسان الكامل حاضراً مع الملائكة في جميع سوح المعارف. عن حضورهم في ساحة التوحيد، وبعد قوله ﴿**شهد الله انه لا إله الا هو**﴾[1] قال ﴿**والملائكة وأولو العلم**﴾. فالملائكة وأولو العلم ـ وهم الناس الكاملون وأولياء الله ـ يشهدون بوحدانية الله.

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿**لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا**﴾. فالملائكة أنفسهم، الذين لهم دور في ساحة الرسالة، ويأتون بالوحي فيتنزلون به على قلب الرسول.. أولئك الذين يودعون الأمانة الالهية في قلب أمين الله.. يشهدون أيضاً ﴿**نزل به الروح الأمين * على قلبك**﴾[2] . هذا القلب موضع الملائكة، فهم ينزلون في القلب حيث لا مكان للشك والتردد هناك يقول الشاعر الايراني (ما ترجمته):

«مشهد القلب ليس محلاً لحديث الأغيار　　　فحيث يخرج الشيطان يدخُل المَلَك»

اذا غادر الشيطان ـ داخلياً كان أم خارجياً ـ حرم القلب، ولم يلجه الا

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨).

(٢) سورة الشعراء، الآيتين (١٩٣، ١٩٤).

ذكر الحق واسم الحق، فان الملائكة تتنزل فيه. تتنزل الملائكة على هذا القلب لتنزل على رسول الله الكتاب بجميع أبعاده، وتوضح لتلاميذ النبي ﷺ جوانب المعارف القرآنية: **﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾**(١).

وعلى هذا، فالملائكة تشهد برسالة النبي ﷺ كما ورد في سورة النساء، وكذلك الانسان الكامل يشهد، علي ما جاء في آخر سورة الرعد: **﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾**.

ينبغي ان تكون الشهادة عن علم. نقل عن رسول الله ﷺ مرسلاً «الا بمثل هذا فاشهد أو دع»(٢) وأشار الى الشمس. اي أن الشاهد يجب ان يرى الموضوع بوضوح الشمس ليشهد عليه. وها قد رأى أمير المؤمنين عليه السلام شمس الوحي بكامل وجوده، وشهد به. جاء في نهج البلاغة «فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير ان يكونوا رأوه»(٣) وانما أمرنا ان نقول «لبيك» عند قوله تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** دلالة على ان المتكلم يتكلم الآن الينا ويتحدث معنا أيضاً. وقوله تعالى **﴿وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾**(٤) يدلل على ان الله يتحدث معكم وليس مجرد ان آياته تتلى عليكم، ولهذا لم يقل «حتى تتلى عليه آيات الله» أو «حتى يقرأ عليه كتاب الله». فتارة نقول ان شخصاً يتلو القرآن، فهو يقرأ

---

(١) سورة فصلت، الآية (٣٠).

(٢) الشرائع/ كتاب الشهادة.

(٣) نهج البلاغة للفيض، خ ١٤٧.

(٤) سورة التوبة، الآية (٦).

كتاب الله للآخرين، وتارة نقول ان هذا هو صوت الله وكلام الله، وحديث الله، وها هو الله يتحدث الينا.

ورد في نهج البلاغة ان جميع أسرار العالم ومعارف وأخبار الماضين وأحداث اليوم والمستقبل كلها موجودة في القرآن الكريم، «الا أنكم يجب ان تستنطقوه لأنه القرآن نفسه لا ينطق، وانا الذي أنطق القرآن. انا الذي استنبط القرآن وأنطق به. انا الناطق الالهي. انا ترجمان القرآن. انا ناشر الآيات»(١).

نعم، ان الامام علي عليه السلام شاهد الوحي وشارحه، انه شاهد النبوة وشارح الرسالة فـ«هو القرآن الناطق» «ولكني أنبئكم بما فيه»(٢).

هذه هي شهادة الانسان الكامل التي هي كشهادة الملائكة في ظل شهادة الله. الا ان هاتين الشهادتين ليستا في عرض وموازاة بعضهما بل هما في طول بعضهما، ولهذا قال في سورة الاحقاف ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ بعد قوله ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾. فمن قوله و﴿هو الغفور الرحيم﴾ يتضح ان بعض الأعمال التي يؤديها الانسان صحيحة وبعضها الآخر خاطىء، فليست كل الأعمال التي يؤديها الانسان صحيحة، او بالعكس بأن تكون كلها غير صحيحة؛ بل أن بعضها صائبة وصحيحة، والبعض الآخر منها خاطىء وغير صحيح. وعلى هذا، فلا بد من وجود أصل يرجع اليه في التقييم لتحديد العمل الجيد من الرديء، والأصل الذي يحدد أساس التقييم هو الوحي، فهو الذي يحدد الخطأ من الصواب فمن اختار الأعمال الصالحة نما وزكى، ومن اختار الأعمال السيئة سقط وهوى.

---

(١) نهج البلاغة للفيض، خ ١٤٧.
(٢) نهج البلاغة للفيض، خ ١٤٧.

وهنا يأتي دور الرحمة والمغفرة الالهية؛ ولذا قال: ﴿**وهو الغفور الرحيم**﴾ فان كان الله غفوراً ورحيماً فهذا يعني ان بعض أعمال الانسان خطايا، واذا كانت بعض أعمال الانسان خطايا، فالوحي هو الذي يحدد ما هي الخطايا منها وما هي الحسنات. ان الوحي هو الذي يميز بين الحسن والقبيح ﴿**ليميز الله الخبيث من الطيب**﴾[1]. ولهذا ذكّر بهذين الاسمين المباركين ﴿**الغفور الرحيم**﴾ في الآية التي تذكر ضرورة الوحي والشهادة على حقانية الوحي والاستدلال عليها، ثم أعقبه بقوله: ﴿**قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان أتبع الا ما يوحى اليّ وما انا الا نذير مبين**﴾[2].

لأن منكري الوحي كانوا تارة يقولون: ان ما أتيت به سحر؛ وتارة يقولون انك نسجت مجموعة من الأكاذيب ونسبتها الى الله، فكلامك وكتابك لا قيمة له و﴿**لو شئنا لقلنا مثل هذا**﴾[3]، وان كنت صادقاً ان هذا وحي وان الملك ينزل عليك فلينزل علينا اذن لنعرف صدقك. لهذا كان رسول الله ﷺ يقول في جوابهم ان كان الموضوع سحراً ـ كما تدعون ـ فيمكنكم الاتيان بمثله، وان تقولون اني افتريته ﴿**فلا تملكون لي من الله شيئاً**﴾ ان افتريته، وقد مر بحثه والاستدلال عليه، وان كنتم تطلبون بينة وشاهداً فالله شاهدي والانسان الكامل علي عليه السلام. وان تقولون ان باستطاعتي تغيير النظام بسبب نبوتي والوحي اليّ، فانما انا بشر كبقية الأنبياء نستمد من الوحي فقط. ولو أراد الله ان آتي بشيء على سبيل الاعجاز وخرق

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٣٧).

(٢) سورة الاحقاف، الآية (٩).

(٣) سورة الأنفال، الآية (٣١).

العادة فعليّ ان أستأذن من مبدأ القدرة اي الله سبحانه. وان أردت ان أحيط علما بشيء في العالم فعليّ ان استمد من مبدأ العلم المحض، فلست ـ بذاتي ـ عليماً كي أكون مطلعاً على جميع أسرار العالم، ولست ـ بذاتي ـ قديراً كي أستطيع اداء كل اقتراح تتقدمون به، فلست بقادر على اجابة كل ما تقترحونه استناداً الى ارادتي وقدرتي، فان وصلني الأمر من مبدأ القدرة بأن أؤدي شيئاً أديته.

فللرسول القدرة على اجراء التغيير في كل نظام الوجود سواء كان في السماء أو الأرض او ما بينهما مما هو ليس محال عقلاً ـ وان كان محال عادة ـ بالاستمداد من قدرة الحق، ويتجلى الله القدير في ذلك الاعجاز؛ فقد تجف البحار وتكون كالطرق الترابية اليابسة ﴿**فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً**﴾[1] وذلك عندما يأتي النداء الى موسى النبي ان يضرب بعصاه البحر فتظهر لهم الطرق اليابسة من تحت الماء، ويعمل موسى وفق الأمر الالهي، فيزول البحر وتظهر مكانه الطرق اليابسة الجافّة. وقد يرد الأمر من الله تعالى ﴿**يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم**﴾[2] فتبرد النار فوراً بعد ان كان المشركون ومنكروا وحدانية الله قد أمروا باحراق ابراهيم للمحافظة على آثارهم المشؤومة ونصرة دينهم الخرق ﴿**حرّقوه وانصروا آلهتكم**﴾[3]، ولكن انتصر الأمر الالهي الصادر لألسنة النار ونجّي ابراهيم. فهذا ظهور قدرة الله في النار.

وقد نرى تسخير الفضاء في اعجاز النبي سليمان، فالرياح التي

---

(١) سورة طه، الآية (٧٧).

(٢) سورة الأنبياء، الآية (٦٩).

(٣) سورة الأنبياء، الآية (٦٨).

﴿غدوّها شهر ورواحها شهر﴾[1] لا تستغرق مسيرتها بين يدي سليمان أكثر من يوم أو ليلة واذا كانت المسألة تتعلق بالكواكب والاجرام السماوية فستكون بالاعجاز الالهي مقهورة للنبي الأكرم محمد ﷺ، فباشارة من اصبع خاتم الأنبياء ينشق القمر الى نصفين: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾[2].

ولكن ما لم يرد الله وتتجلى قدرته بيد الرسول، فليس بمقدور الرسول ﷺ شيء في مجال الفعل والتحريك ﴿انما انا بشر مثلكم﴾[3].

ولو شاءت قدرة الله فعل شيء فان ساحة الوجود والحياة والممات وشؤون عالم الامكان المتعلقة بالفعل الجديد، كلها ستكون في نطاق الاعجاز الفعلي للنبي او الأنبياء عليهم السلام.

وفي مسألة المعرفة والعلم أيضاً، لولا استمداد الرسول ﷺ من علم الله العليم بالذات، لكان كبقية البشر غير مطلع على العلوم الغيبية والاسرار الخفية. اما لو استفاد من مجرى علم العليم بالذات، وأراد الله العليم بالذات ان يتجلى على قلب ولسان الرسول ﷺ كمظهر علمي.. عندها يحظى الرسول بعلم الغيب ويتمتع بالاطلاع على تلك الأسرار فان كانت هناك مصلحة قال، وان لم تكن سكت.

في جواب أولئك الذين كانوا يتقدمون باقتراحات متعنتة لا مسؤولة، كان يقول رسول الله ﷺ وبأمر من الله (تعالى): ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾. فالوحي والنبوة مطروحة في العالم

---

(١) سورة سبأ، الآية (١٢).

(٢) سورة القمر، الآية (١).

(٣) سورة فصلت، الآية (٦).

كسنّة إلهية قديمة وذات سابقة لا تتغير، ولن يفارق الوحي المجتمعات البشرية أبداً، فمنذ وضع الانسان قدمه على هذه الأرض وهو يوجّه بقيادة الأنبياء عليهم السلام ﴿ما كنت بدعاً من الرسل﴾، ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ ومن جانبي انا، لست مطلعاً على مصيري ولا عارفاً بما يجري عليكم، فلا أدري ما يفعل بي ولا أدري ما يفعل بكم، بل ان الوحي هو الذي يخبرني ويطلعني على كل ذلك، لأنني غير مطلع على أسرار العالم، ولكن ﴿ان اتبع الا ما يوحى اليّ﴾، ففي ظل الوحي اطلع على مصيري، وكذلك على ما يجري عليكم.

من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولده وجميع شأنه لفعلت، ولكني أخاف ان تكفروا فيّ برسول الله، ولكني أفضيه الى الخاصّة من أوليائي، لأن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها»[1].

فان كان علي عليه السلام عالماً بجميع هذه الأسرار فباذن من الله، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فهو عالم بجميع هذه الأسرار بإذن الله تعالى. يقول تعالى: ﴿ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك﴾[2] فتعابير مثل ﴿نوحيها إليك﴾[3] و﴿نوحيه اليك﴾[4] و﴿تلك من انباء الغيب﴾ و﴿ذلك من انباء الغيب﴾ تصرّح: اننا اطلعناك على علم الغيب لكن لا يعرف الرسول صلى الله عليه وآله الغيب من نفسه.

---

(١) نهج البلاغة للفيض، خ ١٧٤.
(٢) سورة يوسف، الآية (١٠٢).
(٣) سورة هود، الآية (٤٩).
(٤) سورة آل عمران، الآية (٤٤).

وعلى حد تعبير سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي ـ رضوان الله تعالى عليه ـ ان الله تعالى قال ﴿ما كنت تدري ما الكتاب﴾[1] ولم يقل «وما دريت» او «وما تدري» وقال ﴿ما كنت تدري﴾؛ وهذا التعبير يستخدم عندما يراد تفهيم انك لم تكن تعلم ما تعلم من عند نفسك. اي انك وان كنت عالماً لكن علمك ليس منك، فلست من يعلم من عند ذاته. ان من يعلم بذاته هو الله؛ بل اننا علمناك ﴿وعلّمك ما لم تكن تعلم﴾[2]. وان ورد في موضع آخر من القرآن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنّي السوء﴾[3] فهو ليس بمعنى نفي علم الغيب عنهم عليهم السلام، لأن آيات القرآن الكريم تدلل صراحة ان لدى الرسول علماً بالغيب ﴿ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك﴾ او ﴿نوحيها اليك﴾؛ فهذا يبين ان الرسول صلى الله عليه وآله مطلع على الغيب ويعرف أسرار الأنبياء السابقين كعلم بالغيب. وتوجد الروايات الكثيرة حول ان الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام يعلمون الغيب. فهم يعلمون الغيب باذن الله. فان كان القرآن يحدثنا عن عيسى عليه السلام انه كان يقول: ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون﴾[4] فهذا علم بالغيب. والرسول صلى الله عليه وآله مهيمن على الأنبياء، وكتابه مهيمن على بقية الكتب، فلديه جميع تلك العلوم الغيبية من طريق أولى، لأن كتب الأنبياء السابقين كل منها يؤيد الآخر ويصدّقه: ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾[5]. اما القرآن الكريم فقد قال تعالى عنه انه مصدق الكتب السابقة ومهيمن عليها، فله الهيمنة والسلطة

---

(١) سورة الشورى، الآية (٥٢).
(٢) سورة النساء، الآية (١١٣).
(٣) سورة الأعراف، الآية (١٨٨).
(٤) سورة آل عمران، الآية (٤٩).
(٥) سورة المائدة، الآية (٤٨).

والسيطرة على جميع الكتب وله الرقابة والاشراف فاذا كان كتاب رسول الله ﷺ مهيمناً على الكتب السابقة، فاذا كان كل نبي يدعو أمته لكتابه، واذا كان مقام كل نبي متحداً مع كتابه ـ اذا كان الأمر كذلك وهو كذلك فمقام رسول الله ﷺ يعادل كتابه الذي هو أعلى المعارف وأرفعها على الاطلاق وهو المهيمن على جميع الكتب اطلاقاً، فرسول الله ﷺ اذن، مهيمن على الأنبياء جميعاً، وهم جميعاً تحت لوائه ورايته كما صرح تعالى بذلك في القرآن الكريم ﴿**جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**﴾[1] اي أننا سنأتي من كل أمة بشهيد ـ نبياً كان او اماماً ـ يكون شاهداً وحاضراً ورقيباً على عقائد وأعمال أمته، ونأتي بك شهيداً على هؤلاء الشهداء، فهم مشرفون على الأمم وأنت مشرف على الجميع.

في كتب حديثنا ان أول ما صدر عن الله تعالى هو المقام النوراني لرسول الله ﷺ، ثم ظهرت المادة والزمان. فأولية رسول الله ﷺ بالنسبة الى موجودات عالم الامكان ليست أولية زمانية. هنا ليس الحديث عن الأرض والأفلاك... ليس الحديث عن المادة والحركة، وأخيراً فليس الحديث عن الزمان والمكان وأمثالهما. أول فيض صدر من الله هو الرسول ﷺ «أول ما خلق الله نور نبينا عليه وآله السلام» وتقدم الوجود النوري للرسول ﷺ هو نفس تقدمه الذاتي لا الزماني والمكاني وما شابه ولازمة التقدم الذاتي الاحاطة الوجودية والعلمية للمتقدم على جميع المتأخرات. وتوضيح ذلك هو ان نظام العالم نظام عليّ ـ معلولي. وكل معلول يكون تحت اشراف علة. وكل العلل الوسيطة مجاري للفيض، وكل موجود عال هو مجرى فيض للموجود النازل ومشرف عليه. اذن فكل

(١) سورة النساء، الآية (٤١).

موجود في عالم الامكان هو تحت اشراف نورانية رسول الله ﷺ ولا يوجد شيء في عالم الامكان فوق نورانيته او في عرض ذلك المقام النوراني، بل كل الأشياء الممكنة هي في طول مقام نورانيته، سواء العقول او النفوس او الدنيا او البرزخ او القيامة او الجنة او النار او خلود أهل النار والجنة.. فجميعها وجميعها ثانية وثالثة ورابعة وخامسة و.. وكلها في طول سلسلة النظام العلي بعد الصادر الأول.

فان كان كل ما في عالم الخلقة هو بعد الصادر الأول، فان كل ما يجري في عالم الوجود الامكاني يقع في النطاق العلمي لمقام الرسول النوراني. والآية الكريمة التي تحدثت عن الغيب في يوم القيامة فقالت: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * الا من ارتضى من رسول**﴾[1] تدلل ان مسألة علم الغيب حتى بالنسبة للمعاد ميسرة للرسول ﷺ ومقدورة له، لأنه عندما يأتي ذكر القيامة في سورة الجن ويذكر علم الغيب، هكذا نقرأ ﴿**قل إن أدرى أقريب ما توعدون ام يجعل له ربي أمداً**﴾[2]. فالله وحده الذي يعلم الغيب بذاته، لأنه محيط بالمعاد والقيامة ﴿**فلا يظهر على غيبه أحداً * الا من ارتضى من رسول**﴾ وهذه القرينة تدلل على امكان علم الرسول ﷺ بالمعاد. وقد ورد في الروايات ان الرسول ﷺ هو المرتضى من قبل الله. وان كانت بعض هذه الروايات تنفي هذه العلوم عن المعصومين، ويقول المعصومون انهم لا يعلمون الغيب، فيجب توجيه تلك الأدلة القطعية بأن المقصود اما ان علمهم ليس بالذات والاستقلال، او ان المقصود انهم لا يعلمون الغيب من الجنبة البشرية، او حملها على وجوه ومحامل أخر،

---

(١) سورة الجن، الآيتين (٢٦، ٢٧).

(٢) سورة الجن، الآية (٢٥).

ينبغي ان تحمل عليها هذه الروايات، لا ان يكون بمعنى أنهم لا علم لهم بالغيب حتى في مقام النورانية حيث هم الصادر الأول، اذ لا يمكن ان يكون واقع الرسول الأكرم ﷺ الذي هو أول ما خلق الله غير عالم بمسائل المعاد والموضوعات البعدية الأخرى، بل انه ﷺ عالم بجميع هذه الأمور باذن الله تعالى.

بقي الحديث الذي كان يردده منكرو الوحي والنبوة والمعاد من ان ما أتى به النبي ﷺ لا يحظى بقيمة في تحقيق الخير والسعادة، والا لقبلوه **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه﴾**[1]، وهذا ما سنطرحه في المباحث القادمة إن شاء الله تعالى.

نسأل الله تعالى ان يبصر قلوبنا بنورانية المقام الشامخ للرسول الأكرم والأنوار الطيبة للأئمة المعصومين عليهم السلام بمعارف القرآن وأحاديث العترة الطاهرة، وان يختم أمورنا جميعاً بالخير والسعادة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (١١).

الدرس العشرون

طرق اثبات النبوة من قبل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

كان البحث حول المضمون المشترك للسور القرآنية السبع التي تبتدىء بـ﴿حم﴾. تعرف هذه السور باسم «الحواميم السبعة». احدى المضامين المشتركة لهذه السور السبع هي تبيين الوحي وضرورة رسالة الأنبياء عليهم السلام. وقد تناولت بعض هذه السور احتجاجات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وضرورة الوحي بشكل وافٍ. من أجل اتمام الحجة، يستدل تارة بمتن الحادثة، ويستعان بالخارج كشاهد خارجي تارة أخرى، ويثبت أصل الموضوع باليمين ثالثة. ولكي يثبت مورد الدعوى في المحاكم، تارة تستنبط حقانية المدعى من تحليل نفس مورد الدعوى ذاته؛ وأخرى تثبت حقانيته بقيام البينة، وثالثة باليمين.

وتحليل أصل الموضوع في الدعاوى العادية هو غير قيام البينة وغير

يمين المدعي. الا انه في اثبات وحي رسول الله ﷺ يمكن الاستفادة من الطرق الثلاثة معاً. فقد عرض رسول الله ﷺ هذه الطرق الثلاثة امام منكري الوحي، فاستدل ـ تارة ـ بتحليل ما أتى به القرآن، وثبّت ـ أخرى ـ صدق مدّعاه عن طريق شهادة الشهود، ولجأ ـ ثالثة ـ الى القسم واليمين من أجل اثبات صحة دعواه. الفرق المهم بين ما يجري في المحاكم العادية وحادثة الوحي والنبوة، ان تحليل الدعوى في المحاكم العادية منفصل عن قيام البينة ومنفصل عن يمين المدعي، فهذه المسائل الثلاث تفترق عن بعضها في المحاكم العادية. اما في مسألة ادعاء الوحي والنبوة فانّ تحليل متن الحادثة يوضح الحقيقة، وقيام البينة يدور في متن الواقعة نفسها، كما ان اليمين هو حول نفس الواقعة وعين تحليلها.

فان أقسم الله بشيء او أمر رسوله بذلك، فان القسم الالهي ليس في مقابل الدليل، بل انه تعالى يقسم بدليل أصل المسألة. لقد مرّ في تحليل القسم القرآني ان الله اذا أقسم لاثبات موضوع ما أو أمر رسوله، فانه يقسم بدليل الموضوع نفسه لا بما هو خارج عن الدليل. فعلى سبيل المثال، قد يدعي شخص ان الجو مضيء ويثبت دعواه بالقسم بأن الجو مضيء، وقد يدعي آخر ان الجو مضيء ولكن يقسم بالشمس على ذلك فهذا قسم ويمين بنفس الدليل لا بأمر خارج عنه. في المحاكم العادية: القسم خارج عن المتن وعن الدليل الذي يثبت الادعاء، ولكن في المسائل العقلية القسم بدليل المسألة هو الذي يثبتها. فان قال الله تعالى بأن الكافرين والمنافقين في ظلمات يعمهون، فانه يثبت هذا الادعاء بقسم واحد، فيقسم بحياة الرسول ﷺ ان هؤلاء كذلك: ﴿لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ (١)،

---

(١) سورة الحجر، الآية (٧٢).

لأن حياته وسيرته الرشيدة ـ عليه الصلاة والسلام ـ وثيقة حية على شرعيته هو، ودليل على بطلان وضلالة وغيّ منكريه. هذا هو القسم بالدليل. واذا أقسم رسول الله ﷺ من أجل اثبات وحيه ورسالته فانه يقسم بالدليل نفسه، واذا استشهد فانه يشهد الدليل نفسه. ليست الشهادة دليلاً تعبدياً، وكذلك القسم بالدليل. البينة في المحاكم القضائية دليل تعبدي وان لم يفد علماً ويمين المدعي دليل تعبدي وان لم يفد علماً. لكن تحليل الواقعة نفسها، المقترن بالعلم دليل عقلي يؤيده الشرع، لا انه هو الذي أسسه.

ان رسول الله ﷺ ادعى النبوة، وأثبت هذا الادعاء بثلاثة طرق؛ الأول: التحليل الداخلي لما أتى به. فدعاهم الى التأمل في نفس الحدث ليفهموا أن القرآن ليس كلاما عاديا وانه كلام الله، فان فحص لفظه ومحتواه يوصلهم الى حقانية الدعوى. واذا أقسم الرسول فانه يقسم بالرب، وربوبية الله تعالى تستلزم إنزال الوحي وبعث الرسول؛ لأنه لو كان الله رب الانسان ومدبره، فانه لا يتركه من دون تربية على الاطلاق. ان رب الانسان يرسل للانسان خططاً وبرامج تربوية. وهذا هو الوحي. واذا استشهد رسول الله ﷺ بالبينة، فهو انما يقول ان الله شاهد له. وشهادة الله ليست شهادة لفظية فقط. اذا قال ﴿انك لمن المرسلين﴾ فان الشهادة اللفظية هذه لا تكون مؤثرة الا حين يقبل المنكرون أصل الوحي والارسال. ولا يصح ان نقول ان رسول الله ﷺ ادعى النبوة ودليله قول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿يس * والقرآن الحكيم * انك لمن المرسلين﴾[1]؛ فانهم يشككون في أصل اعتبار القرآن وحياً؛ ولا يمكن ـ والحالة هذه ـ الاستشهاد بهذه الآية من القرآن. اذن، عندما يقول الرسول ﷺ ان الله قد شهد له بالرسالة فمراده الشهادة

---

(١) سورة يس، الآيات (١، ٢، ٣).

العملية وليس الشهادة اللفظية فقط. أي ان الله بلّغ به رسالته. فالله الذي يقبلون أصل وجوده شهد له بأنه نبي. لماذا؟ لأنه أرسل رسالته بيديه. وان كانوا يشككون ان هذا الكلام هو خطاب الله او يقولون انه صنعه وانه قد نسجه من عنده، فلينسجوا مثله: **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾**[1].

بناء على هذا، فان الرسول ﷺ ادعى انه نبي وان هذا الكتاب وحي، وأثبت دعواه عن ثلاثة طرق، الأول: التحليل الداخلي للقرآن نفسه. قال تعالى: **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا﴾**[2]. اذن، البحث عن متن القرآن يبين ان هذا القرآن هو كلام من **﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾**[3] فانسجام عموم الآيات في الشؤون المختلفة يدلل ان هذا الكلام المتّحد هو كلام الله الواحد.

الطريق الثاني: انه ﷺ أقسم بالرب انه نبي، وان هذا الكتاب وحي؛ لأنه لو كان هناك ربٌّ ومربٍ ومدبر في هذا العالم، فانه لا يترك الانسان هملاً وبلا برنامج وتوجيه. فالربوبية تحمل في طيها الوحي والرسالة حتماً. ولا يمكن ان يكون الله ربا للانسان ولا يكون الانسان مربوباً لله. فليس الانسان كالنبات الذي يكفي لنموه المطر والشمس والتراب والعوامل الجوية الأخرى؛ وليس كالحيوان الذي ينمو ويترعرع عن طريق الغذاء فقط؛ بل ان الانسان ينبغي ان ينمو وينضج من خلال المعارف والأخلاق والأعمال الصالحة. وهذه تحتاج الى توجيه واذا كان الله ربا فمحال ان يترك البشر بلا

---

(١) سورة الاسراء، الآية (٨٨).
(٢) سورة النساء، الآية (٨٢).
(٣) سورة سبأ، الآية (٣).

توجيه وارشاد ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾[1].

وعلى حد تعبير الأستاذ العلامة الطباطبائي رضوان الله عليه، فان الآية المذكورة تبين ضرورة الوحي، اي ان الله يقول انه لا يترك الانسان بلا توجيه، وبالتالي فلا انفكاك بين الانسان والرسالة، ولن تنفك المجتمعات البشرية عن الوحي والرسالة والنبوة، وان الناس لا يتركون من دون بينة إلهية. والرسول ﷺ والوحي النازل عليه هو البينة لأنه بيّن وواضح انه من عند الله.

الطريق الثالث: هو اثبات الموضوع عن طريق الشهادة اي يأتي بالشاهد، وهو الله، ويقول ان الله يشهد انه نبي.. شهادة الله هي انه أرسل خطابه وحديثه بيديه. وانهم لو درسوا القرآن بدقة لعرفوا انه كلام الله. ولو حللوا شهادة هذا الشاهد جيداً لحصل لديهم اليقين ان ما أتى به هو الوحي. ولو دققوا في اليمين لأدركوا انه وحي. ولو دققوا في ما أتاهم به لأدركوا انه وحي من عند الله.

لقد أثبت رسول الله ﷺ وحيه ورسالته من ثلاثة طرق قطعية. وان اقسم أيضاً، فبنفس الدليل لا بما هو خارج عن الدليل. وان استشهد فبنفس الدليل لا بما هو خارج عن الدليل. لو أحضر المدعي شاهدين عادلين في المحكمة العادلة فان الدعوى تثبت تعبداً، وان أقسم المنكر او قام المدعي باليمين المردودة او قام باليمين في الموارد التي يكون من اللازم فيها ان يقسم المدعي، أو في موارد الجمع بين اليمين والبينة حيث يقوم المدعي

---

(١) سورة البينة، الآية (١).

باحضار البينة واداء اليمين.. ففي جميع تلك الموارد يكون اثبات الموضوع بأمر تعبدي لا أمر قطعي وعقلي. الا ان رسول الله صلى الله عليه وآله لم يثبت دعواه في مسألة النبوة التي هي من أصول الدين ـ لا فروعه ـ بأمر تعبدي، بل أثبت دعوته وداعيه بأمر عقلي وبرهان يقيني.

أوضحنا سابقاً ان هناك ثلاثة أنواع من الشهادات في القرآن الكريم يقسّم الله تعالى شهداء الوحي والرسالة الى عدة أقسام:

الأول: الله.

الثاني: الملائكة.

الثالث: العلماء؛ اي الذين عندهم علم الكتاب، ولديهم حقيقة القرآن، فيشهدون بشرعية وصحة وصدق الوحي وحقانيته. وما ذكر في سورة الرعد؛ النساء؛ الاحقاف، والحواميم الأخرى، قد بيّن في هذا البحث.

النقطة الجديرة بالتذكير هي انه وان قال الله سبحانه ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم**﴾[1] اي ان الله يشهد ﴿**والملائكة يشهدون**﴾ والانسان الكامل مثل علي بن ابي طالب عليه السلام يشهد، حيث قال في آخر سورة الرعد ﴿**ومن عنده علم الكتاب**﴾، لكن هؤلاء الشهود ليسوا في عرض بعضهم وانما في طول وامتداد بعضهم البعض اي ان شهادة الانسان الكامل ليست شهادة ذاتية، وكذلك شهادة الملائكة الشهادة الذاتية والأصيلة هي شهادة الله فقط. فان كان الملائكة يشهدون فهم من مظاهر شهادة الله. وان كان الانسان الكامل ـ كأمير المؤمنين عليه أفضل

---

(١) سورة الرعد، الآية (٤٣).

صلوات المصلين ـ يشهد، فهو من مظاهر شهادة الله أيضاً، لا ان تكون شهادته بالذات والأصالة. او انه ان قال في سورة آل عمران، في مسألة التوحيد: ﴿شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾[1] فليس بمعنى ان شهادة الملائكة وأولي العلم قائمة بالذات والأصالة، لأنه لا وجود لثلاثة أمور أصيلة وذاتية في عالم الوجود أبداً. اي ان شهادة الانسان الكامل وأولي العلم، وشهادة الملائكة كذلك، في طول شهادة الله، ومن مظاهر شهادته عز وجل. يثبت القرآن الكريم في موارد كثيرة أوصافاً كمالية لله ولغير الله؛ الا ان آيات القرآن المحكمة توضح هذا المعنى وتقول اننا وان أثبتنا في بعض الموارد أوصافاً كمالية لغير الله تعالى فهي بالعرض لا بالذات، وبعبارة أخرى فان هذه الكمالات بالذات والأصالة هي لله. وهكذا في مسألة الشهادة، وفي مسألة العزة والقوة والقدرة والشفاعة. اي ان الله سبحانه نسب الشهادة بالوحي والرسالة وكذلك التوحيد الى نفسه، وكذلك الى العلماء الحقيقيين والملائكة والانسان الكامل. الا انه بين هذا الأصل في موضع واحد من القرآن انه ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ لأنه وحده الشاهد بالذات: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله﴾[2].

وفي مسألة الشفاعة ايضاً اعطى الله للبعض حق الشفاعة وأثبت في القرآن انهم شفعاء وان لهم في القيامة حق الشفاعة ويشفعون؛ لكنه ـ في مكانٍ آخر ـ حصر الشفاعة كلها لله، فقال: ﴿لله الشفاعة جميعاً﴾[3]. وعن العزة قال ان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ ثم قال في موضع آخر: ﴿فللّه العزة

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨).
(٢) سورة الأنعام، الآية (١٩).
(٣) سورة الزمر، الآية (٤٤).

جميعاً﴾[1] . وعن القوة قرر وجود القوة لغير الله من الأنبياء والناس، ثم قال في موضع آخر ﴿أن القوة لله جميعاً﴾[2] .

فان ظهرت الشهادة او تجلت العزة او بدت القوة او تلألأت الشفاعة في ظرف الانسان او الملك فهي من باب التجلي في كأس المظاهر، اذ ليست الكؤوس صاحبة الشهادة والعزة والقوة والشفاعة، فليس في عالم الوجود أكثر من موجود واحد شاهد وعزيز وقوي وشافع بالذات، وهو الله فان نسب الله الشفاعة والشهادة لنفسه ولغيره في سورة الاحقاف (موضوع بحثنا السابق)، ثم صرح ان الشرط الكافي في مسألة الشهادة هو شهادة الله: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي ان الشهادة الوحيدة التي تتكفل الأمر وتتعهده هي شهادة الله خاصة ﴿ام يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾[3] ، فان هذه الآية من سورة الاحقاف كانت في الاحتجاج مع الذين قالوا للنبي انك لست رسولاً، ولا كتابك وحي. واستدل رسول الله ﷺ بدليلين:

الأول: انه لا يستطيع الافتراء على الله ابداً، وقد تم توضيح ذلك آنفاً.

الثاني: ان الله هو الشاهد، وذلك ليس بمعنى ان الله يعلم، لأن ارجاع أصل المسألة الى علم الله وانه مطلع، لا ينهي الدعوى، في حين ان الشهادة هي من أجل انهاء الدعوى فالذي يريد ترك الدعوى بدون نتيجة قد يقول: طالما لم تقبلوا فالله يعلم وسيتضح الأمر يوم القيامة.

اما رسول الله ﷺ فيقول في متن احتجاجه انه مدع انه اتى بالوحي

(١) سورة فاطر، الآية (١٠).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٦٥).
(٣) سورة الاحقاف، الآية (٨).

والنبوة وان القرآن هو الوحي نفسه وان كان الكافرون ينكرون ذلك. وان كان ما يثبت دعوة المدعي ويبطل انكار المنكر هو قيام الشاهد، فقد شهد الله بنبوته ﷺ لماذا؟ لأنه بلغ رسالته بيديه. وان كانوا يقولون انه ليس كلام الله فليأتوا بمثله اذن. واذ ثبت أنهم لا يستطيعون ذلك فقد ثبت ان هذا الكتاب هو كلام الله. واذ ثبت انه كلام الله فقد ثبت انه نبي. وهذا النحو من الاستدلال هو الاستشهاد نفسه، اي ان الله شهد، لا انه يعلم فقط.

ان ما ينفع في المحكمة هو مقام اداء الشهادة لا تحملها وصرف العلم فقط. اذا كان فريق يقولون عن النبي انه ليس بنبي، ويقول النبي انه نبي، ثم يتضح الأمر في القيامة وكفى، فالاحتجاج يبقى ناقصاً في الدنيا ـ لكنه ﷺ يقول ﴿**وكفى بالله شهيدا**﴾ أي انه يؤدي الشهادة في مقام الاداء، وشهادته تعالى هي بأن كتابه لدى رسول الله وان كانوا يشككون بذلك فليأتوا بمثله ان كانوا صادقين.

بالتأكيد ان ما ورد في سورة النساء من ان ﴿**والملائكة يشهدون**﴾[(١)] وفي آخر سورة الرعد ﴿**كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب**﴾ ناظرة الى مقام اداء الشهادة. ولكن لو شهد الانسان الكامل مثل أمير المؤمنين عليه السلام والملائكة فان شهادتهم ليست بالأصالة، بل بالتبع. ان الشهادة بالأصالة والذات هي لله فقط. وكونه قال عن العزة ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾[(٢)] وقال في مورد آخر ﴿**فللّه العزة جميعاً**﴾ لا يعني ان الرسول ﷺ عزيز بالذات او ان المؤمنين أعزة بالأصل، بل بما أنهم مرتبطون بالله فهم جميعاً أعزة. اذن فالعزة بالذات لله وحده. وهي للآخرين

(١) سورة النساء، الآية (١٦٦).

(٢) سورة المنافقون، الآية (٩).

وصف بالعرض او التبع. فان نحن اعتبرنا الأمور الامكانية تابعة، فهم أعزة بالتبع، وان اعتبرنا الممكنات موجودة بالعرض فهي عزيزة بالعرض.

ذكر في سورة فاطر ان العزة لله فقط. والآخرون يكونون أعزة عندما تتجلى فيهم عزة الله **﴿من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً﴾**. كل العزة بالذات هي لله. لا ان الله عزيز والنبي عزيز والمؤمنون أعزة. ان كانت ثمة عزة في العالم وصلابة او مقام لا ينال لأحد فهو لله **﴿أيبتغون عندهم العزة﴾**[1] **﴿فللّه العزة جميعا﴾**[2]. وهذه الآيات كاشفة وموضحة لتلك الآية التي وردت في سورة المنافقين في قوله: **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾**.

وكذلك هو الأمر في مسألة الشفاعة؛ فقال تعالى بشأن غيره من الشفعاء: **﴿لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾**[3]. وقال في آية أخرى **﴿إلا من شهد بالحق﴾**[4]؛ فقال بالشفاعة للبعض من ملك وانسان كامل، لكنه قال في مكان آخر **﴿لله الشفاعة جميعاً﴾**[5]. فان كان الانسان شفيعاً وان كان للانسان الكامل حق الشفاعة فهو ظهور لشفاعة الله. وهي الشفاعة باذن الله؛ وهي ليست في عرض شفاعة الله. اذ لا وجود لموجود في عرض الله، بل ان وجود جميع الموجودات هي بالتبع لوجود الله، أو ان جميع الموجودات موجودة بالعرض، ولا يمكن ان تكون شفاعة شفيع في عرض شفاعة الله؛ لهذا قال: **﴿لله الشفاعة جميعاً﴾**.

---

(١) سورة النساء، الآية (١٣٩).
(٢) سورة فاطر، الآية (١٠).
(٣) سورة مريم، الآية (٨٧).
(٤) سورة الزخرف، الآية (٨٦).
(٥) سورة الزمر، الآية (٤٤).

كذلك الأمر في مسألة القوة، فالقوة بالأصالة والذات هي لله فقط، وان نسبت الى غير الله كالمقاتلين اذ قال ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾[1] فالمقصود منها القوة العسكرية اما القوة العلمية فقد تعرضت لها آية أخرى، اذ يقول ليحيى الزاهد والشهيد ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾[2] أي خذ بقوة هذا الكتاب السماوي الذي وصلك بواسطة عيسى - على نبينا وآله وعليه السلام. وذكر في آية أخرى القوة البدنية والعلمية معاً فقال: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾[3].

عن الصادق عليه السلام على ما ينقله المرحوم البرقي في المحاسن: «أقوة في الأبدان او قوة في القلب؟» يقول الامام عليه السلام: «فيهما جميعاً»[4] اي بقوة الفكر والقلب وقوة العضلات والبدن. أي افهموا جيداً وادفعوا جيداً عما فهمتموه. كونوا أذكياء وأقوياء. افهموا بقوة الفكر وادفعوا بقوة الزند.

فان كان الله - سبحانه - يثبت القوة لرسوله وللبشر في هذه الأبعاد المختلفة: ﴿انه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾[5].

وان كان يثبت للسماوات والأرض قوة جسمية وللملائكة قوة عقلية، فانه يقول في موضع آخر ﴿ان القوة لله جميعاً﴾، لا ان الآخرين أقوياء والله قوي فغيرته لم تبقَ غيرا في الوجود. فلا أحد يمكنه القول: انني قوي مقابل قوة الله، لأن قوة الله غير محدودة، ولن تبقى قوة امام قوة الله المطلقة فتكون

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٦٠).
(٢) سورة مريم، الآية (١٢).
(٣) سورة البقرة، الآية (٦٣).
(٤) المحاسن للبرقي ج١ ص ٢٦١ ح ٣١٩.
(٥) سورة التكوير، الآيتين (١٩و٢٠).

في عرضها كي يقول انني قوي. وعلى هذا، فان جميع الأوصاف الكمالية ذاتاً من الله سبحانه، وتتجلى وتظهر في الآخرين. والنتيجة ان شهادة الله على التوحيد والرسالة و... كافية. وان كان الملائكة يشهدون فبالعرض وبالتبع. وان كان العلماء الحقيقيون يشهدون فكذلك لهذا قال ﴿وكفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾، فليس ثمة حديث عن الملائكة والانسان الكامل بل ﴿أليس الله بكاف عبده﴾[1]، لهذا قال للذين يطلبون الشهادة: اي شيء أكبر شهادة من الله؟ فان كان في التوحيد فهو أكبر شاهد، وان كان في مسألة الوحي والنبوة فأكبر شاهد هو الله. وان كان الله أكبر شاهد اطلاقاً، فكل ما لدى الآخرين او الآخر هو من لدن كبريائه عز وجل وان وصل فيض الى الغير فهو صورة عن صاحب الصورة في مظهر خاص لا أنه مظهر عن نفسه.

فالانسان ـ وعلى حد تعبير الأستاذ العلامة الطباطبائي ـ طالما كان حياً فهو يرى أشياء في المرايا المنصوبة أمامه.. يرى أشجاراً وسماء واجرام وأرضاً وجبالاً وبحار وأنهاراً وصحارى وفيافي.. وعندما يموت تكسر مرآته ويعرف ان هذه الأشياء لم تكن في المرآة بل في مكان آخر وأنها كانت أشياء أخرى. فرق بين ان يفهم الانسان ان هذه الأشياء في المرآة وبين ان يعرف ان هذه المرآة لا تملك من نفسها شيئاً بل تعرض صاحب الصورة فقط. فالانسان الواعي، والانسان الغافل كلاهما يرى الأشياء الخارجية، والسماء والأرض، والنبات والحيوان والانسان، لكن العارف يعلم ان هذه جميعها مرآة الله، اما الغافل فلا يدرك ذلك ويتصور انها موجودة بنفسها. وعندما ينتقل الى الآخرة وتكسر مرآة وجوده الدنيوي يدرك انه لم يكن ثمة في المرآة شيئاً بل انها جميعا كانت في مكان آخر غير المرآة.

---

(١) سورة الزمر، الآية (٣٦).

«قلت متىٰ تتفضل على روحي العاجزة قال إذ لا تشكل الروح حائلاً في البين»[1]

والانسان نفسه مرآة، روحه مرآة، ورؤيته مرآة. لكنه لا يعلم انه مرآة أيضاً، وان جميع الموجودات الأخرى مرايا. ويتصور ان ما في الخارج مستقل في وجوده

«طريق العقل ليس الا تعقيداً وليس للعرفاء ثمة الا الله
قد يقال هذا لعارفي الحق اما أهل القياس فيعترضون
اذن ما هي هذه السماء وهذا الأرض؟ مَنْ بنو آدم، والجن والغول؟
عظيم هو البحر بالموج رفيعة هي الشمس في الأوج
كل الموجودات أقل من أن تسمىٰ وجوداً مع وجوده هو
فان يرفع سلطان العزة علمَه يدخل العالم كله ثقب العدم»[2]

ان نحن فهمنا اليوم معنى ﴿العزة لله جميعاً﴾ فستكون الحالة نفسها واضحة لنا يوم القيامة.

الخلاصة؛ ان رسول الله ﷺ أثبت نبوته بالتحليل والقسم والاستشهاد معاً. فكان استشهاده بالدليل لا بالشاهد التعبدي، وكان قسمه بالدليل أيضاً.

وفي بحث الشهادة اتضح ان شهادات سائر الشهود بالتبع او بالعرض. وان شهادة الله وحدها بالذات والأصالة. ولذا قال ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾.

ان وفقنا الله تعالى سنشير في الجلسة القادمة الى معنى ﴿قل اي شيء

(١) ترجمة بيت شعر فارسي.
(٢) ترجمة أشعار فارسية.

اكبر شهادة﴾.

نسأل الله تعالى ان يجعل قلوبنا أوعية لمعارف القرآن، ويوفقنا لادراك أحاديث أوليائه، نسأله - تعالى - ان يجعل ثواب هذه البحوث بعد قبولها منا، هدية الى الروح الطاهرة لرسول الله ﷺ وباقي الأنبياء والأولياء العظام، ويختم أمورنا جميعاً بالخير والسعادة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الحادي والعشرون

شهادة القرآن برسالة النبي الأكرم ﷺ

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

ما مر في البحث السابق هو ان لسور الحواميم السبع مضموناً مشتركاً، وهو تبيين الوحي وضرورة النبوة، وان رسول الله ﷺ يستدل في تلك السور على صدق الوحي ونبوته. وهذا الاحتجاج يتم عن ثلاثة طرق:

الأول: طريق البحث وتحليل ما أتى به النبي ﷺ، والذي يرشدنا القرآن اليه ويقول لو أنكم بحثتم ما أتى به لفهمتم من انسجامه انه من عند الله اذ **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**(١) كما تدركون ذلك من دعوته الى الحق وان هذا الكلام هو خطاب الله عز وجل: **﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾**(٢)، وكذلك تدركون هذه الحقيقة من دعوته الى الخير وما شابه ذلك **﴿ان الله يأمر بالعدل**

(١) سورة النساء، الآية (٨٢).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٤).

والاحسان﴾[1]. فدراسة متن هذا الكتاب تطمئن الانسان الى انه كتاب الله.

الطريق الثاني: الذي لجأ اليه الرسول ﷺ لاثبات دعواه هو الاستمداد من شهادة الله عز وجل، اذ شهد له الله تعالى انه بلغ الرسالة، وان هذا الكلام هو كلام الله.

الطريق الثالث: هو اليمين والقسم الذي ذكره النبي ﷺ على ان هذا الحديث هو حديث الحق تعالى.

عادة ما يلجأ في المحاكم من أجل اثبات الدعوى الى تحليل القضية ذاتها، او الى إقامة البينة، او الى اليمين. في بعض الموارد: على المنكر ان يقسم، وفي الموارد الأخرى يقوم المدعي بقسم اليمين المردودة. وقد يقسم المدعي أيضاً اضافة الى البينة في بعض موارد الجمع بين البينة واليمين في البحوث السابقة، اتضح ان هذه الطرق الثلاثة منفصلة عن بعضها في المحاكم العادية؛ اي ان تحليل متن الواقع استنباط علمي يحكم القاضي فيه بعلمه، في حين أن قيام البينة دليل تعبدي، وهكذا اليمين فهو دليل تعبدي وغير قطعي أيضاً، الا ان الطرق التي اتبعها رسول الله ﷺ من أجل اثبات مدعاه ترجع جميعها الى أصل واحد؛ فان استدل عن طريق تحليل القرآن فهو يعرّف الانسان بصدق الوحي والنبوة، وان استدل عن طريق قيام البينة، فذلك لأن البينة هي القرآن نفسه لا شيء خارج عنه، وعليه فان طريق اقامة الشاهد هو نفس طريق تحليل القرآن أيضاً. وان أقسم فهو يقسم بنفس الدليل لا بما هو خارج عنه. اما كيف تكون البينة عين الدليل، ويكون القسم بالدليل نفسه، فقد تم البحث عنه مفصلاً في الجلسة السابقة.

---

(١) سورة النحل، الآية (٩٠).

والشهادات المذكورة في القرآن تعود الى أصل واحد أيضاً. يذكر الله في القرآن الكريم شهوداً من أجل تثبيت رسالة النبي ﷺ فيقول مثلاً ان الله يشهد والملائكة يشهدون، والانسان الكامل الذي عنده علم الكتاب يشهد، فيقول في سورة النساء ﴿ان الملائكة يشهدون﴾. ويقول في سورة الرعد ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ يشهد، وفي كثير من الموارد يذكر شهادة الله فقط. وهذه الشهادة هي اداء الشهادة لا تحملها فمقام الاداء هو المهم لا مقام التحمل، وذكرت هذه النقطة أيضاً، وهي ان شهادة الملائكة والانسان الكامل هما في طول وامتداد شهادة الله لا في عرض شهادته تعالى. اي ان الشهادة بالذات والأصل هي شهادة الله فقط. اما شهادة الملائكة والانسان الكامل فبالعرض او بالتبعية.

وقد ذكرت نماذج من هذا التحليل أيضاً؛ وهي ان القرآن يثبت بعض الأوصاف الكمالية لغيره أيضاً. ويقول في مكان آخر ان جميع الأوصاف الكمالية تختص به تعالى وتنحصر به. على سبيل المثال، قال عن العزة في سورة المنافقون: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[1] لكنه قال في سورة فاطر: ﴿فلله العزة جميعاً﴾[2].

وفي مسألة الشفاعة، قال في سورة مريم وموارد أخرى ان غير الله يشفع أيضاً، ولكن في مكان آخر عاد وقال: ﴿لله الشفاعة جميعاً﴾. وكذلك الأمر بالنسبة للقدرة والقوة الظاهرية، فقد أثبته القرآن لغير الله في بعض الآيات لكنه عاد وقال في آيات أخرى ان ﴿القوة لله جميعاً﴾[3]. وكذا الحال

---

(١) سورة المنافقون، الآية (٨).

(٢) سورة فاطر، الآية (١٠).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٦٥).

بالنسبة للشهادة. فان كان القرآن يقول بالشهادة للملائكة وأولي العلم فهي شهادات بالتبع او بالعرض، ولا تكون الشهادة بالذات وبالأصل الا لله. وتقرر القيام بالتوضيح أكثر حول هذا المطلب.

في سورة الانعام المباركة يقرر ان الشهادة الأصيلة والأهم هي شهادة الله عز وجل: **﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾**[1]. ففي مسألة التوحيد ينكرون ما يدعيه الرسول من توحيد الربوبية وهو يقول ان الله رب العالمين ولا شريك له. وفي مسألة الوحي يدعي الرسول الوحي والنبوة لكنهم ينكرون الوحي والنبوة. ومن أجل انهاء الدعوى الى الحق والقبول بها يأتيهم الرسول بالشاهد، وأهم شاهد في مسألة التوحيد والنبوة هو الله فلا شاهد أعلى من الله. والشهادة بالأصالة لله. فان كان الآخرون يشهدون فتبعاً لشهادة الله. فأي شاهد أعلى من الله؟ وأي شاهد أكبر منه؟.

تستند الشهادة الى مقامين:

الأول: مقام تحمل الحادثة.

والثاني: مقام ادائها. فما يتذكره الشاهد من الحادثة وما يحتفظ منها في ذهنه، يؤديه في المحكمة بلا زيادة او نقصان. فان كان الشاهد غائباً عن الحادثة لا يكون شاهداً، اذ لا يصح ان يكون الغائب اثناء الحادثة شاهداً عليها. كما لا يكون شاهداً من لم يحضر المحكمة ويدلي بما يحتفظ به في ذهنه. فليس شاهداً من كان له حضور تارة وغيبة تارة أخرى، كمن لا يحفظ الحادثة جيداً في ذهنه في مقام التحمل ولا يدركها جيداً، أو يدركها لكن ذاكرته لا تعينه على الاستحضار الكامل للحادثة فهي تحتفظ بالبعض وتفرط

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٩).

بالباقي.. فهذا أيضاً لا يكون شاهداً لأنه ينسى قسماً من الحادثة ويتذكر القسم الآخر؛ وكذلك لو تحمل شخص هذا الموضوع جيداً، اي فهم أصل الحادثة جيداً وكانت له ذاكرة قوية أيضاً تعينه على استعادة ما فهم وسجّل في ذهنه ولكن أثناء اداء الشهادة لم يكن له بيان مفهم ليبين ما فهمه وحفظه فان شهادته ـ هو الآخر ـ غير مسموعة، لأنها في قسم منها ممزوجة بالغيبة. والشهادة المشوبة بالغيبة وعدم الحضور غير نافعة أيضاً، لأن ذلك الشخص لا يكون شاهداً محضاً.

فان كانت الشهادة بحاجة لأن يكون الشاهد حاضراً في هذه المراحل الثلاث اي ان يفهم الحادثة جيداً، وان يحفظها في ذهنه جيداً، وان يستعيدها تامة ويظهرها ببيان واضح وجميل عند الطلب؛ وكانت جميع هذه الأوصاف المذكورة موجودة بشكل كامل في الله سبحانه، اذن: فلا شيء افضل من الله شهادة، ولذا قال: اي شيء أكبر شهادة من الله؟ لأن الله في جميع هذه الأبعاد قادر بالذات. فلا أحد مثل الله في فهم الحوادث بحيث يكون علمه بالحادثة كعلم الله تعالى؛ فهو ﴿بكل شيء عليم﴾ و﴿بكل شيء محيط﴾ و﴿بكل شيء شهيد﴾. اذن، فله حضور علمي في كل حادثة. ولا موجود له وجود في مشهد الأحداث كالله تعالى. ولا موجود عالم بالأحداث مثل الله. وهذه هي المرحلة الأولى من الشهادة.

في المرحلة الثانية حتى ان كان الشاهد حاضراً المشهد وفهم الحادثة جيداً وأودعها ذهنه، يمكن ان ينسى جانباً منها. اما الله تعالى فليس كذلك ﴿وما كان ربك نسياً﴾[1] فليس للنسيان الى حرم أمن العلم الالهي سبيل، ولا يمكن ان ينسى الله تعالى شيئاً. وعلى هذا، فما يعلمه الله هو عين ما وقع

---

(١) سورة مريم، الآية (٦٤).

و﴿ما يعزب عن ربك من مثقال ذرة﴾[1] . فان غاب عن الآخرين شيء فان الله محصيه ﴿أحصاه الله ونسوه﴾[2] وان ينسى الآخرون موضوعاً فان الله يعلم أصله وما نسيه الناسون.

ولا أحد في مقام الاداء والبيان مبين وقادر على اظهار الحق مثل الله تعالى. فان كان لدى الآخرين مواضيع يدركونها جيداً لكنهم لا يملكون القدرة على بيانها كونها بالنسبة لهم مما يدرك ولا يوصف، فان الله سبحانه يبين مثل هذه المواضيع بشكل جيد أيضاً ويرسم الحادثة عينها دون ان يذر منها شيئاً.

وبناء على هذا، ان كانت الشهادة تعتمد على ثلاثة أركان: ركن تحمل الحادثة، وركن حفظها، وركن ادائها، وكانت الشهادة قوية بقوة اركانها فيما ان لله تعالى منتهى القوة والقدرة في جميع هذه الأركان، فان لشهادته عز وجل ـ اذن ـ غاية القوة، ولا أحد يعادله في ابعاد الشهادة، ولذا قال: ﴿قل اي شيء اكبر شهادة﴾.

أنتم تقبلون بأنه لا شاهد أكبر من الله وان الله سبحانه يشهد بوحدانيته وبالوحي والرسالة وبنبوتي ـ ليس فقط شهادة قولية بل وعملية أيضاً ـ وان شهادته العملية هي في انه أجرى خطابه على يدي، وكلامه على لساني، ووحيه في قلبي، فالصوت الذي أوجده تسمعه أذناي، والموج الذي أنشأه ينطقه لساني، والمعارف التي أنزلها يدركها فؤادي. انه أعطى كلامه بيدي وان كنتم خبراء في الكلام وتعرفون كلام الله فانظروا وحللوا فهذا كلامه بيدي واذا ثبت بالشهادة العملية ان القرآن كلام الله يمكن ـ عندها ـ

---

(١) سورة يونس، الآية (٦١).
(٢) سورة المجادلة، الآية (٦).

الاستدلال بالشهادة القولية والقول بأنه اذ ثبت ان القرآن وحي وكلام لله، وانه جاء في القرآن ﴿انك لمن المرسلين﴾[1] وكذلك ﴿يا أيها النبي﴾ و ﴿أيها الرسول﴾، فكل هذه العبارات اللفظية شهادات قولية لله على رسالة النبي الكريم.

ان تأثير الشهادات القولية فرع على الشهادة العملية والفعلية. اي: بعد اثبات ان القرآن كلام الله يمكن الاستدلال بالآيات التي لها شهادة لفظية، والا فان الاستشهاد بالشهادات اللفظية قبل اثبات ان القرآن وحي من لدن الله سيكون أمراً بعيداً.

اذن، لا شهادة أعلى من شهادة الله، ولا شاهد أرفع وأعلى من الله سبحانه؛ فله ـ تعالى ـ الاحاطة الشهودية بجميع الأشياء.

كانت هذه تتمة بحث الجلسة السابقة من ان الشهادة بالذات هي لله عز وجل، وان الشهادة بالتبع للملائكة وأولي العلم.

بما انه كان مقرراً ان نبحث في أصل حقانية الوحي ومعطيات الوحي، فقد اتضح في هذه السور السبع المعروفة بالحواميم ان الوحي ضرورة وان رسالة الرسول ﷺ حتم، وان ما أتى به الوحي خير أيضاً وكان المنكرون يشككون في حقيقة الوحي، وفي هل ان الطريق الذي يعرضه القرآن يحقق الخير والسعادة ام لا. فكانوا يشككون في خيرية مضامين القرآن وفي تربوية التعاليم الالهية. يرد حديث منكري الوحي في سورة الاحقاف كما يلي: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه﴾[2] هكذا كان

---

(١) سورة يس، الآية (٣).

(٢) سورة الاحقاف، الآية (١١).

حكم الكفار الأجوف بشأن المؤمنين، فكانوا يقولون ان رسالة القرآن ليست تربوية ولا تحقق السعادة، والا لقبلناه نحن، ولما سبقنا اليه هؤلاء المؤمنون بل لسبقناهم اليه. ولما لم يكن خيراً وليس خيراً لم نقبل به.

هذه المقولة الخاطئة الجوفاء هي من جهة ان معيار التقييم ليس واضحاً للكفار فانى لهم ان يعرفوا ما هو الخير ليقولوا ان القرآن ليس خيراً. انهم يعتبرون زخرف الدنيا خيراً، والقرآن يعتبرها لهواً ولعباً. ان القرآن يرى الخير في ما يعتبرونه أساطير فهاتان نظرتان للخير وهذان استخلاصان. فالانسان المادي لا يعتبر المعارف الالهية خيراً ولا يميل اليها. اما الانسان العاقل فلا ينظر الى الطبيعة المادية ولا ينشغل باللعب واللعب فعندما سئل الامام السادس عليه السلام عن الامام من بعده؟ قال «من لا يلهو ولا يلعب». ودخل الامام موسى بن جعفر في الحال، وكانت معه شاة فأمرها بالسجود لله، فاعتنقه الامام الصادق عليه السلام وقال: «بأبي من لا يلهو ولا يلعب»[1].

المغرور بالدنيا ومن يفكر باللهو واللعب يعتبر المعارف الرفيعة أساطير، أما الحكيم ذو النظرة الالهية فلا يرى أعمال الدنيويين سوى لعباً. فكما يترك الأطفال لعبهم آخر النهار في ساحة اللعب وينفضون أيديهم عائدين الى منازلهم متعبين وينهون اليوم كله بالخيالات الى الليل، فيلتذ الأول كونه فاز في اللعب، ويتألم الآخر كونه خسر؛ فلا الرابح أخذ معه شيئاً ولا الخاسر نقصه شيء حقيقي، فكذلك أهل الدنيا يقومون بسلسلة من التسلي واللهو، ويتركون في نهاية العمر جميع وسائل اللعب الدنيوية. نعم، ان الاشتغال بالدنيا ـ على نحو المقدمة جيد مثل لعب الشباب مقدمة لتأمين السلامة. وبعدها استهلاك هذه السلامة في طريق احياء الحق. وهذا بدوره

(١) أصول الكافي ـ كتاب الحجة ـ باب الاشارة والنص على أبي الحسن موسى عليه السلام.

عمل جيد. على الانسان ان يوفر القوة وزكاتها الدفاع عن دين الله. ان اللاعب يترك ـ في النهاية ـ وسائل اللعب.. ينفض يديه ويعود الى المنزل خاوي اليدين دون ان يأخذ معه سوى سلسلة من اللذات الوهمية. اما الانسان المحق والعادل والرؤوف والمعطاء. الانسان البناء.. فيسافر بجميع معارفه وأخلاقه الى عالم الغيب دون ان يذر شيئاً منها وراءه في عالم الطبيعة. فيذهب بالأخلاق التي تخلق بها الى الآخرة، ويبدأ سفره الطويل بمعية الأفكار والمعارف الرفيعة، لا انه يترك العلوم التي تعلمها والأخلاق التي تطبع عليها ويرحل منفرداً.

وعلى هذا فالكفار المتعلقين بالطبيعة وأهل اللهو واللعب يعتبرون المعارف أساطير ويقولون لو كانت المعارف القرآنية خيراً لما سبقنا اليها المؤمنون، بل لسبقناهم اليها؛ وبما ان مضامين القرآن ليست خيراً لم نقبل بها، الا ان القرآن يحلل السبب ويقول: **﴿واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم﴾**، فلأنهم لم يعرفوا الهدف ولا الطريق اليه، قالوا ان هذا الكتاب أفك قديم وأساطير الأولين، وانه كان للأولين أساطير مثله ولم تأتنا بشيء جديد.

وفي موضع آخر، ينقل القرآن الكريم قولهم **﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾**[(١)] لكن الله تعالى يقول انهم لما لم يهتدوا قالوا انه أفك وأساطير، فهم لم يفكروا بوجودهم ولا يعرفون مجيئهم ومصيرهم ومسيرهم ويزعمون ان الانسان يخرج من التراب ليعود اليه وحسب غافلين عن ان الانسان مخلوق من التراب ويعود اليه ليبعث منه مرة أخرى **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة**

(١) سورة الأنفال، الآية (٣١).

أخرى﴾[1] .

يقول الله سبحانه ان هذا القرآن ليس أفكا قديما ولا أساطير، فالأنبياء السابقون كانوا أئمة من قبله وجاؤوا للناس بالخير والسعادة: ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً﴾[2] . ولأن الامام قائد ومرشد ودليل، فالكتاب السماوي امام للأمة ورحمة بحالها ويبين الطريق للأمة ويحدد لها هدفها ويقول انكم مسافرون ولكم هدف وطريق محدد ينبغي ان تسلكوه للوصول الى ذلك الهدف.

وهذا الكتاب مصدق لامامة موسى الكليم والتوراة، وهو مثل كتاب موسى امام ورحمة للأمة الاسلامية، لأنه يقف امام كل ظلم ويوقف كل ظالم عند حده.. يزيل كل سوء ويعاقب كل مفسد. فكتاب كهذا يأمر بالفضائل وينهي عن الرذائل ﴿لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ يبشر المؤمنين بالله واليوم الآخر والمتخلقين بالفضائل النفسية، وينذر الملحدين المفسدين المجرمين العمين. هذا الكتاب السماوي هو امام الأمة ورحمة بالأمة، كتاب لا يسمح بالتسلط ولا يجيز الاستسلام.. فلا يسمح لأحد ان يظلم كما لا يجيز له ان يظلم ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾[3] .

وليس هذا بيان القرآن الكريم وحده، بل هو بيان الوحي الالهي والنبوة العامة؛ فجميع الأنبياء عرضوا هذا المعنى لأممهم وصدقوا حديث الأنبياء السابقين: ﴿لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ . من هم المحسنون الذين يبشرهم القرآن الكريم؟: ﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم

(١) سورة طه، الآية (٥٥).
(٢) سورة الاحقاف، الآية (١٢).
(٣) سورة البقرة، الآية (٢٧٩).

استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، انهم الذين قالوا ربنا الله فلا يخضعون لسلطة أحد غيره، ثم استقاموا فلا يظلمون أحداً من أجل اشباع شهواتهم وأهوائهم. فالانسان المستقيم هو الانسان الذي ليس تابعاً للقوة السبعية الداخلية فيكون عبداً لطاغوت الداخل، ولا تابعاً لسلطة الظالم الخارجي فيكون عبداً لطاغوت الخارج، بل ان ربه الله، وهو ثابت على هذه العقيدة الربانية. لهكذا أفراد مستقبل واضح ومشرق. والآخرون اما ان يكون مستقبلهم خراباً حتماً او ان يكون مظلماً، اي اما ان يكون محزناً أو يكون مخيفاً، لأنهم لا يعلمون ما سيكون. بل ان مستقبل بعضهم مظلم حتماً ولا يعلم البعض الآخر ما سيكون عليه مستقبلهم. الفريق الأول شقي وحزين والفريق الثاني خائف وقلق. اما المؤمنون الثابتون الراسخون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فلا عليهم خوف الفريق الأول ولا حزن الفريق الثاني، لأن مستقبلهم مشرق لألاء مقرون بالبشرى لا بالخوف والحزن.

لو درى الانسان انه موفق في مستقبله فسيفرح، ولو علم انه فاشل فسيكون مهموماً حزيناً اما لو لم يعلم ما سيحدث له فسيكون قلقاً وخائفاً مضطرباً.

قال الله تعالى ان مستقبل المؤمنين مشرق، وانهم مطلعون على مستقبلهم، وعليه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. عندما سئل أمير المؤمنين على فراش مرضه: الى أين تذهب بعد الموت؟ قال: «الى العرش الأعلى والى سدرة المنتهى» فانه وان كان يذرف الدموع ويبكي في سجوده حتى ليبتل مصلاه، لكنه كان يعلم بمستقبله الوضاء. وكانت ابنته العظيمة تبكي عنده أثناء مرضه فقال لها: بنية: لماذا تبكين؟ قالت: لأني أراك على

هذه الحال. فقال عليه السلام: ان كنت ترين ما أرى لما ذرفت الدموع. قالت: وما ترى؟ قال: أرى جميع الأنبياء والملائكة صفوفاً بانتظاري.

نعم، وكان علي عليه السلام يرى هذا المعنى في حالته الاعتيادية فيقول «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً».

ان المجاهد الذي يتحمل صنوف العذاب في سبيل الله، ويقدم روحه ويمثل بجسده، له مستقبل مشرق؛ فليس بمظلم مستقبله كالمفسدين كي يحزن، ولا بمجهول كالأفراد العاديين فيخاف او يقلق. بل ان مستقبله واضح، ويحدوه الأمل صوبه. لا خوف على المؤمنين الصادقين ولا حزن. فمعنى ﴿قالوا ربنا الله﴾ ان منطقهم توحيد الرب، لا ان يلفظوا هذا الحديث تلفظاً فقط بل ان جميع شؤون حياتهم ومعيشتهم قائمة على التوحيد. وعلى هذا ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

تارة يقول ان الملائكة تقول لهم هذا الكلام: ﴿تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا﴾[1]. وتارة يحذف هذه الواسطة ويتحدث نفسه عز وجل قائلاً: ﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. لأن مستقبل كل شخص يعادل ماضيه فـ«كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون». فمن يقضي الحياة بسلام يرد البرزخ بسلام وينتقل من هناك الى القيامة بسلام أيضاً ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا﴾[2].

فالذي يفترس الناس كالذئاب يبعث كالذئب هناك. اما الذي عاش

---

(١) سورة فصلت، الآية (٣٠).

(٢) سورة مريم، الآية (١٥).

كيوسف فهو يبعث مثله أيضاً. وهذا الكلام مرٌّ على طلاب الدنيا ويعتبرونه افكاً قديماً. فتلك الحكومات الرجعية الظالمة تعد هذه الدعوة افكار، اما ذلك المقاتل الصنديد وجندي سوح المعارك فيراه خيراً ويهرع لاستقباله: **﴿أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون﴾**[1] وهل يفزع الانسان الا من ذكرياته؟ أو لسنا لا نرغب بالخوف او الحزن. ان القرآن يدلنا على هذا الطريق.. طريق التحرر من الخوف والحزن، لأنه يعلمنا أحسن طريق: **﴿ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾**[2]. يقول لنا لو اردتم الأمن وان لا تكونوا محزونين فآمنوا بالله واستقيموا على هذا الايمان. اية نعمة أعلى من السكينة واستراحة القلب وطمأنينته؛ فكيف يمكن الحصول على هذه الطمأنينة؟ ماذا نفعل لنكون آملين بمستقبلنا؟ وماذا نفعل كي نتمتع بماض جيد ومستقبل حسن؟ يقول ان طريقه هو الاعتقاد بالله ورعاية قوانين الله والاحتراز من ان نظلم والوقوف في وجه الظلم. هذه هي الاستقامة في طريق العقيدة. نعم، ان انساناً كهذا له مستقبل كذاك. مستقبل لا حزن فيه ولا خوف يتسرب اليه. فمعنى الانذار الذي بينته سورة الاحقاف تبينه سورة الانعام أيضاً في ذيل آية **﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾**. يقول: **﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾** فانه وان قالت سورة الاحقاف ان رسالة القرآن بشرى وانذار، واعتبر الله سبحانه رسوله ﷺ بشيراً ونذيراً؛ لكن البشرى على تعبير الأستاذ العلامة الطباطبائي ـ رضوان الله عليه ـ هي من أجل خلق الباعث والشوق، ولعل الشوق لا يملك القوة والدافع لجذب الجميع. اما الخوف فله تلك القدرة

---

(١) سورة الاحقاف، الآية (١٤).

(٢) سورة الاسراء، الآية (٩).

في صدّ الناس عن الذنوب، لذا فان بعض الآيات تتحدث عن النبي بصورة الحصر بصفة النذير: ﴿ان أنت إلاّ نذير﴾[1] او ان الرسول ﷺ نفسه يقول: ﴿ان انا الا نذير مبين﴾[2]. وهنا يبين النداء العالمي للقرآن ويقول انه يبلّغ العالمين ان يحترزوا من الخلاف ويحذرهم من الفساد؛ لأن مستقبل الانسان الفاسد أسود ومظلم، وان الأشخاص المفسدين قلقون وخائفون وحزينون من مستقبلهم ﴿لانذركم به ومن بلغ﴾.

وما نزل على قلب الرسول الطاهر ﷺ فهو الآن بعينه بين أيدينا وحجة الله تامة علينا. نسأل الله ببركة القرآن ان يجعل قلوبنا جميعاً أوعية لمعارف القرآن وكلمات أولياء الله عليهم السلام وان يكون القرآن شفاء لأمراض قلوبنا وان يقرننا الله بالقرآن في الدنيا والبرزخ ويحشرنا معه في القيامة، فلا ننفصل آناً عن القرآن، وان يتقبل سبحانه هذه المباحث بأحسن وجه ويهدي ثواب هذه الكلمات والاستماع اليها ـ بعد منّه بالقبول ـ الى أرواح الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ونسأله تعالى أن يوفقنا لاداء مسؤوليتنا ووظائفنا، وأن يجيب هذه الدعوات في حق الجميع.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة فاطر، الآية (٢٣).

(٢) سورة الشعراء، الآية (١١٥).

الدرس الثاني والعشرون

وظيفة حاملي العرش وكيفية استغفارهم

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

السور المكية عموماً، والسور السبع التي تبتدىء بـ﴿حم﴾ بشكل خاص، تبين أصول الدين والمعارف الالهية العامة؛ أي ان معنى التوحيد وضرورة التوحيد، ومعنى الوحي والنبوة وضرورة الرسالة، ومعنى المعاد، وضرورة القيامة، وسائر المسائل الأصولية التي ترجع الى هذه المعارف العامة تتناولها هذه السور القرآنية أكثر من سائر السور. ولهذه السور المفتتحة بـ﴿حم﴾ مضمون مشترك، تشترك على أساسه الحروف المقطعة في أوائلها.

احدى المعارف الرفيعة التي تعرضها هذه السور مسألة الملائكة والعرش ووظيفة حملة العرش وكيفية استغفارهم، ولمن يستغفرون. القرآن الكريم، وضمن اعتباره مجموعة من الملائكة حملة للعرش، وذكره

أعمالهم وأدعيتهم، يدعو الانسان لأن يكون ملكاً أيضاً ويرغبه في استحصال الطبيعة الملائكية فقد ورد في سورة «غافر» المباركة والتي تسمى بسورة المؤمن أيضاً، والتي هي احدى الحواميم السبعة قوله تعالى: **﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾**[1].

فمن قوله **﴿يحملون العرش﴾** يتضح ان العرش من مقام الفعل الالهي ومن الأوصاف الفعلية لله سبحانه، لا من مقام الذات ولا الأوصاف الذاتية للحق تعالى؛ لأن الذات وأوصاف الذات أعلى من ان تحمله الملائكة. **﴿الذين يحملون العرش﴾** وحملة العرش هم الملائكة كما قال في الآية الأخيرة من السورة التي سبقتها أي (الزمر): **﴿وترى الملائكة حافّين من حول العرش﴾**[2] اذن فحملة عرش الله هم الملائكة. والذين حول العرش هم من المقربين وأولياء الله. وبرنامجهم ـ كالملائكة المقربين الآخرين ـ هو أن يسبحوا ويحمدوا الله عز وجل.

يرى القرآن الكريم الناس الكاملين وأولياء الله قرناء الملائكة، ويرى الناس المفسدين والمتخلفين قرناء الحيوانات. الفرق بين الانسان الكامل والانسان الشقي هو ان الانسان الكامل سائر نحو التعالي ومرتق فوق الطبيعة، ولذا سيكون مع الملائكة. اما الانسان الجاهل والغافل والمغرور والمستسلم للطبيعة فسيكون كالحيوانات. وهذا الموضوع ملحوظ في القرآن الكريم بشكل جيد. فعندما يكون الحديث عن العلم والمعرفة

---

(١) سورة غافر، الآية (٧).

(٢) سورة الزمر، الآية (٧٥).

والفضيلة فانه يذكر الملائكة الى جانب العلماء الالهيين وأولياء الله تعالى.
وعندما يكون الحديث عن الطبيعة والدنيا والانشداد اليها والأكل والشرب، فانه يذكر الناس الغافلين مع الحيوانات (في مورد واحد). عندما يتحدث عن النعم المعنوية فانه يذكر الانسان الكامل والملائكة معاً.

في سورة آل عمران وحيث الحديث عن المعرفة والتوحيد يقول تعالى: ﴿**شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط**﴾[1]. فهنا ذكر العلماء الموحّدين الى جانب الملائكة، لأن الحديث عن المعرفة والمعنوية.

أما عندما يكون الحديث عن الأكل والشرب والانخداع بالطبيعة فيقول: ﴿**ويأكلون كما تأكل الأنعام**﴾[2]. او عندما يكون الحديث عن النعم المادية يقول: ﴿**انا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فانبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غلبا * وفاكهة وابا * متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾[3].

ويقول في موضع آخر: ﴿**وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى * كلوا وارعوا أنعامكم**﴾[4]. فيذكر الانسان الطماع الذي همّه بطنه الى جانب الحيوانات في موضع واحد. لأن الانسان يمتص الغذاء من حيث ان له مرتبة حيوانية او أدنى منها أي المرتبة النباتية. ولهذا يقول القرآن الكريم ان الانسان العاقل والعارف على مستوى ملك. والانسان المأخوذ

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨).
(٢) سورة محمد، الآية (١٢).
(٣) سورة عبس، الآيات (٢٥ ـ ٣٢).
(٤) سورة طه، الآيتين (٥٣ ـ ٥٤).

بالطبيعة على حدّ حيوان.

في هذه السورة أيضاً، قرن الله الناس الكاملين الذين ينشغلون بالتسبيح والتحميد والدعاء والثناء والتفكير بالآخرين ونجاتهم، بالملائكة وذكرهم في موضع واحد، حيث قال: ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله**﴾، فحملة العرش وهم الملائكة. ﴿**ومن حوله**﴾ أيضاً، أي المقربين والبشر الكاملين، يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا. فهم أهل الدعاء والثناء، كما أنهم يفكرون بنجاة الآخرين. ويسبحون الله أي ينزهونه من كل نقص وعيب.

ليس العرش بمعنى الكرسي الجسماني الذي يستقر الله عليه. فالله منزه من الاحتياج الى شيء. منزه عن أن لا يعلم شيئاً أو يعجز عن شيء. منزه من البخل. واقترن تسبيحهم بالحمد لأنه اذا أحس الانسان، أو أي ممكن آخر، بنقصه او نقص الأشياء الأخرى فانه ينزه الله من هذه النقائص ويقول ان الله منزه من كل عيب ونقص. وعندما يشعر الكائن بكماله وكمال الموجودات الأخرى ويدرك ان هذا الكمال انما هو نعمة أنعمها الله عليه او على الموجودات الأخرى، يحمد الله على هذه النعم والعطايا، لهذا فهو يسبح ويحمد.. فهو ينزه الله عن أي نقص، ويعتبر كل النعم من الله ويحمد الله عليها. فتسبيحهم مترافق مع الحمد، وهذا هو أدب الدعاء والتضرع.

﴿**ويؤمنون به**﴾ أي: يؤمنون بالله المنزه من كل نقص وعيب، والمبدأ لكل خير وكمال أي يؤمنون انه أهل للتسبيح وأهل للتحميد.

﴿**ويستغفرون للذين آمنوا**﴾ فحملة العرش وأولئك المقربون الذين وصلوا عرش الله، يفكرون بالآخرين. وهذا من الأدب القرآني حيث يقول

ان الملائكة والناس المقربين لا ينسون المؤمنين بل يستغفرون لهم جميعهم. فانه وان قال في آية أخرى انهم **﴿يستغفرون لمن في الأرض﴾**، الا انه فسر هناك بأن الملائكة لا يرون غير المؤمنين أحداً. فان قال في سورة الشورى بأنهم **﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾** وقال في سورة غافر انهم **﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾، فالعلة في ذلك انهم لا يرون غير المؤمنين أحداً، لأن المؤمن مضيء واضح، وغير المؤمن مظلم غامض والشيء المظلم لا يرى، ولهذا فغير المؤمن لا يمكن رؤيته.**

الملائكة لا يرون غير المؤمنين. ولا نقص في أبصار الملائكة ورؤاهم، بل ان هذا الفريق ليسوا قابلين ولائقين للرؤية. انهم غائصون في الظلمة، لم يحصلوا نوراً كي يضيئوا ويكونوا قابلين للرؤية. اذن، فان قال في موضع آخر من القرآن الكريم انهم **﴿يستغفرون لمن في الأرض﴾** فالمقصود خصوص أهل الايمان، لأن المؤمن هو النوراني: **﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾**[1].

فحملة العرش والملائكة الآخرون يستغفرون للمؤمنين للعفو عنهم ان صدر منهم زلل ما ولتحقيق تكاملهم ان احتاجوا الى تكامل وتنبيههم من غفلتهم ان كانوا منشغلين بالمباحات لينشغلوا بالمستحبات، ولكي لا تؤثر بهم الأمور العادية ان كانوا منشغلين بالأمور العادية. لقد كان رسول الله ﷺ يستغفر في اليوم والليلة سبعين مرة. كل ذلك لئلا تلهيه الأعمال العادية فيغفل، ويتراكم الغبار الرقيق على صفحة القلب الشفافة.

ثم تشرح الآية تضرع الملائكة وكيف يدعون، وكذلك تبين كيف يدعو

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٢٢).

البشر المقربون كالملائكة ويستغفرون الله تعالى. يقولون: ﴿**ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما**﴾: فكل ما هو شيء وله نصيب من الوجود، ويطلق عليه اسم الشيء، فهو مشمول برحمتك كما يحيط به علمك. كل ما هو في العالم موضع علمك وموضع رحمتك. ان رحمة الله لا نهاية لها، وعلمه لا انتهاء له؛ فهو يعلم فقر كل محتاج الى علمه المطلق، ويلبي حاجة كل مفتقر لرحمته الواسعة. لو كانت الرحمة من دون العلم فهي رحمة كاذبة، ولهذا يقول الملائكة والبشر الكاملون والقدوة: ربنا ان جميع الأشياء هي مشمولة لرحمتك وعلمك. فأنت عالم بها وباحتياجاتها جميعاً، وتلبيها جميعاً. فلا زال من جانب الممكنات السؤال والطلب ﴿**يسأله من في السماوات والأرض**﴾[1]، ومن جانب الله الافاضة وقضاء الحوائج أبداً: ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾[2] فالممكنات تسأل دوماً ودائم الفضل على البرية دوماً يجيب.

﴿**فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم**﴾: ربنا! اولئك الذين تابوا وأنابوا اليك وتوجهوا نحوك.. فاغفر لهم، وتقبل توبتهم وابلغ بهم مقاصدهم وأعنهم في الوصول اليك.. دلّهم على الهدف، واجعلهم دائمي الشوق في الوصول الى الهدف. فقد يكون الانسان تواقاً لبلوغ الهدف ولكنه لا يستطيع المواصلة نحوه. يقول الملائكة: «اللهم وسهل عليهم طي الطريق» خلاصة دعائهم هي ان يكون لهذه المغفرة ظهور مناسب في كل المراحل لسالكي طريق الله؛ إذ يمكن ان يتحقق للشخص رغبة بالهدف الالهي، لكنه لا يستطيع تنفيذ هذه الرغبة. يمكن ان يخطو المراحل الأولى بسرعة، لكنه يبقى وسط الطريق. يقول الملائكة: اللهم

---

(١) سورة الرحمن، الآية (٢٩).

(٢) سورة الرحمن، الآية (٢٩).

امنحهم توفيقاً يستطيعون به مواصلة الطريق وعدم الشعور بالتعب وعدم التوقف في وسط الطريق بعد ان حصل لديهم الشوق في قلوبهم، فانهم تابوا اليك واتبعوا سبيلك اللهم فاغفر لهم واجبر زللهم وأزل نواقصهم.

الاوبة الى الله تعالى ليست ضرورية في مقام الاعتقاد فحسب، بل هي لازمة في مقام العمل أيضاً. يقول الملائكة اللهم ان هؤلاء تعلقوا بك بقلوبهم واستسلموا اليك بأعمالهم فهم آمنوا بك واتبعوا سبيلك. فليس ايمانهم القلبي منفصلاً عن اتباع سبيلك وليست توبتهم من دون العمل الصالح، فقهم ـ إذن ـ من عذاب الجحيم أي النار الكبيرة والمتراكمة والملتهبة. أحفظهم ـ يا رب ـ من تلك النار المحدقة بالانسان، والتي لا سبيل له الى الخروج منها.

﴿ربنا وأدخلهم جنات عدنٍ التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم﴾[1] ربنا! وليس فقط نسألك غفرانهم وحفظهم من عذاب الجحيم، بل ونسألك ـ يا رب ـ ان تدخلهم الجنة.. جنة عدن التي يتمتعون فيها بكل راحة ورفاه.. حيث يشعرون بلذة الشبع من دون عناء الأكل، ويحسّون بلذة الارتواء من دون عناء الشرب. اذ لا تعب في الجنة أبداً ولا عناء.. لا عناء الجوع ولا عناء العطش، لا عناء الأكل ولا عناء الشرب. فان كان ثمة أكل فهو بلا عناء، وان كان من شرب فهو لا عناء فيه يطلب الملائكة من الله ان ينجي المؤمنين من العذاب، وان يدخلهم جنات عدن التي وعدهم بها.

ولا يخلف الله وعده. وعد الله المؤمنين بجنة عدن وسيدخلهم كما

---

(١) سورة غافر، الآية (٨).

وعدهم جنة السعادة هذه ورغم ان الانسان ـ سواء كان في الجنة أو في النار ـ غير خارج عن دائرة القدرة الالهية على أية حال، لكن الجنة وأهلها يحظون بقربٍ خاص من الله تعالى؛ في حين ان النار وأهلها محرومون من ذلك القرب ومبتلون بالبعد عن الله تعالى ﴿ينادون من مكان بعيد﴾[1] . ومع ان الله لا يخلف وعده، لكن طلب هذا الأمر منه مرغوب ومطلوب بصفة تضرع ودعاء يطلب الملائكة منه ـ تعالى ـ ليس فقط ان يدخل المؤمنين الجنة، بل وأن يدخل الجنة كذلك من صلح من آبائهم وأزواجهم وأبنائهم. فالله تعالى كما يدخل الأشخاص الكاملين الجنة كذلك يدخل متعلقيهم الذين طووا الصراط المستقيم تبعاً لهم وهو يلحق هذا الفريق الثاني بالأول دون ان ينقص من مقام الفريق الأول شيء.

في سورة الطور، عرضت بعض هذه المسائل بنحو آخر. يقول تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين﴾[2] . فأولئك المؤمنون الصادقون الذين اتبعهم ذريتهم وأبناؤهم في الايمان، أي ساروا خلفهم، سنلحق ذريتهم بهم، دون ان ننقص من عمل أولئك المحسنين شيئاً. فلا ينقص من عمل المحسنين الصالحين شيء ليعطى لذريتهم.

في سورة الطور يذكر الذرية فقط، أما في سورة غافر فيذكر الأزواج والآباء أيضاً. فهذه السلسلة من الناس الأخيار ـ إذن ـ هم كالشجرة الطيبة، وسيدخلون بأجمعهم ـ أي آباء المؤمنين وأمهاتهم وأزواجهم وأولادهم ـ جنة السعادة. أولئك المؤمنين الكاملين في الامام يلحقهم أتباعهم

---

(١) سورة فصلت، الآية (٤٤).

(٢) سورة الطور، الآية (٢١).

وذووهم.

﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ ربنا ليس فقط إن علمك لا محدود ورحمتك واسعة، بل ان عزتك وحكمتك لا متناهية أيضاً. فأنت العزيز حيث لا يصلك أحد ولا ينفذ فيك شيء، لأن العزة لا تخترق، ولازمة العزة الغلبة. وأنت الحكيم، وتضع الشيء المناسب في المكان المناسب.

مقطع آخر من أدعية الملائكة والكاملين من الناس هو ﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾[1] ليس فقط، احفظهم من جهنم وقهم عذاب الجحيم، بل نجّهم وصنهم وقهم من السيئات والأعمال السيئة والقبيحة أيضاً. وكل من تقه وتصنه من السيئات تكون قد رحمته، وهذا فوز عظيم لا شيء أعلى منه. لكن هل المقصود من السيئات هي معاصي الدنيا ام جزاء الذنوب في الآخرة ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[2]. رأي الأستاذ العلامة الطباطبائي ان هذه السيئات ـ في الظاهر ـ هي العقوبات الآخروية التي هي باطن سيئات الدنيا. أي أن ذنوب وسيئات الدنيا ستظهر في الآخرة على صورة ذنوب وسيئات تؤثر في الانسان وتزجره وتقلقه، ويستاء الانسان منها. فالعمل القبيح نفسه يظهر في الآخرة على صورة سيئة. . على هيئة يتأثر منها الانسان، لأن ﴿جزاء سيئة سيئة﴾. كذلك يقول السيد العلامة ان آياتٍ كثيرة في القرآن تشير وتدلل الى ان متن العمل يظهر في القيامة، فهو نفسه يظهر على صورة الجزاء.

والآيات من قبيل ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ تعضد هذا الرأي. يقول الله سبحانه ﴿انما تجزون ما كنتم تعملون﴾ كل ما تفعلونه يرجع اليكم

(١) سورة غافر، الآية (٩).

(٢) سورة الشورى، الآية (٤٠).

ونفس هذا العمل يظهر في القيامة، وليس كما في الدنيا، حيث يحدد جزاء اعتباري يوضع بازاء كل عمل مرتكب، بل ان العمل نفسه يظهر في القيامة على صورة سيئة. وأنتم الآن لا ترون باطن عملكم السيء، لكن هذا الباطن سوف يظهر في القيامة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل جاءه باناء فيه حلوى ليلاً: هل هذه زكاة أم صدقة أم صلة؛ قال الرجل: لا صدقة ولا صلة بل هدية. عندها قال الامام، تريد ان تخدعني عن دين الله بهذه الحلوى التي جئت بها إليّ هدية ورشوة؟ هل أنت مجنون؟ وهل يمكن ان آكل ما صنع من قيء الأفعى؟ هذا المال حرام، وهذه الرشوة كالشيء، الذي تأكله الأفعى ثم تقيئه ثم يعدّ على صورة غذاء. هذه صورة الرشوة من الداخل. فإنسان كامل كعلي عليه السلام، الذي ينظر الى الأعماق وبواطن الأشياء، يقول بهذا. وكلام المعصوم منزه عن الكذب والمبالغة أو التصوير الشاعري والخيالي. حديث المعصوم ميزان الأعمال وهو حديث الصراط المستقيم، وحديث ميزان الحق وصراط القسط والعدل. وقوله عليه السلام حول الخلافة من انها أهون عنده من عفطة عنز، ليس تشبيهاً شعرياً.

هذه التعابير ـ منه عليه السلام ـ كاشفة عن باطن العمل الحرام. وبناء على هذا، فان باطن السيئات ستظهر في القيامة على صورة عذاب، وهذا ما سنتوسع فيه إن شاء الله في الجلسة القادمة.

اللهم نقسم عليك بباطن القرآن الكريم والعترة الطاهرة الا ما جعلت قلوبنا أوعية لمعارف القرآن الكريم. اللهم ثواب هذه البحوث بعد قبولها

بمنّك الى أرواح الأنبياء والأولياء، واختم أمورنا جميعاً بالخير والسعادة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الثالث والعشرون

اصحاب اليمين واصحاب الشمال

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

في توضيح المضمون المشترك للسور المبدوءة بـ﴿حم﴾، وصلنا الى هذه النتيجة، وهي ان السور المكية عموماً وهذه السور السبع خصوصاً تشرح الخطوط العامة للوحي ومعنى التوحيد والأسماء الحسنى لله تعالى، وضرورتها، ومعنى الوحي والنبوة، وضرورة الرسالة، ومعنى المعاد، وأحكام القيامة وضرورة عالم ما بعد الموت. كذلك تم في هذه السور السبع تناول المعارف المتعلقة بهذه الموضوعات، والتي إحداها مسألة العرش وحملة العرش وأقوالهم.

فعرش الله هو مقام التدبير والحكم الالهي، والذي هو أمر علمي ومجرد، وليس أمراً جسمانياً، كما انه ليس على سبيل التشبيه الصرف والتمثيل المحض. فهو حقيقة خارجية خلقها الله تعالى حيث يتم تدبير

العالم الخارجي أيضاً من ذلك المركز والمنطلق يسمى الملائكة الموكلون بتنفيذ خطط وبرامج ذلك المقام بحملة العرش. والناس الكاملون الذين يحيطون به كالملائكة ملحقون بالملائكة.

ذكرت في سورة غافر أحاديث الملائكة الذين يحملون عبء العرش الثقيل وقد مر قسم منها في الجلسة السابقة وفي تكملة أحاديث حملة العرش تواجهنا الجمل التي تطلب من الله وقاية المؤمنين والأفراد الصالحين.

ففي أدعية حملة العرش ترد الجملة التالية: **﴿وقهم السيئات ومن تقِ السيئاتِ يومئذٍ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾**[1] والمقصود من تلك السيئات هي نتائج الأعمال القبيحة، فجزاء سيئات الدنيا تسمى بأسماء السيئات نفسها في يوم القيامة.

فـ**﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾**[2]. فانه وان كان إنزال العقوبة على العمل السيّيء حسناً، ولكن القرآن عبر عنه بالسيئة من باب المشاكلة، فقال **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾**؛ وهذا يدلل على ان سيئاتنا الدنيوية نفسها ستظهر على هيئة السيئات الأخروية. أي على صورٍ سيئة... صور يتألم وينزعج منها أصحابها، لأن للعذاب صلةً وجودية بالكافر أو المنافق الذي يعذّب، بل انه نفسه يتمثل على صورة نارٍ ملتهبة **﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾**[3]، فهم يحترقون كما أنهم يتأثرون ويعذّبون.

فان نجيّ أحد وتخلص في يوم القيامة من العقوبة المؤلمة فقد فاز فوزاً عظيماً. والفوز العظيم هو ان يتخلص الانسان من السيئة ويغدو ـ بنفسه ـ

---

(١) سورة غافر، الآية (٩).

(٢) سورة الشورى، الآية (٤٠).

(٣) سورة الجن، الآية (١٥).

حسنة؛ فكما أن جزاء السيئة سيئة مثلها، فكذلك جزاء الحسنة حسنة ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة﴾[1]، فللذين تحرروا من السيئة حسن فعلي وحسن فاعلي؛ فأفعالهم حسنة كما أنهم هم حسنون وأعمالهم صالحة كما أنهم مؤمنون، وهم طيبون في مقام الذات كما أنهم طاهرون في مقام العمل.

هذا الصنف من الناس سيصير بنفسه حسنة ولا ينال وجوههم ذلة؛ فالذلّة بعيدة عن المؤمن ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة﴾، فلن يجد الضيق والضغط والاقتار والافتقار والعسرة والذلة طريقاً الى المؤمن. هذه جوانب من أدعية الملائكة وسائر الناس المقربين.

بناء على هذا، يستفاد عدة مطالب من هذا القسم من سورة حم؛ أولاً: ان عرش الله حقيقة خارجية وليس تمثيلاً ذهنياً أو كناية أدبية نظير قوله تعالى ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة﴾[2] فهذا تمثيل أدبي، لأنه قال بعد ذلك: ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾[3]، لأنه لا وجود في العالم الخارجي لشيء باسم شجرة الزيتونة الالهية أو الزجاجة الالهية او المصباح الالهي. أما وجود العرش فحقيقة خارجية. ففي النظام الخارجي مقام باسم عرش الله حملته الملائكة ويستقر حوله الناس الكاملون منشغلين بتلبية الأوامر الالهية، فهم أهل التضرع والتسبيح والتحميد وهم مؤمنون بالله ﴿ويؤمنون به﴾[4]، ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾. وقد شرح القرآن أدب الدعاء عند

(١) سورة يونس، الآية (٢٦).
(٢) سورة النور، الآية (٣٥).
(٣) سورة النور، الآية (٣٥).
(٤) سورة غافر، الآية (٧).

الملائكة، وهو دعاء وطلب ظهور أسماء الله تعالى في عالم الحقيقة والخارج. فكل موضوع يطلبه الانسان يحمد الله تعالى ويسبحه باسم من أسمائه المناسبة، ويدعوه تعالى بذلك الاسم؛ لهذا قال الملائكة ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾[1] وقد مرّ هذا البحث سابقاً.

ثم أنهم يكررون كلمة ﴿ربنا﴾ أي يستعيذون بالله كراراً ويلجأون اليه لطلب العون والمدد الالهي، ولا يظل هذا السؤال والنداء بلا جواب. فلو قال أحد يا الله فسيسمع جوابه.

﴿ربنا وأدخلهم جناتِ عدنٍ التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنّك أنت العزيز الحكيم﴾[2] وقد مرت هذه أيضاً في الجلسة السابقة إلى حد ما. ﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾ وهذا الالتماس يكشف أن الملائكة وحملة العرش يطلبون من الله الفوز العظيم للمؤمنين. فأدب الدعاء هو ان تطلب من الله الفوز العظيم، وهو تحصيل المعارف في الروح والتوفر على الأخلاق الفاضلة في القلب والقيام بأعمال الخير على مستوى الأعضاء، فان هذه المعرفة وهذا الخلق وهذا العمل، ستظهر في القيامة على هيئة حسنات وتكون «جنة اللقاء» و﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. اذن، فأصل الدعاء وكيفيته وسعة الدعاء وأثره تبينه هذه الآيات؛ والانسان الكامل الذي يخطو على طريق الملائكة ويسير نحو الملائكية سيكون مؤدباً بهذه الآداب والآثار.

وفي مقابل هذا الفريق الذين هم من المقربين أو بعضهم من أصحاب

---

(١) سورة غافر، الآية (٧).

(٢) سورة غافر، الآية (٨).

اليمين. هناك فريق آخر وهم أصحاب الشمال. فان كان في العالم ملائكة، ففيه الأبالسة والشياطين أيضاً. وان كانت هناك الطبيعة الملائكية فهناك الطبيعة الشيطانية أيضاً، وان وجد الانسان الكامل فيوجد الانسان المجرم أيضاً، وان كان الانسان الكامل يهب لنفسه الكمال فان الانسان الجاهل يذيق نفسه ـ أيضاً ـ طعم العذاب. الانسان الكامل يمنح نفسه وذائقته طعم العلم، والجاهل يمنح نفسه مرارة الجهل. الانسان المجرم يلوث روحه ويظلم نفسه، في حين ان الانسان النزيه يرحم روحه ويحرر نفسه من مخالب الطبيعة.

ثم قال: **﴿ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون الى الايمان فتكفرون﴾**[1] فانه يقال يوم القيامة للمجرمين: أنتم الذين ابتليتم بعذاب الله الشديد اعلموا أنكم قد وقعتم اليوم تحت سخط الله ومقته أكثر مما ظلمتم أنفسكم. تحتوي هذه الآية الكريمة على عدة مواضيع:

الأول: ان الكفر والذنب ممقوت.

الثاني: ان الذي يكفر او يذنب انما يوجه هذا الغضب والقبح الى نفسه لا الى الغير. لا يمكن ان يترك الكافر أثراً سيئاً ـ بالذات والأصالة ـ في عالم الوجود، بل انه يسيء الى نفسه أولاً وبالذات، ثم يلحق الضرر بما هو خارج عنه بالعرض. فان قال القرآن انه **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾** فهذه هي الآثار التبعية للكفر والجهل. اما الأثر المباشر للكفر والمعصية فيصيب روح الكافر والعاصي نفسه وحسب فكل من ارتكب

---

(١) سورة غافر، الآية (١٠).

معصية فانما يضر نفسه ويؤذيها أو ليس يقوم الانسان باداء الأعمال عن طريق النية والتصميم والارادة وعن طريق الحب والبغض؟ أو ليست هذه ملكات نفسية؟ او ليس ان الملكات النفسية تؤثر أولاً في النفس ثم في الخارج؟ أو ليست الرغبات والمدركات لا تخرج من حرم القلب الا بالعرض والتبع؟ وعلى هذا فمن يسيء فانما يسيء الى نفسه كما ان من يحسن فانما يحسن الى نفسه ﴿**ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها**﴾[1]. هذا هو منطق القرآن الكريم، فمن يختل ويخدع فانما يخدع نفسه. ومن يتآمر ويفتن ويمكر فعلى نفسه، ومن يغضب ويحمق فعلى نفسه، ومن يفكر في تضليل الآخرين فانما يكون قد ضلل نفسه.

تقول الآية مورد البحث انكم أنتم الذين كفرتم انما مقتّم أنفسكم. فكفركم ليس بمعنى أنكم غضبتم على الله او العالم الخارجي. بل ان غضبكم هذا وغيظكم وبغضكم متّجه الى أرواحكم «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك».

فهنا مسألتان:

الأولى: ان كل ما يصيب الانسان فمن نفسه وحسب.

الثانية: ان الانسان اذا غضب، فغضبه على نفسه وليس على الله وعلى الغير. وهذه الثانية مهمة جداً.

أما النقطة الأولى وهي ان من يرتكب مخالفة ما فإنما يعمل ذلك ضد نفسه، فقد وردت في سورة البقرة والأنعام وآل عمران والسور الأخرى. ففي سورة البقرة، عن المخادعين قال: ﴿**يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون**

---

(١) سورة الاسراء، الآية (٧).

الا أنفسهم وما يشعرون﴾[1] فمن أغلق الطريق بوجوه الآخرين فانما يكون قد خدع نفسه. ومن اعتدى على حق الآخرين وأعراضهم فقد خدع نفسه، اذ لم يتخلق بخلق الملائكة ولم يتطبّع ملائكياً، بل صار انساناً مفترساً فاتكاً. وان انحصر همّ احد ما بالأكل والشرب واللبس فقد خدع نفسه بأن تشبّه بالحيوان المنشدّ الى الأرض، لا الملك المحلق في السماء. ومن وضع نفسه تحت تصرف الطبيعة فقد خدع نفسه بأن بقي بين طين وطيات الطبيعة **﴿اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾**[2] ولم يكن كحملة العرش في حين كان يمكنه ذلك.

وقال في سورة الأنعام أيضاً **﴿وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون﴾**[3].

فلو سلب أحد بالخداع متاعاً دنيوياً من شخص آخر، فقد ألحق الضرر المعنوي بنفسه قبل أن يلحق الضرر المادي بالآخر، وأنزل نفسه من المرتبة الملائكية الى الدرك الشيطاني. فمكره وخديعته ضرر كبير غير قابل للجبران يلحقه بنفسه ولكنه لا يشعر.

وعن الذين يسعون بكتاباتهم وأقوالهم الى اضلال الآخرين وجرّهم الى الطريق الملتوي، يقول **﴿وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون﴾** فهؤلاء يضلون أنفسهم ولا يعلمون ما يفعلون فان سدوا الطريق بالخديعة أمام أحد فقد حفروا في داخل أنفسهم أولاً بئراً عميقة وسقطوا فيها، واستعدوا أن يعيشوا في خبث وشر ليضلوا الآخرين. في هذه الآية نفسها من سورة غافر،

---

(١) سورة البقرة، الآية (٩).
(٢) سورة التوبة، الآية (٣٨).
(٣) سورة الانعام، الآية (١٢٣).

قال ان المقت الذي تحملونه هو مقت لأنفسكم لا للآخرين؛ فكونكم تتخذون موقفاً من الله ولا تستمعون لحديثه وتظهرون العناد، فهذه عداوة لأنفسكم أنتم.. هذا مقت لأنفسكم أنتم: **﴿ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون﴾** اذ انه **﴿ان تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فان الله لغني حميد﴾**[1].

اذن، فالايمان كمال لكم؛ وعليكم ان تسعوا للوصول الى هذا الكمال. وكفركم ومعاداتكم وغيظكم وغضبكم انما هو على أنفسكم. ولكن اعلموا أنكم يوم تأتون الى محكمة العدل الالهية فان غضب الله ومقته سيكون أكبر من غضبكم على أنفسكم ومقتكم لها.

فالموضوعان اللذان تناولهما المقطع الأخير هما:

أولاً: ان أي مخالفة يرتكبها الانسان، وأي غضب او تنمّر او استئساد يظهره ازاء الأمر الالهي والوحي الالهي فهو غيظ وغضب وبغض ومقت لنفسه هو.

ثانياً: ان غضب الله على الانسان ومقته له لن يكون بحجم غضب النفس الامارة على الانسان نفسه والتي هي أعدى عدوه فحسب، بل ان غضب الله سبحانه على الانسان أهم من غضب الانسان على نفسه؛ وتوضيح الأمر ان الانسان ليس قريباً الى نفسه فحسب، بل لا شيء أقرب الى نفسه منه، الا الله تعالى فهو أقرب الى الانسان من نفسه، وقد مر بحثه في مسألة التوحيد. بناء على هذا، فعلم الانسان بنفسه لا يساويه علمه بأي شيء، وكذلك سائر أوصافه النفسية؛ فمثلاً لو كان الانسان رؤوفاً ورحيماً بشيء

---

(١) سورة ابراهيم، الآية (٨).

فلن يكون ذلك بحجم رأفته ورحمته بنفسه أبداً. ان رحمة الانسان بنفسه أكثر من رحمة الانسان بغيره، يقيناً؛ وقدرة الانسان على نفسه أكثر من قدرته على الأشياء الأخرى، وهكذا الصفات والكمالات الأخرى.

ان الانسان أرأف بنفسه وأرحم وأعلم وأقدر من أي شيء آخر. أما الله تعالى فهو أكمل في جميع هذه الأوصاف. أي ان الله تعالى أعلم بالانسان من الانسان نفسه ﴿واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه﴾[1] فالاحاطة العلمية لله بالانسان فاصلة وواسطة بين الانسان وبين حقيقة الانسان. فعلم الله المطلق يستوعب علم الانسان ويستغرقه ويتجاوزه. لا يمكن ان يكون علم الانسان بنفسه أكثر من علم الله بالانسان. ففي مسألة العلم اذن يكون الله تعالى أعلم بالانسان من الانسان وهكذا من حيث القرب أيضاً، فان الله تعالى أقرب الى الانسان من الانسان نفسه. فان كان الله تعالى موجوداً في جميع ذرات العالم من دون امتزاج واختلاط، فانه لا توجد مرحلة يكون للانسان حضور وظهور بمستوى ذلك الحضور والظهور الالهي فعلم الله بالانسان أقوى من علم الانسان بنفسه، وكذلك قدرة الله تعالى على الانسان أكثر من قدرة الانسان على نفسه؛ لأن علم الله سبحانه هو عين قدرته. فالحضور والظهور والاحاطة العلمية وسائر الكمالات والأسماء الحسنى ستكون كذلك أيضاً، ولهذا كان الله سبحانه وتعالى أرأف بالانسان من الانسان نفسه: «يا من هو أرحم بي من نفسي» بل ان الله أرحم الراحمين بالقول المطلق، ولا يمكن لأحد ان يكون أرحم بنفسه أو بغيره من الله تعالى «يا من هو أرحم بي من نفسي». لا يمكن أن نكون أرحم بأنفسنا من الله تعالى بل انه سبحانه وتعالى هو «أرحم الراحمين بالقول المطلق» ولا يمكن ان يكون أحد

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٢٤).

أرحم بنفسه وبالآخرين من الله تعالى لأنه سبحانه ينزل رحمته بشكل مطلق لا محدود.

لو أراد الانسان أن يرحم نفسه فان علمه وقدرته وادراكه للمصلحة ستكون محدودة، اما الله سبحانه فاذا أراد ان يرحم الانسان فان علمه، ورؤيته للمصلحة التي تعود الى علمه، وكذلك قدرته غير محدودة. بناءً على هذا، لا يمكننا أن نكون أرحم بأنفسنا من الله تعالى. ان الله أرحم وأرأف بنا من أنفسنا. وكذلك الأمر بالنسبة للغضب والمقت فان أراد أحد ان يسيء الى نفسه ويبغضها ويمقتها، فلا يمكن ان يكون غضب الانسان على نفسه أكثر من غضب الله على الانسان؛ لأنه ـ تعالى ـ أشد المعاقبين ـ على الاطلاق. لا يمكن ان يكون الانسان أشد غضباً على نفسه من غضب الله سبحانه فان أراد الانسان ان يمقت نفسه ويكفر بالله وينكر جميع المعارف الالهية ويقدم على المعاصي الكبيرة، ويكون مشركاً في مقام العقيدة ومتورطاً بالرذائل النفسية في مقام الأخلاق، ومستسلماً للفساد والاجرام في مقام العمل، وجوز لنفسه أيّ بغض وغضب فان الابتلاء بجهنم و﴿**نار الله الموقدة**﴾ وهو الغضب الالهي أقوى من غضب الانسان على نفسه. يقول تعالى ﴿**فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد**﴾[1]، أي انه تعالى يعذّب المفسد في يوم القيامة عذاباً لا يكون بوسع أحد القيام، ويوثقه بوثائق لا يوثقه أحد اياه. فلا أحد بموثقٍ [أحداً] مثل الله ولا أحد بمعذب [أحداً] مثل الله.

لأن التعذيب والتوثيق أي التأسير يحتاج علماً كافياً ويحتاج قدرة كاملة، ولا أحد لديه علم مثل علم الله، ولا لأحد قدرة كقدرة الله. فمهما

---

(١) سورة الفجر، الآيتين (٢٥ ـ ٢٦).

يمقت الانسان نفسه ويبغضها ويغضب عليها فان غضب الله على الانسان ومقته أكثر وأكبر من ذلك.

لذلك قال في الآية مورد البحث ﴿**ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون**﴾ أي انكم حين دعيتم الى الايمان فكفرتكم فانما ظلمتم أنفسكم وكان يجب عليكم ان تزكوا أنفسكم ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾[1]، لكنكم قمتم بإهالة تراب الطبيعة والغرائز والميول على رؤوس أرواحكم الالهية ودفنتموها في الطبيعة ﴿**وقد خاب من دساها**﴾[2]: خسر من دفن نفسه في ركام الطبيعة. أصل ﴿**دساها**﴾ دسسها اي أن السين الثانية قد أدغمت في الأولى، والدسيسة: الدفن والاخفاء، فالشخص الخائن يخفي روحه ويدفنها في الطبيعة، انه لا يدع روحه الملكوتية ترتقي من الطبيعة أبداً لترى ما وراء الطبيعة، فكل ما يراه ويطلبه هو التراب والأمور الترابية انه لا يفكر بشيء أرقى، لأن الانسان المدفون في الطبيعة لا يرى مكاناً بعد ذلك. . الانسان الكافر قد دفن نفسه في الطبيعة انه لا يتكامل أبداً ولا يصل الى الله ولا يلبي دعوة الأنبياء الذين قالوا ﴿**تعالوا**﴾ الى الأعلى، لأنه غائص في الطبيعة.

ان القرآن يعلم الانسان الطريق الى الملائكية ويقدّم له صورة الانسان الكامل، كما يشرح الشيطانية ويعرّفه بالشياطين أيضاً. في سورة غافر يبين - أولاً - الصراط المستقيم والطريق الالهي بصورة عامة، ثم يذكر على سبيل المثال قصة فرعون الذي ابتعد عن صراط الله وقتله الناس ﴿**وقال فرعون ذروني اقتل موسى وليدع ربه اني أخاف ان يبدل دينكم او ان يظهر في الأرض**

---

(١) سورة الشمس، الآية (٩).

(٢) سورة الشمس، الآية (١٠).

الفساد﴾[1] هذه تبريرات الطواغيت ﴿وقال موسى اني عذت بربي وربكم من كل متكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب﴾، انا أيضا أعوذ بالله من كل انسان مستكبر يستسلم للاستكبار على أثر النسيان ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ وهذا هو الانسان الكامل الذي يفهم الآيات الالهية ويقوم من أجل الدفاع عن دين الله ونبيّ الله، ويذوق الشهادة في سبيل الله، ويتحرر من عالم الطبيعة، ويهتم - كالملائكة والذين يحملون العرش - بنجاة المؤمنين الآخرين.

نسأل الله تعالى ببركة القرآن الكريم أن يجعل قلوبنا جميعاً أوعية لمعارف القرآن وأحاديث الأئمة المعصومين. وان يهدي ثواب هذه المباحثات - بعد قبولها - كأحسن هدية الى الأنبياء والأولياء وأن يشمل المحدثين الاسلاميين والمتكلمين الالهيين وجميع المحققين والباحثين في طريق الدين وشهداء الاسلام برحمته الخاصة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة غافر، الآية (٢٦).

الدرس الرابع والعشرون

العمل لا ينفصل عن الفاعل أبداً

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

كان البحث حول المضمون المشترك للسور السبع المبدوءة بـ ﴿حم﴾، والمسماة ـ مجموعاً ـ باسم الحواميم السبعة. إذ بما أن هذه الأحرف المقطّعة ناظرة الى مضمون السور؛ وهذه السور السبع، وبالرغم من الخصوصيات التي لكل منها، لها مضمون مشترك؛ ولذا كانت الحروف المشتركة في بداية كل منها باسم ﴿حم﴾.

المضمون المشترك لهذه السور السبع هو توضيح الخطوط العامة للوحي وما أتى به، أي التوحيد والنبوة والمعاد؛ وما تناولته هذه السور بشكل جليّ هو تبيين الأصول المذكورة؛ فالوحي الالهي يدعو الناس الى الاعتقاد بتلك الأصول والمبادىء، أي مبدأ العالم ومعاده والمسير الذي بين المبدأ والمعاد الذي هو النبوة والرسالة ذاتها بعد اتضاح الخطوط العامة

للوحي وما أتى به الوحي، ينقسم الناس تجاه وحي الأنبياء عليهم السلام الى فريقين؛ فريق يؤمن به ويصدقه وينال السعادة الأبدية وهؤلاء هم سالكوا الصراط المستقيم. وفريق آخر ينكرون الوحي ويعاندونه فيبتلون بالشقاء الأبدي، وهؤلاء هم المنحرفون عن الصراط المستقيم.

حدثنا في الجلسات السابقة أسلوب تفكير أصحاب الصراط المستقيم، ونتيجة ايمانهم وأعمالهم الصالحة؛ كما تم توضيح أن ملائكة السماء هم في ذكر هؤلاء، ويستغفرون ويدعون لهذا الفريق. اما بشأن اولئك الذين اختاروا الطريق المنحرف وتركوا الصراط المستقيم ولم يؤمنوا بالمبدأ والمعاد والنبوة، وعن مصيرهم وعاقبة أمرهم وما ينتظرهم بعد الموت في يوم القيامة، والعبارات التي يقولونها يوم القيامة، وتضرعاتهم وتوسلاتهم في ذلك العالم، فقد جرى الحديث عنها في سورة "غافر" المباركة التي بدايتها ﴿**حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم**﴾[1]. وبعد عدة آيات فيها يرد ذكر قصة الفريق الثاني الذين انحرفوا عن الصراط المستقيم: ﴿**إنّ الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون الى الايمان فتكفرون**﴾[2] والنداء غير النّجوى، فالنجوى هي عندما يكون المتكلم والمستمع قريبين من بعضهما ويتحدثان متهامسين في المناجاة المشتقة من النجوى يكون المستمع حاضراً لدى المناجي. أما النداء فهو حيث يكون المستمع بعيداً عن المتحدث. ان كلام الله مع المؤمنين نجوى، ومع الكافرين نداء. فمن كان بين يدي الله سبحانه فلا حاجة له الى النداء، اما من كان بعيداً عن الله فينبغي ان يتكلم معه عن طريق

---

(١) سورة غافر، الآيتين (١ و٢).
(٢) سورة غافر، الآية (١٠).

النداى ﴿ينادون من مكان بعيد﴾[1] لأنهم بعيدون جداً عن رحمة الله تعالى. فهذا النداء لا يعني ان الله بعيد او ان المتكلم والمنادين الالهيين بعيدون، بل بمعنى أن السامع بعيد [اي المخاطب بعيد]، فالقرب المعنوي ليس كالقرب المادي، في القرب المادي لو كان شيء ما قريباً الى شيء آخر، فان الشيء الآخر يكون قريباً الى الشيء الأول أيضاً. مثلاً لو كان «أ» قريباً من «ب» فإن «ب» قريبة الى «أ» أيضاً.

أما في القرب المعنوي فليس الأمر كذلك. يمكن أن يكون «أ» قريباً الى «ب» أما «ب» فيكون بعيداً عن «أم». فبما أن «أ» شاهد فهو يرى «ب» أما «ب» فبما انه أعمى فلا يرى «أم». فمن جهة قرب ومن الجهة الأخرى بعد.

ان الله تعالى أقرب الى كل انسان من حبل الوريد، لكن المؤمن قريب من الله، والكافر بعيد عن الله؛ لأن ما يقترفه يبعده عن الله؛ لهذا كان النداء هو ما يناسب الكفار، لا بمعنى ان الله والملائكة بعيدون، لأن الله بكل شيء محيط بل لأن الكافر هو البعيد عن الله وهو الأعمى. فقد يكون للأعمى صديق راقد الى جانبه ولكنه لا يراه لأنه أعمى، كما قد لا يسمعه لو كان أصماً فاقداً للسمع. ومن لم يكن أهلاً للادراك فانه لا يدرك اشارات صديقه أيضاً. فليس للكافر روح كي يفهم المعارف الالهية، ولا اذن كي يسمع كلام الله، ولا عين فيبصر جمال الله، لأنه أغلق بالذنوب نوافذ أذنيه وعينيه، وسدّ بالشر والتلوّث منافذ روحه أيضاً، فـ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها﴾. ووفق هذه الرؤية والنظرة كان الكافر بعيداً عن الله وان كان الله سبحانه أقرب من كل شيء منه. وبما ان الكافر بعيد، لذلك فهو ينادى، ولا يناجى. وينادى بالنداء المناسب مع بُعد

(١) سورة فصلت، الآية (٤٤).

المنادى . . النداء الذى ليس رؤوفاً ولا رحيماً، بل هو نداء الله القهار المنتقم.

ان الكافر يحس بنداء القهار المنتقم فقط ولا يحس بنداء الرحمن الرحيم.

﴿ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم﴾. يقال لهم في القيامة؛ اولا: ان كفركم وانكاركم في الدنيا لم يضر أحداً سوى أنفسكم. فالانسان السيّيء الفكر لا يظلم الا نفسه. الشخص الملوّث الفاسد لا يلحق ضرراً بأحد ما عدا نفسه. والذنب يعني سقوط روح الانسان عن المسير التكاملي. الذنب: انحراف روح الانسان عن صراط السعادة، فليس للذنب أثر مباشر وبلا واسطة على العالم الخارجي، أو ضرر على موجد عالم الامكان.

وبناء على هذا، فكل من يرتكب مخالفة، فانما يلدغ نفسه، وكل من يقم بمعصية فانما يضيّع روحه، وكل من يسلك الطريق المنحرف فانما يذلّ روحه؛ لكنه لا يشعر بتلك اللدغة وذلك العناء ما دام مشغولاً باللذائذ الطبيعية في الدنيا.

ان الله تعالى يقول للكفار في يوم القيامة بأنكم يوم كفرتم وعصيتم فانما ظلمتم أنفسكم ومقتّم أنفسكم. واليوم فان نفس المقت والغضب يظهر على صورة شعلة نار ملتهبة. هذه الشعلة الملتهبة، هذه النار الموقدة هي باطن كفركم وفسادكم نفسه؛ لكنكم كنتم في الدنيا غافلين عن خطر ضرره، الا أنكم ستشاهدون في عالم الآخرة باطن كل ما أدّيتموه بوضوح وبلا غطاء. لهذا، فان راحة الآخرة أقوى من راحة الدنيا كما ان عناء الآخرة أقوى من عناء الدنيا، لأن عناء الدنيا مقترن بسلسلة من اللذات العاجلة، لكن عناء

الآخرة عناء محض وعذاب صرف كما ان رفاه الدنيا وراحتها ممتزجة بالكدورة والألم، لكن رفاه الآخرة رفاه صرف وراحة محض. لهذا فكل ما أعدّ في الآخرة للفرد المؤمن هو أصفى مما أعدّه المؤمن لنفسه في الدنيا. وكل ما أعدّ في الآخرة من العذاب للكافرين والمفسدين هو أشدّ مما ادّخره الكافر لنفسه في الدنيا. والخلاصة، فان الكافر؛ ولما كان بعيداً عن لقاء الله، فهو ينادى من مكان بعيد ولا يناجى.

الموضوع الآخر هو ان الانسان الكافر والعاصي مهما يرتكب من مخالفة أو عصيان ويلحق الضرر بنفسه فهو مقت وغضب يسلّطه على روحه هو عند ذلك يقال له في جهنم ان مقت الله ـ هذا ـ الذي ظهر على صورة جهنم لهو أكبر من مقتك نفسك وغضبك الذي سلطته على نفسك في الدنيا، والذي كان نفس كفرك. فهذا العناد الذي واجهت به الوحي الالهي كان ضدّك أنت فبيدك وفمك نفسك أطفأت نور فطرتك. ان نور الوحي كان قد جاء ليدلّك الطريق ويمنحك القدرة على سلوك ذلك الطريق، الا أنك بكفرك وذنبك أطفأت هذا النور، وحوّلت تلك القدرة الى عجز، فعملت ضد نفسك، وورطت نفسك بالصعوبة والشقاء واذ أنت مبتل الآن في القيامة بالألسنة النارية، فان هذه النيران التي هي غضب الله وعذابه أقوى من شعلة الكفر التي سلطتها على نفسك في الدنيا.

في الجلسات السابقة، ذكرت عدة مواضيع هي:

أولاً: ان العمل لا يزول أبداً، وهذا أصل قرآني.

ثانياً: لما كان العمل لا يزول ابدا، وان نظام العالم أيضاً نظام علّي ومعلولي، فانه ـ لا بد ـ مرتبط بشيء ويتأثر بشيء ويؤثر في شيء.

ثالثاً: ان المبدأ الذي يكون العمل مرتبطاً به ولا ينفك منه هو ذات العامل نفسه **﴿ليس للانسان الآ ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وان الى ربك المنتهى﴾**[1] الآيات المذكورة تبين أن عمل أي شخص لا ينفصل عن صاحب العمل. اذن، فسعي أي انسان في نظام العلية والمعلولية ثابت ولا يزول، ولن يكون أي موجود عاطلاً في نظام العلة والمعلول. اذا كان شيء ما حياً فهو مرتبط بجهة ومتأثر بشيء ومؤثر في شيء. اذن فلا بد أن يكون العمل مرتبطاً بجهة، ويقول القرآن الكريم ان العمل مرتبط بالعامل فقط ولا ينفصل العمل عن صاحبه أبداً.

[يقول الشاعر الفارسي ما ترجمته]:

«فان كان الزاد شوكاً فأنت زرعته وان كان حريراً ناعماً فأنت غزلته»

الانسان اما مؤمن فمنشغل بنسج الحرير، واما كافر وعاص فمنشغل بإرواء الأشجار الشائكة. فكل كلام سيىء يوجهه الانسان الى أحد، وكل كلمة نابية يواجه بها الآخرين، انما هي شوكة يغرسها في روحه هو، لكنه لا يشعر بذلك الألم فعلاً. اذن، فالكفر والمعصية غضب ومقت وغيظ على صورة ظهور للعذاب الالهي. ولما كانت موجودات ذلك العالم خالصة من كل شيء، لهذا فان عذاب ذلك اليوم أكبر من مقت الانسان نفسه **﴿لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم﴾**.

اذن لو تمرد الانسان وكابر مقابل الوحي وما أتى به الأنبياء عليهم السلام وأظهر العناد فقد قام بعمل ضد نفسه، وان لم يقبل أحد ما كلام الله فقد نبذ بنفسه مصباح هدايته وراء ظهره **﴿فنبذوه وراء**

---

(١) سورة النجم، الآيات (٣٩ ـ ٤٢).

ظهورهم﴾[١] ليواصل سيره في الظلام؛ وكما قال في سورة الاسراء المباركة: ﴿ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها﴾[٢] أي أنكم لا تنفصلون عن عملكم أبداً، كما ان عملكم لن يترككم أبداً. ان كان عملكم خيراً واحساناً فقد أحسنتم لأنفسكم، وان كان عملكم سوءاً فقد أسأتم لأنفسكم اللام في هذه الآية لام اختصاص لا انتفاع. أي لو قمتم بعمل خير فهو لكم وان ارتكبتم شراً فهو لكم أيضاً. لا ان تكون اللام الأولى «لام» انتفاع، نظير اللام في «له» التي تقابل «عليه» (فيقال مثلاً: ان هذا الموضوع للشخص الفلاني وعلى الشخص الفلاني أي لصالح الأول وضد الثاني) وان تكون اللام الثانية لام اختصاص بل ان اللام في كلا الجملتين بمعنى واحد وهو اختصاص صلة العمل بالعامل.

بناء على هذا، بما ان اللام حرف اختصاص فالعمل مختص بالعامل، والعامل رهين العمل، فان كان العمل طيباً فالعامل انسان حر ﴿كل نفس بما كسبت رهينة * الا أصحاب اليمين﴾[٣] وذلك الانسان الحر يقول: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾[٤].

أما الذين يقولون ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾[٥] فبعد أن ينهوا مرحلة الانشغال بالطبيعة ويصلون البرزخ، يرون أن لهم جسداً وروحاً مصدومة ومجروحة ومتضررة أتعبوها بأيديهم أنفسهم وجرحوها، لأنهم دعوا الى الايمان لكنهم كفروا به، وكان هذا الكفر هو الغيظ والمقت

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨٧).
(٢) سورة الاسراء، الآية (٧).
(٣) سورة المدثر، الآيتين (٣٨ و٣٩).
(٤) سورة مريم، الآية (٣١).
(٥) سورة الشعراء، الآية (١٣٦).

نفسه الذي مقتوا به أنفسهم. لو أرشد الطبيب مريضاً الى تناول دواء مر لعلاجه لكن المريض عاند لم يعتنِ بقول الطبيب ولم يلتزم الحمية ويراع الحمية الطبية، فليس عدم الحمية سوى عمل ضد سعادته وسلامته هو، وهذا تقريب للعذاب والانتقام.

مر في المباحث السابقة ان الانتقام على أربعة أقسام، وان الانتقام الذي ينتقم به الله من المجرمين يشبه الانتقام الذي يقوم به الطبيب تجاه المريض الذي لا يلتزم الحمية، بل أدقّ من ذلك أيضاً. لكن للمعصومين عليهم السلام أحياناً تشبيهاً وتمثيلاً لعامة الناس، فعن الامام السجاد عليه السلام [ما مضمونه] عجبت لمن يتقي بعض الأغذية لكي لا يمرض ولا يتقي الذنب كي لا يبتلى بالنار. وهذا تشبيه يكون فيه عذاب جهنم على أثر الذنوب كالمرض والألم الذي يتحمله المريض بسبب عدم الحمية والاتقاء وعدم تنفيذ أوامر الطبيب. ان الكفر وما ينشأ عنه كله تصرفات من الانسان ضد روحه. ويظهر باطن هذا الاجراء في القيامة بصورة لهب خالص، لأن كل ما في عالم الآخرة خالص. فرفاهه خالص من الألم والعناء كما ان عناءه لا يشوبه أي رفاه فأهل الجنة مصونون عن كل عناء ونصب **﴿لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾**(١) وأهل النار محرومون من أي رفاه **﴿لا يعذّب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد﴾**(٢). لأن الله لو أراد أن يوثق أحداً سدّ في وجهه كل نظام عالم الامكان، وقطّب عليه جميع نظام العالم لأن جميع نظام الامكان جنود للحق إذ **﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾**(٣) **﴿وما يعلم جنود ربك الا**

(١) سورة فاطر، الآية (٣٥).
(٢) سورة الفجر، الآيتين (٢٥ و٢٦).
(٣) سورة الفتح، الآية (٤).

هو﴾[1] . أو لا ينبغي لمن أراد الحصول على الرفاه أن يتطابق شيء مع رغبته ليلتذّ من هذا التطابق والتوافق والانسجام. فان كان جميع أشياء العالم جنوداً لله، وكان الله غاضباً على الكافر، فان كل شيء في العالم سيكون ضده ولا يكون أي شيء مرغوباً له حتى نفسه، حتى ليعضّ على يديه ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ ويشهد على نفسه بلسانه ويديه ورجليه ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم﴾[2] في حين أن أفواههم مغلقة ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾[3] . وقد فصلنا كيفية هذه الشهادات فيما مر.

لو ابتلي انسان بغضب الله تعالى فلا شيء في العالم يعرفه، ولو شمل أحد بحب الله فلا شيء في العالم غريب عنه. اذ لا شيء في العالم له وجود مستقل من نفسه، بل ان جميع وجود عالم الامكان يصدر عن مقر الحق.

فان نظر الله سبحانه الى أحد نظرة لطف فان جميع العالم سيألفه. لهذا تكون جميع الموجودات في الجنة ملائمة ومتناسبة مع أهل الجنة ومتناغمة معهم ولا يوجد شيء في الجنة يكون غريباً عنهم، كما لا وجود لشيء في النار بمألوف لأهل النار؛ ولهذا ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾[4] . وهذا هو لسان القرآن الكريم، الانسان الجهنمي عندما يقع أسير النيران الملتهبة في جهنم يعاني معاناة قاتلة من كل جانب لكنه لا يموت. كل ما يواجهه يحمل في طياته الموت لكنه لا يموت ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ لا يموت فيرتاح. فانه وان كان يطلب الموت لكن لا موت في القيامة لأن أصل الموت والانتقال قد انتهى في ذلك العالم،

---

(١) سورة المدثر، الآية (٣١).
(٢) سورة النور، الآية (٢٤).
(٣) سورة يس، الآية (٦٥).
(٤) سورة ابراهيم، الآية (١٧).

ووصلت الحركة الى دار القرار وتبدلت الى ثبات، وتبدل الموت الى حياة.

يسأل أهل النار ملائكتها والمأمورين عليها قائلين **﴿ليقض علينا ربك﴾** فنرتاح لكنهم يستمرون في العذاب ويقيمون فيه **﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيا﴾** لا يموت فينجو من العذاب ولا يحظى بحياة هانئة خالية من التعب والعناء. وعلى هذا، فكما يرى أهل الجحيم العناء القاتل من كل صوب، يحس أهل النعيم بالفرح والنشاط من كل سبيل ويشاهدونه: **﴿لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾**. فخصوصية كل من النعيم والجحيم متميزة. لا يمكن أن يكون أحد مشمولاً بغضب الله ويستطيع النجاة، لأن أقرب شيء الى نفسه، وهو روحه أو يداه او رجلاه، ستكون ضده ثمة تعبير لمولى الموحدين والقرآن الناطق عليّ بن أبي طالب ـ عليه أفضل صلوات المصلين ـ قال: «جوارحكم جنوده»[1] اعلموا يا عباد الله ان اعضاءكم وجوارحكم جنود الحق، فان أراد الله ان يأخذ أحداً، أخذه بعينه، بلسانه، بيده، وبرجله. اذا خرج أحد عن حدود طاعة الله فهو لم يخرج عن حدود جنود الحق، ولا سبيل له الى الفرار أبداً. «وخلواتكم عيانه» فحيثما تختلون فأنتم في محضر الحق وبين يدي الحق. جنود الله معكم. والله معكم ان شمل أحد برحمة الله تعالى فجميع أنحاء العالم أصحابه وأوداؤه. وان شمل أحد بغضب الله فجميع أنحاء العالم غرباء عنه وأعداؤه، حتى أعضاؤه وجوارحه تعاديه. فالقيامة دار نتيجة وعالم مكافأة أو عقوبة ولا تكون دار عمل أبداً.

لا عمل صالح ولا عمل طالح لا يمكن هناك أن يطاع ولا يمكن ان يعصى لأن عالم التكليف قد انتهى ونشأة الامتحان قد انتهت ووصل السير الوجودي لعالم الحركة الى مرحلة الجزاء حيث يقول أمير المؤمنين

---

(١) نهج البلاغة، للفيض، خ ١٩٠.

علي عليه السلام: «وإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[1]. وعلى هذا ففي القيامة لا مكان للعمل الصالح ولا مكان للعمل الطالح، لا محل لأن يؤمن أحد ولا موضع لأن يكفر.

هنالك تظهر الملكات الدنيوية للأشخاص، لا أنها تكون عملاً جديداً، وبما انه لا يمكن الايمان في يوم القيامة فان الكفار يرون الحق ولا يستطيعون أن يؤمنوا به. كالانسان الذي ذهب في ضلال فأوقع نفسه في قعر وادٍ مهول ثم عرف الطريق لكنه لا يستطيع أن يسلكه. فكيف يسلكه وبأية وسيلة وسبب؟ وقد ﴿وتقطّعت بهم الأسباب﴾ التي كانت وسيلة لاداء الأعمال في الدنيا اذا أراد حل هذه المشكلة بالسبب والنظام العلي فذلك ليس مقدوراً، وان أراد ذلك بعلاقة النسب والعلائق الاعتبارية والاجتماعية فتلك أيضاً منقطعة اذ ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾[2] فان كانت علاقة السبب والنسب مقطوعة فان الانسان الذي سقط في أسفل الوادي ثم أدرك ان هذا لم يكن الطريق لكن يديه مكسورتان ورجليه مكسورتان، وقد فقد سمعه وبصره ودمّرت جميع قواه وافتقد السبب والنسب، بأي وسيلة يبلغ بنفسه الى الصراط. ولهذا ففي يوم القيامة يدرك الكفّار وجود الله وانه كانت هنالك قيامة وهي كائنة.. وكان ثمة وحي ونبوة.. لكنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بها. يدركون لكن لا يستطيعون ان يصدقوا؛ لأنّ الفهم والادراك، ليس في اختيار الانسان. فإذا ظهرت حقيقة معينة يفهمها الانسان، لكن الايمان هو فعل اختياري للنفس فالارادة تفصل بين النفس والايمان لكنها لا تفصل بين النفس والعلم عندما يرى الانسان البرق فهو يدرك النور حتماً. أما لو أراد أن

---

(١) نهج البلاغة، للفيض، خ ٤٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية (١٠١).

يستسلم له ويعتقد به ويكون مؤمناً ويحصل له خضوع قلبي فهذا فعل نفساني بينه وبين النفس فاصلة الارادة، وما لم يرد لا يتحقق الايمان وفي القيامة ـ كما مر ـ ليس هناك مكان للعمل وتحصيل فعل جديد.

فأحياناً لا يؤمن الانسان بالحق مع انه واضح له كما فعل فرعون تجاه موسى، فمع انه فهم ان الحق مع موسى عليه السلام لكنه لم يؤمن به ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم**﴾. ليس فرعون فقط، بل الذين كانوا في بلاطه أيضاً كانوا كذلك أدركوا ان ما أتى به موسى هو الحق واستيقنتها أنفسهم لكن استكبارهم لم يدعهم يقبلوا به. إذن، فان ظهرت حقيقة أمرٍ ما، فان الفهم ليس باختيار الانسان كي يقول أنا أريد أن أفهم ذلك، او ان لا أفهمه، بل ان الانسان مضطر لفهم وإدراك المسائل الضرورية. ان الانسان يدرك القضايا الضرورية بالاضطرار، فالمضطر هو الشخص الذي يواجه أمراً ضرورياً ان في الضرورة المفهومية في العلوم الحصولية أو الضرورة الوجودية في العلم الحضوري. فهذه ضرورة، والانسان مضطر في ادراك الأمور الضرورية، أما الايمان الذي هو فعل قلبي فان الارادة تفصل بين الانسان وبين ذلك الفعل القلبي، وهذا في عالم التكليف والعمل. اما في الآخرة حيث لا تكليف ولا عمل فان الكفار يفهمون الحق في القيامة لكنهم لا يستطيعون ان يؤمنوا به. يفهمون ان القيامة حق ولا يستطيعون ان يؤمنوا بها، اذ لا مكان للايمان.. يدركون ان ما أتى به الوحي كان حقاً، لكنهم لا يستطيعون ان يؤمنوا به.

يعرب أهل النار عن موضوعين؛ أحدهما: انهم يقولون إنهم يدركون وجود الله والقيامة والنبوة؛ والآخر: انهم يعترفون بأنهم أساؤوا في الدنيا. لكن لا الاعتراف بالماضي ينفع ولا ادراك الحقيقة في القيامة يجدي؛ لأنه لا العلم يحل المشكلة في القيامة ولا الاقرار بذلك العالم ينهي المشكلة. ان ما

يذهب بالعناء هو الايمان والعمل الصالح والايمان فعل القلب، والعمل الصالح فعل الجوارح، وفي القيامة لا مكان للايمان الذي هو عمل القلب ولا للعمل الصالح الذي هو فعل الجوارح فلا الجوانح ولا الجوارح، ولا القلب ولا القالب بوسعها ان تعمل شيئاً في يوم القيامة، ولهذا يقولون لله سبحانه وتعالى: ﴿ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾[1] او كما في آية أخرى: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾[2] أي أبصرنا قهّاريتك وسمعنا، لكنهم لا يستطيعون ان يقولون ﴿آمنا﴾.

كان الأحرار يقولون في الدنيا ﴿ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا﴾[3]، أما أولئك فكانوا يقولون ﴿سواء علينا أوعظت ام لم تكن من الواعظين﴾ لكنهم لا يستطيعون بمشاهدة غضب الله في الآخرة ان يؤمنوا به؛ فيقولون: عرفنا أن هنالك الهاً. لكنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا به أي أن خالق الكون كان «رباً» أيضاً. أولئك الذين لم يكونوا معتقدين بالخالق أصلاً يفهون في القيامة ويعرفون انه الله وكان خالقاً. وأولئك الذين كانوا يقولون بخالقية الله كوثنيي الحجاز لكنهم لم يعتقدوا بربوبيته سيدركون في الآخرة أيضاً ان الله الخالق كان رباً أيضاً فيقولون ﴿ربنا...﴾ لكنهم لا يستطيعون ان يؤمنوا بذلك؛ ثم يقولون ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾[4] هذه الآية تذكر أصلين معاً؛ الأول انهم يقولون اننا أدركنا ان الله هو رب العالمين. الثاني هو اننا نعترف بذنوبنا واننا أسأنا في دار الدنيا، وكنا طالحين في الدنيا. كان لنا ماضٍ سيّء.. تركنا خلفنا ماضياً سيئاً. ولكن لا سبيل الى

---

(١) سورة غافر، الآية (١١).

(٢) سورة السجدة، الآية (١٢).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٩٣).

(٤) سورة غافر، الآية (١١).

النجاة الآن. اطلقونا من الآخرة ـ فقط ـ ودعونا لأن نرجع الى عالم التكليف وهناك نتدارك ما قد فات: ﴿فهل الى خروج من سبيل﴾؟ هل هناك طريق لنجاتنا وخلاصنا؟ هذا ما يصرخون به في جهنم وثمة مسألة مهمة في آية ﴿امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين﴾.

ان وفقنا الله تعالى سنتناوله في الجلسة القادمة. ما هو موجود في ذيل هذه الآية هو تصدير قولهم بـ﴿ربنا﴾ أي أدركنا انك ربنا، لا اننا آمنا الآن بأنك ربنا، لأنه ذلك اليوم ليس بيوم ايمان. وفي النهاية يطلبون النجاة والخروج يقولون: ﴿فهل الى خروج من سبيل﴾.

في ذلك اليوم، الذي هو يوم الخلود، لا سبيل الى الخروج.. لا سبيل الى النجاة. لا سبيل الى الخروج من جهنم ولا سبيل الى الخروج الى الدنيا. لماذا؟ لماذا كان طريق الخروج مغلقاً؟ لماذا لا يمكن انقاذ المجرمين؟ في الآية التالية يأتي الاستدلال: ﴿ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا﴾ فكلما كان الحديث في الدنيا عن التوحيد ولوازم شجرة طوبى التوحيد والطاعة والعبادة التي هي ثمرة شجرة التوحيد كنتم تكفرون كان لديكم كفر اعتقادي في أصل التوحيد. وكما كان لديكم كفر عملي في العمل على أساس التوحيد فكنتم كافرين في مقام العمل، من قبيل الكفر الذي ورد في الحج ﴿ومن كفر﴾[1] وكنتم كافرين في مقام العقيدة، وان كان الحديث ذو صلة بالشرك فقد كان يستهويكم. فكنتم خاضعين للشرك في مسائل العقيدة كما كنتم مشركين في مقام العمل. ولما كان كذلك ﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ وكما نسيتم الله الواحد فلن تكونوا موضع نظر الله ولطفه أيضاً. وعلى حد تعبير الأستاذ العلامة الطباطبائي ـ رضوان الله عليه ـ

(١) سورة آل عمران، الآية (٩٧).

فان ذيل هذه الآية يعادل ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ . فعندما لم يكونوا مشمولين باللطف الالهي فان غضب الله سيظهر لهم بصفة جهنم والعذاب، ولن يخرجوا منها أبداً فان جملة ﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ ستكون بمنزلة ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ .

نسأل الله تعالى ببركة القرآن الكريم ان ينور قلوبنا جميعاً بنور وحدانيته وينجينا جميعاً من الشرك الاعتقادي والعملي .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الدرس الخامس والعشرون

مفهوم الحياة والموت في القرآن الكريم

الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما خاتمهم وأفضلهم محمد وآله الطاهرين.

كان البحث في المضمون المشترك للسور السبع المفتتحة بـ﴿حم﴾ والمعروفة بالحواميم السبعة. أهم مضمون مشترك لهذه السور السبع هو توضيح الخطوط العامة لمحتوى الوحي والذي تتبلور خلاصتها في ضرورة التوحيد وضرورة المعاد وضرورة الرسالة. وقد اتضح فيما مر أن الناس ينقسمون ازاء ما أتى به الأنبياء الى فريقين، لأن الطريق طريقان أيضاً. فعدة مؤمنون بالمبدأ والوحي والمعاد، وعدة كافرون بها ويظهرون الصلابة واللجاجة والعناد ويتكبرون امام هذه الأصول المذكورة ويتكبرون. جزاء الفريق الأول جنة السعادة وتذكرهم الملائكة؛ وعاقبة الفريق الثاني جهنّم الشقاوة.

خلال البحث السابق دلّت الآية التي طرحت ان الكفار والمنكرين

لأصول الدين سيقترنون يوم القيامة بأمرين؛ الأول انهم يفهمون ان ما أتى به الأنبياء حق، والآخر أنهم يقرون بأن ماضيهم كان سيئاً فيفهمون ان الله رب العالمين وان النبوة والمعاد كانت ضرورية كما يقرون بأنهم أذنبوا في الدنيا؛ الا انه لا فهم حقانية الوحي والتوحيد والمعاد بحل مشكلة، ولا الاقرار والاعتراف بالذنوب يجدي نفعاً. فما ينفع آنذاك هو الايمان والعمل الصالح. الا ان الحصول عليهما في يوم القيامة غير ممكن. وما هو ممكن لا يكون نافعاً، كالاعتراف بالذنب فهو يمكن يوم القيامة لكنه لا يجدي نفعاً، لأن الاستغفار والتوبة عمل صالح ولا موضع في القيامة للعمل الصالح اذ «ان اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[1]. كذلك في أصول الدين، ما هو نافع هو الايمان بالمعارف لا فهمها وادراكها. فالعلم بأن هناك الهاً وقيامةً ووحياً ونبوةً لا يحل المشكلة. فما هو لازم هو الايمان بها لا مجرد العلم.

البعض، مع انهم عالمون لكنهم كفار. مع أنهم فهموا ان الحق مع الأنبياء ينكرون كذلك وقد تبين في المبحث السابق ان الحق اذا ظهر ـ سواء في مسائل العلم الحصولي او في المعارف الشهودية، وسواء بصفة قضية بديهية او بصفة حضور ووجود شهودي فان الانسان مضطر لأن يفهمه؛ لأنه يواجه أمراً ضرورياً. اذا كان امرٌ ما ضرورياً وكان ثبوت المحمول للموضوع ضرورياً، فان الانسان مضطر لادراك ذلك، لكنه غير مضطر الى الايمان بأحقيته، لأن الايمان فعل النفس واختيارها. يمكن ان لا يؤمن الانسان بشيء ولا يقبل به مع أنه يعلم بأنه حق. إذن، فالايمان بالحق هو غير العلم به.

---

(١) نهج البلاغة للفيض، خ ٤٢.

ليس العلم فعلاً بلا واسطة للنفس، وان كانت مقدمات العلم هي فعل النفس. اما أصل الادراك فسيكون ضرورياً بعد حصول المقدمات. اذا كان دليل موضوع ما قطعياً فالعلم بنتيجته ضروري وليس بإرادة الانسان. لا يستطيع أحد القول انني لا أريد أن أفهم بعد وضوح المقدمات، أو لا أريد أن أرى بعد فتح العين ومواجهة المرئيات، أو لا أريد ان أسمع.. وان كان يمكنه القول: لا أريد ان أفتح عيني أو أصغي بسمعي أو أمنح قلبي أو أركّز ذهني وأمثال ذلك من مقدمات الادراك. ولكن لو حصلت مقدمات الادراك فان نتيجته ستحقق حتماً، لن تكون باختيار الانسان أبداً، اما الايمان بموضوع ما فهو فعل ارادي للنفس، اي ان الارادة تفصل بين الانسان وبين الايمان. وبما ان الارادة تفصل بين الانسان والايمان، فان الايمان خاضع للتكليف. وبما انه ليس في القيامة تكليف ولا عمل فان الكفار، وان يفهموا حقانية الحق، لكنه لا مجال لايمانهم. كذلك، وان كانوا يعترفون بذنوبهم السابقة لكن المشكلة لا تنتهي بالاقرار والاعتراف لأن ما يغسل الذنب ليس الاعتراف بالذنب بل الاستغفار منه والتوبة من الذنب والرجوع الى الله. اذا اعترف أحد بأنه أذنب سابقاً فان اعترافه هذا لن يكون سبباً في غفران ذنبه. اذا اعترف أحد ما بأنه كان مفسداً فيما مر، لا يغفر له بمجرد الاعتراف بل ان ما يكون سبباً للمغفرة هو التوبة والاستغفار والعودة الى الله لأن الله تواب رحيم.

والخلاصة، ان ما هو نافع للانسان لا يمكن تحصيله في القيامة وان ما يتحصل في القيامة ليس نافعاً للانسان، والموطن الوحيد الذي يكون فيه التحصيل النافع ممكناً هو دار الدنيا. لهذا يقول الكفار في جهنم: **﴿قالوا ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من**

سبيل﴾[1] فيقولون ـ أولاً ـ ﴿ربنا﴾.

وأحيانا تبرز لديهم حالة استكبار الدنيا، فيقولون لمأمور النار: ﴿يا مالك ليقضِ علينا ربك﴾[2] أي لينهي أعمارنا هنا لا يقولون ﴿ليقضِ علينا ربنا﴾ وهذا ظهور ملكات الكفر التي حصلوها وهيأوها في الدنيا. لكن تعبير القرآن الكريم عن لسان الكفار في النار هو ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾[3] أي أبصرنا ما لم نكن نبصر من قبل، وما لم نكن نسمعه ها قد سمعناه الآن. لكن السمع والبصر كانا سبباً فقط ليؤمن الانسان في الدنيا بالاستعانة بهما لكنهما ليسا كذلك في القيامة اذ ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾[4] يستطيع الانسان في الدنيا أن يفهم شيئاً عن طريق السمع أو البصر وأن يؤمن به. أما في الآخرة فلن يكونا سبباً للايمان والعمل الصالح. هما ظرف للادراك فقط، وليسا وسيلة وسبباً للايمان والعمل. كانا في الدنيا ظرفاً للادراك وكذلك مفتاحاً للايمان والعمل الصالح.

أما في الآخرة فحيث لا مكان للايمان والعمل الصالح، فان عمل الأذن والعين: الادراك فقط. والادراك ان لم يكن مقترناً بالإيمان وترتّب الأثر العملي، فليس له أثر سوى الحسرة. فلو عرف الانسان الحق ولكنه لم يستطع أن يؤمن به ويعمل وفقه فان ألمه سيزداد.

في البحث السابق، ذكرنا هذا المثال من أن السالك إذا لم يستمع لكلام المرشد يضلّ ويسقط في الهاوية ويفقد كل قواه، وفي قعر الهاوية فهم

---

(١) سورة غافر، الآية (١١).

(٢) سورة الزخرف، الآية (٧٧).

(٣) سورة السجدة، الآية (١٢).

(٤) سورة البقرة، الآية (١٦٦).

انه ضل الطريق، وانه لم يصغ لكلام الدليل الذي أرشده الى الطريق الصحيح . عرف انه لم يسلك الطريق ويعترف انه سلك الضلالة؛ لكن لا فهمه يحل المشكلة ولا اقراره ينفعه:

﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[1] .

لو كان شخص فرحاً مسروراً يخدعه الشيء الذي يمر سريعاً [الزائل] ويعيشه في الخيال؛ وبتعبير القرآن الكريم بكون مختالاً، فهو مثل ذلك الشخص المخطوف في الهواء فأما ان تتناوشه سباع الهواء او تهوي به الريح في وادٍ سحيق يسحقه ويفريه. هذا الانسان المكسر الأيدي والأرجل، سواء فهم ان الطريق غير هذا او لم يفهم، وسواء اعترف انه سلك الطريق المعوجة ام لا، فلا علمه ينفعه فعلاً ولا اقراره. لو خسر الانسان جميع رأسماله الذي هو عمره **﴿خسروا أنفسهم﴾**[2] فسواء عرف في القيامة ان الحق مع الأنبياء أو لم يعرف، وسواء اعترف انه كان في ضلال او لم يعترف، فبما انه لا رأسمال لديه وتحت تصرفه فان أياً من علمه او اقراره لا يجديه نفعاً لحاله. لهذا وفي حين يفهم الكفار ويعترفون أيضاً فهم يقولون: **﴿فهل الى خروج من سبيل﴾** .

بناء على هذا، اتضح ان الكفار يدركون ـ في القيامة ـ ان الحق كان مع الأنبياء الا أنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بذلك .

الموضوع المهم في الآية المذكورة هو محتوى **﴿امتّنا اثنتين وأحييتنا**

---

(١) سورة الحج، الآية (٣١) .

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٢) .

اثنتين﴾ الذي مر في البحث السابق بإجمال وأوكل التفصيل فيه الى البحث الحالي، وهو ان أهل النار يقولون ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ أي اتضح لنا اننا قضي علينا بالموت مرتين ثم أحييتنا بعد الموتتين، وفهمنا انك أنت المحيي وانت المميت.

في جميع هذه المراحل الأربع كنا خاضعين لتدبيرك. وكنت ربنا ومدبرنا في جميع هذه المراحل اتضح ذلك لنا الآن. وبما ان يوم القيامة يوم الجمع.. يوم الشهود، فليس فقط كل ما هو موجود في ذلك اليوم مشهود بل كل ما مضى في السابق ـ أيضاً ـ مشهود في ذلك اليوم، كل ما خلفه الانسان وراءه، يراه اليوم أمامه لا وراءه.

فليس الانسان مثل سيارة تترك قسماً من الطريق وراءها وتستقبل القسم الباقي، بل ان حركات الانسان تشبه حركات شجرة يكون الماضي بالنسبة لها جذراً وأساساً لا ما وراءً.

فكل ما قام به هو فعلاً معه، بصفة جذرٍ.. وساق؛ وإذا كان هناك الآن نماء وثمار طرية وفروع مثمرة وأغصان مورقة فهو معتمد على ماضيه الشجرة لا تترك وراءها شيئاً بل تجعله تحت أقدامها وتصنع منه قاعدة وأساساً، وتستمد من ذلك الأساس وتنمو منه. الانسان ـ أيضاً ـ لا يترك شيئاً خلفه كالسيارة، بل كل ما فعله وزرعه فهو تحت قدميه؛ وفوق ذلك الأساس والبناء التحتي يقيم بناءه الفوقي. وان كان له غصن يورق فعلى ذلك الجذر، فليس الأمر بأن ماضي الانسان يُنسَ بل ان شجرته بأكملها ستكون مشهودة يوم القيامة جذرها وأين كان؟ وأين كان يغوص؟ هل هي شجرة طوبى ﴿طوبى لهم وحسن

مآب﴾[1] ، أم الشجرة الخبيثة الملعونة في القرآن؟ فكلاهما سيشهدان.

بناءً على هذا، فان الكفار يرون جميع مراحلهم الماضية دفعة واحدة في محضر القيامة. يقولون ﴿**ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين**﴾ ربنا اتضح لنا انك كنت الهنا، وكذلك اتضح لنا ان موتتينا وحياتينا كلتيهما كانتا بيدك، وها نحن نعلم اننا في الماضي كنا تحت تدبيرك وقضينا هذه المراحل الأربع بتدبيرك.

البحث الحالي هو حول تبيين هاتين الاماتتين وهذين الاحياءين. فهنا أقوال كثيرة، الا ان ما يستفيده سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي ـ رضوان الله تعالى عليه ـ بشهادة آيات أخرى وروايات أهل البيت عليهم السلام هو ان للانسان موتتين أصليتين وأصيلتين وحياتين أصليتين ومهمتين الانتقال من الدنيا الى عالم البرزخ هو الموت الأول، والانتقال من البرزخ الى القيامة هو الموت الثاني. فالانسان عندما يغادر الحياة الدنيا ويتركها خلفه أو يتخطاها، فهذا هو الموت الأول. فاذا دخل مرحلة البرزخ عدّت حياةً أولى بالنسبة الى البرزخ، لأن الموت والحياة أمران قياسيان ونسبيان. الموت المطلق الذي هو بمعنى الفناء المحض لا وجود له، بل ان عموم العالم حياة، كما انه لا وجود للشر المطلق فعموم العالم خير. الموت نسبي لكن الحياة نفسية اي ان عموم العالم حي. ولما كان الكائن الحي ينتقل من مكان الى آخر فهو يموت بالنسبة الى ذلك المحل المنقول عنه، بينما يحيا بالنسبة الى المحل الذي ينقل اليه. الانسان لا يفنى ابداً بل انه يطوي الدنيا ويصل البرزخ فإذا دخل البرزخ فدخوله هذا بالنسبة إلى البرزخ حياة وبالنسبة الى الدنيا موت. وان كانت للانسان حياة في الدنيا، وحياة في البرزخ، الا ان الانتقال من حياة الى

---

(1) سورة الرعد، الآية (٢٩).

أخرى يسمى موتاً، لا الموت بمعنى الفناء وتخلل العدم بين المتحرك والهدف لأن الفناء المحض مستحيل. فالانسان السائر الذي في الطريق ويتحرك من المسير الى المقصد لا ينقطع ولا ينفصل في الطريق، ليفنى الانسان السالك ومن ثم يظهر بعد الفناء كظاهرة جديدة في البرزخ.

فالموت اذن ليس بمعنى تخلل العدم والفناء بين المتحرك والهدف وانما الموت سير لهذا المتحرك وهجرة من منطقة، والوصول الى منطقة أخرى. عندما يذهب الانسان من الدنيا الى البرزخ فانه يموت بالنسبة للدنيا ويحيا بالنسبة الى الآخرة. اذن فمجموع هذه الحالات تبيّن على صورة موتين وحياتين. التحرر من الدنيا والوصول الى البرزخ موت واحد، والتحرر من البرزخ والوصول الى الآخرة الموت الثاني. وهكذا يكون الوصول الى البرزخ حياة واحدة والورود الى القيامة هو الحياة الثانية. كل هذه المقاطع الأربعة الأساسية للهجرة تكون في يوم القيامة مشهودة بشكل واضح.

يقول الكافرون: ربنا امتنا مرة أخرى، فأنت مميت وان كنا نقول في الدنيا ﴿**ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر**﴾[1]، وان كنا ننكر المَعاد، ونقول ان الانسان عندما يموت فهو مثل فاكهة تنفصل من الشجرة بعد نضجها وتسقط عن الشجرة وتيبس ثم لا شيء. اما الآن ففهمنا ان الانسان مثل فاكهة بعد أن تنضج وتصبح ريّانة ولذيذة يقوم البستاني الذي غرسها بقطفها بواسطة مأموريه الذين وكّلهم باقتطافها من فرع شجرة الطبيعة ونقلها وايداعها في مكانها الخاص.

---

(١) سورة الجاثية، الآية (٢٤).

فالمفكر المادي يقول ان الانسان كفاكهة شجرة تترك فروعها وأغصانها بعد ان تثمر وتنضج وتصبح طرية لذيذة وتسقط الى جانب الشجرة وتيبس ولا شيء بعد ذلك ﴿ما هي الا حياتنا الدنيا﴾ ثم ينبعث من هذه الفاكهة المتيبسة انسان آخر، ليبيس هو الآخر بعد نضوجه ويقوم منه انسان ثالث، يتيبس هو الآخر بعد لحوقه وهكذا. . .

أما المفكر الالهي فيقول ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾[1] فجميع الناس انبتهم الله سبحانه من الأرض، وهو نفسه سبحانه وتعالى الذي أنبت الانسان من عالم الطبيعة سيرجعه الى نفسه مرة أخرى ويحتفظ به الى الأبد، ليبدأ الانسان بموته حياة جديدة يرتبط قبحها وجمالها بعقائد وأخلاق وأعمال الانسان في الدنيا ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾[2] اي ان الله تعالى يقبض أرواح الآدميين عند الموت بشكل كامل ويتوفى الانسان لا انه يفوت، وقد اتضح سابقاً، الفرق بين الوفاة والفوت.

بناء على هذا، سيتضح للكفار بعد الموت جيداً ان زعمهم كان خاطئاً، وان الموت لم يكن بمعنى الابادة والفناء أبداً، وان الدهر او الطبيعة وأمثالهما لم تكن مدبرة العالم بل ان العالم والانسان تحت تدبير رب العالمين. والله تعالى ينقل الانسان من عالم الى عالم آخر.

يفهم الكفار هذه الأمور في القيامة. فيقولون ﴿ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين﴾ أمتنا مرة أخرى؛ جئت بنا من الدنيا الى البرزخ، ومن البرزخ الى القيامة ﴿واحييتنا اثنتين﴾ أحييتنا مرة أخرى. المرة الأولى في البرزخ، بعد

---

(١) سورة نوح، الآية (١٧).

(٢) سورة الزمر، الآية (٤٢).

الموت الدنيوي، والأخرى في القيامة الواقعة فعلاً. ولن يكون موت بعد الآن بل حياة محضة يفهم الكفار في القيامة هذه الأمور المذكورة بشكل جيد.

ولما كانت الحياة الدنيا كالموت الذي قبل الدنيا لا أثر لها في يقظة البشر الغافلين، لهذا لم يرد ذكرهما. فالحياة التي تكشف عن الواقع للانسان هي حياة البرزخ وحياة القيامة. لأن الحياة الدنيا لا تكشف هذا الواقع، بل هي في حكم الموت والنوم. والكفار في الدنيا كانوا كالأموات، لأنهم كانوا في نوم الغفلة، والموت مثل النوم «النوم أخ الموت». لهذا فالحياة في الدنيا لا تعرض في القرآن كحياة، وانما الموت منها هو المذكور والمطروح، وكذلك الموت من البرزخ. عندها يسألون **﴿فهل الى خروج من سبيل﴾**. هل الطريق الى النجاة مفتوح؟ ويأتي الجواب من الله تعالى بالنفي، لأنه كلما كان يرد ذكر الله اشمأزت قلوبهم، **﴿واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون﴾**. ان الانسان المشرك قد نسي الله، ومن نسي الله تعالى فلن يقع مورد لطفه ومحبته. **﴿نسوا الله فنسيهم﴾**[1] لا بمعنى ان الله غفل عنهم، فهم بين يدي مأموري العذاب الالهي. ان الله لا ينسى شيئاً أبداً **﴿وما كان ربك نسيا﴾**[2] فالله علم صرف ولا وجود للنسيان في العلم المحض ابدا، ولا ينطوي العلم الصرف على الاحتجاب والغفلة. وليس للشهود غيبة. فان كان الله **﴿بكل شيء شهيد﴾** فان الشهادة والحضور لا تجتمع مع الغفلة، وان كان **﴿بكل شيء محيط﴾** فلا تتناسب الاحاطة مع الغيبة والغفلة. فهؤلاء الذين لا يشملون برحمة الله تعالى منسيون. يقول الله تعالى انه لا يكلم فريقاً في

---

(١) سورة التوبة، الآية (٦٧).

(٢) سورة مريم، الآية (٦٤).

القيامة ولا ينظر الى فريق. فذلك التكليم وذلك النظر تشريف يعطيه الله في القيامة لمجموعة خاصة. وعن مجموعة أخرى يقول ﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة﴾[1]. فتلك النظرة الرحيمة وذلك التكليم العطوف لا يمنحه الله تعالى لسيئي الفكر. اما المؤمنون فيكلمهم الله وهم يحظون بلقائه تعالى. فهم ينظرون الى الرحمة الالهية الخاصة، وينظر الله اليهم بنظرته الرحيمة ﴿وجوه يومئذ ناضرة * الى ربها ناظرة﴾[2].

وسبب حرمان الكفار من سماع كلام الحق ونظرته التشريفية تعالى هو أنهم كانوا يشمئزون في الدنيا من التوحيد ويميلون الى الشرك ﴿ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾[3].

عند ذلك يبدأ استدلال القرآن الكريم على ضرورة التوحيد والنبوة والمعاد من هنا يقول (تعالى) عن التوحيد: ﴿هو الذي يريكم آياته﴾[4] ان الله الذي أراكم آياته هو الهكم. لا يوجد شيء في العالم ليس آية لله. فان كان ثمة شيء مستقلاً ومستنداً الى نفسه فليس دليلاً الا على نفسه، اما لو كان مستنداً الى الغير فهو آية على ذلك الغير حتماً، وبما ان جميع عالم الامكان فقير في ذاته ومحتاج الى الغير، فهو اذن آية عليه اذ لو لم يكن ذلك الغير لما كان هناك عالم. وما يستند اليه العالم لا بد ان يكون غنياً، وهو الله سبحانه. اذن، فجميع العالم آيات الهية ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ هذا دليل واحد.

﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾[5] أي يضمن أرزاقكم الصورية من

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٧٧).
(٢) سورة القيامة، الآيتين (٢٢ و٢٣).
(٣) سورة غافر، الآية (١٢).
(٤) سورة غافر، الآية (١٣).
(٥) سورة غافر، الآية (١٣).

السماء الظاهرية، وأرزاقكم المعنوية التي هي العلوم والمعارف الصحيحة من السماء الباطنية ـ فان كان يؤمن أرزاقكم من السماء.. وان كان هو الذي خلق الأرزاق ومصدر الأرزاق ومخزنها، اذن فهو إلهها جميعاً. ﴿وما يتذكر الا من ينيب﴾[1]: ان الذي يتذكر هذا الاستدلال التوحيدي هو من كان من أهل الانابة والرجوع الى الله. اي ان من أناب من مخالفة الحق الى موافقته يمكنه ان يتذكر، اما الذي يسعى في مخالفة الحق معانداً باستمرار فلن يتذكر أبداً. لهذا، ومن أجل ان تتوفر وسيلة الرجوع الى الله ويتهيأ سبب التذكر، أظهر الله آياته؛ كما أمّن ارزاقكم من السماء، ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾[2] ادعوا الله تعالى وكونوا في دعوتكم اياه وطلبكم له مخلصين، فلأن الله وجود محض فهو يتقبل الدعوة الخالصة، ولا يقبل الاله المحض الدعوة الملوثة بالشرك أبداً.

فكما «ان الله جميل يحب الجمال»[3] فـ«ان الله واحد يحب الواحد». اذا أشرك الانسان، اي كان الله في نظره وكان غير الله أيضاً، فان ذلك العمل لن يكون مقبولاً، اذا أراد الانسان ارضاء شهواته، واداء تعاليم دينه في ظل ارضاء تلك الشهوات فلن يقبل منه ﴿الا لله الدين الخالص﴾ فكل الدين لله، وخالصاً له أيضاً. فلا شريك لدين الله بأن يكون هنالك دينان دين لله ودين لشريك الله، بل ان الدين كله لله، ولا يمكن لدين آخر غير دين الله ان يجد طريقاً الى قلب الانسان بل له الدين واصباً أي كاملاً تاماً، وخالصاً أيضاً اي من دون شوائب. ﴿ولو كره الكافرون﴾[4] فحتى لو كره الكفار فلا تتركوا

---

(١) سورة غافر، الآية (١٣).

(٢) سورة غافر، الآية (١٤).

(٣) فروع الكافي ج ٦ ص ٤٣٨.

(٤) سورة غافر، الآية (١٤).

مسيرة التوحيد. بل ادعوا الله تعالى ولتكن دعوتكم خالصة أيضاً.

الاستقامة هي الاستمرار على طريق الدين الخالص، لأن الله أيضاً **﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾**(١). فهذه الآية بينت مسألة التوحيد والنبوة والمعاد. فالله تعالى رفيع الدرجات.. يمنح الدرجة للانسان بمنح الانسان من الدرجات حتى ليتحول الانسان المتدرج نفسه الى درجة. فيصير الدرجة عينها. اي ان وجود الانسان لا يكون درجة ابتداء، لكن تلك الدرجة الكمالية تقيم بالتدريج ارتباطاً وجودياً بوجود الانسان حتى لتكون شيئاً فشيئاً عين وجود الانسان **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات﴾**(٢) يرفع الله المؤمن درجة، والمؤمن العالم درجات. يمنح المؤمن الرفعة اي يعطيه الدرجة، ويرفع المؤمن العالم درجات ثم يقول في سورة الانفال بعد ذكر خمس خصال ايمانية بارزة ان **﴿لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾**(٣).

تلك الخصال الخمس هي: **﴿انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾** فهذه الآيات كالنور تزيد القلب المستنير انارة. ان القلب الشفاف يضيء أكثر بتلألؤ النور. اذا تليت آيات القرآن على المؤمنين الصادقين زادت ايمانهم **﴿واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً﴾** **﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾** فتوكلهم على الله يتخذونه وكيلاً في أعمالهم ولا يتخذون غيره. والأول والثاني يتعلق بالمعارف اما الثالث اي التوكل فبالعمل. الرابعة هي انهم

---

(١) سورة غافر، الآية (١٥).

(٢) سورة المجادلة، الآية (١١).

(٣) سورة الأنفال، الآية (٤).

﴿يقيمون الصلاة﴾ وهي الصلة بينهم وبين الله. والخامسة الزكاة ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾[1] وهي تقوية الصلة بعباد الرحمن طبقاً للأوامر الالهية. وعن الصلاة لم يقل انهم يصلون بل قال: ﴿يقيمون الصلاة﴾. ومعنى اقامة الصلاة أحياؤها وجعلها قيماً على شؤونهم تستطيع ان تمنع الفحشاء والمنكر. فتلك الصلاة القائمة هي التي يمكنها الوقوف امام اي قبح وسوء. والا فإن أصل الصلاة التي تكون بمستوى الضعف لا يمكنها ان تحول دون الفحشاء والمنكر. وكذلك فهم يحفظون العلاقة بينهم وبين عباد الله في سبيل الله فـ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾. ان الذين أقاموا هذه الأصول الخمسة التي يرتبط قسم منها بالمعارف والعقائد، وقسم منها بالعمل في علاقتهم مع الله وقسم مع علاقتهم مع خلق الله ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾[2].

اذن للمؤمنين درجات. والله رفيع الدرجات لديه درجات رفيعة.. وهذه الدرجات التي يمن بها الله ليست أمراً اعتبارياً ووضعياً، ليست من قبيل المعدن المعين الذي لو نصبه المجتمع على كتف أحد كان دلالة على درجة خاصة، وليست نظير المنصب والمقام والصفة الاعتبارية التي يكون لها قيمة في دائرة الاعتبار والوضع، ولا قيمة لها في دائرة الخلق والتكوين. بل ان الدرجة التي يعطيها الله لها واقع خارجي لا اعتباري. ولا يكون الواقع الخارجي أيضاً منفصلاً عن حقيقة الانسان. الدرجة الوجودية هي التي ترفع الانسان نفسه. ترفع مقامه في التكوين. اذا نمى مقام الانسان بلحاظ التكوين عند ذلك يصبح الانسان نفسه عين الدرجة. فمن كان له الدرجة العاشرة من

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٣).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٤).

الايمان او الدرجة العاشرة من الثواب، فهو نفسه عين الدرجة. المتدرج هنا هو الدرجة عينها، بشهادة سورة آل عمران في قوله تعالى ﴿هم درجات﴾[1] فلم يعد لحرف اللام وجود. في سورة الأنفال قال ﴿لهم﴾ باللام ناظراً الى أوائل الأمر. وعندما تصبح درجة الكمال ملكة، والايمان مستودعاً ومستقراً وراسخاً يصبح المتدرج عين الدرجة، حتى ليصل الى مرتبة تكون حقيقة الانسان عرش الله حيث «قلب المؤمن عرش الرحمن».

العرش جزء من مقامات الامكان لا من مقامات الواجب. لأنه فعل الله وفيضه، وله ـ سبحانه ـ الاشراف على هذا الفعل وهذا الفيض، والعرش أيضاً كسائر الدرجات الرفيعة ـ بين يدي الله؛ وان أعلى مقام للانسان المتكامل هو هذا الاتحاد الوجودي بالعرش لا الاتحاد المفهومي والماهوي، فان ورد في الروايات ان تهليل المؤمن يبلغ عرش الله، وان عرش الله ليهتز لإيلام القلب المؤمن... وتعبيرات من هذا القبيل، فذلك لأن قلب المؤمن ليصل الى ذروة عرش الله.. يصل الى حيث لا شيء في نطاقه سوى ارادة الله. اذن، ﴿الله رفيع الدرجات ذو العرش﴾. ويعطي الدرجات للمؤمنين حتى ليكونوا معها ﴿لهم درجات﴾.

﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء﴾: يلقي الروح الذي يقول عنه ﴿قل الروح من أمر ربي﴾[2] على خاصة عباده كالأنبياء عليهم السلام هؤلاء ينالون لقاء الروح، ليحذروا الناس من يوم المعاد الذي هو القيامة والأصل والركن الثالث: ﴿لينذر يوم التلاق﴾ ليحذروا الناس من يوم التلاقي. أحد أسماء يوم القيامة ﴿يوم التلاق﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٦٣).

(٢) سورة الاسراء، الآية (٨٥).

اليوم الذي يلتقي فيه الناس بعضهم بعضاً، ويشاهد بعضهم بعضاً على أساس الآية الكريمة: **﴿ان الأولين والآخرين * لمجموعون الى ميقات يوم معلوم﴾**[1] او انه يوم تلاقي الأرض والسماء: **﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾**[2]، **﴿وجمع الشمس والقمر﴾**[3] **﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾**[4]. الا ان تعبير سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي - رضوان الله تعالى عليه - من بين كل هذه المعاني التي ذكروها للتلاقي ألطف وأنسب، فقد ذكر انه تلاقي الخالق والمخلوق حيث يصل المخلوق الى لقاء الله. لأن لسان القرآن الكريم في كثير من هذه الموارد هو ان الانسان يصل في القيامة الى لقاء الله **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾**[5] فلو كان الانسان يمتلك هذين الركنين:

الأول: الحسن الفاعلي اي ان يكون موحداً خالصاً.

والثاني: الحسن الفعلي اي ان يكون لديه عمل صالح فلديه الأمل بلقاء الله تعالى. **﴿يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه﴾**[6] لأن البعض يلتقون الله بالأسماء الجمالية، وبعض يلاقون الله بالأسماء الجلالية. اذن، الجميع يلاقون الله، ولكن كل باسم من اسمائه الحسنى. بناء على هذا، جاء الأنبياء ليقولوا ان البشر مسافر، وإن نهاية سير القافلة البشرية لقاء

---

(١) سورة الواقعة، الآيتين (٤٩ ـ ٥٠).
(٢) سورة الحاقة، الآية (١٤).
(٣) سورة القيامة، الآية (٩).
(٤) سورة الزمر، الآية (٦٧).
(٥) سورة الكهف، الآية (١١٠).
(٦) سورة الانشقاق، الآية (٦).

الله. غايته ان بعضهم يذهب للقاء أرحم الراحمين وبعضهم يذهب للقاء أشد المعاقبين، وكلاهما من أسماء الله الحسنى سبحانه وتعالى.

نأمل ان ينال جميع المؤمنين لقاء أرحم الراحمين، ونسأله سبحانه ببركة أنبيائه وأوليائه أن يحشر أساتيذنا ومعلمينا مع الأنبياء والأولياء الالهيين عليهم السلام وان يجعل قلوبنا أوعية للقرآن الكريم وأحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفهرس